الزعيم الثائر

أحمد عرابى

بقلم

عبد الرحمن الرافعي

دار ومطابع الشعب

الطبعة الثالثة

نحمد الله اذ ها هو كتاب احمد عرابى الزعيم الثائر فى طبعته الثالثة كما خرج فى طبعتيه السـابقتين تماما ـ والطبعة الأولى صادرها الملك السابق فاروق قبل ثورة ٢٣ يوليو ولاقى والدنا المغفور له الأستاذ عبـد الرحمن الرافعى متاعب جسيمة عند ما اخرج هذا الكتاب فى حينه ـ وها هى دار الشعب تعيد طبعه بمناسبة ذكرى وفاة عرابى اذ لاقى ربه يوم ٢١ سبتمبر سنة ١٩١١ عليه وعلى شهداء الوطنية رحمة الله ورضوانه .

« كريمات المؤلف »

عبد الرحمن الرافعى

سبتمبر سنة ١٩٦٨

مقدمة

ان سيرة احمد عرابى – زعيم الثورة العرابية – قد اختلف فيها الرواة والمؤرخون ، والكتاب والمؤلفون ، بين قادح ومادح ، وانصار وخصوم ، وقد عرضت لها فى كتاب « الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » ، ولكنها متناثرة بين فصوله وابحاثه ، فرايت أن أضع كتابا خاصا عن هذه السيرة ، وهو الذى اقدمه اليوم (*)

والمنهج الذى اتبعته فى الترجمة لعرابى هو أن أذكر ما له وماعليه ، لأن تاريخه ليس كله محاسن ، ولا كله مآخذ ، بل تجتمع فيه المحاسن والاضداد ، وخير التراجم ما يتناول شخصية المترجم من نواحيها المختلفة ، والمتباينة احيانا .

تولى عرابى زعامة الجيش وزعامة الأمة فى فترة من أهم فترات التاريخ المصرى الحديث ، فهو جدير بأن يوفى حقه من الدراسة والتدوين .

وعندى أن لسيرته منذ تولى الزعامة مرحلتين ، فالأولى هى المرحلة الموفقة فى تاريخ الثورة العرابية ، اذ ظفرت فيها الأمة بالنظام الدستورى وتقرير حقوقها السياسية ، وكان لعرابى الفضل الأول فى هذا الظفر القومى ، وتبدأ المرحلة الثانية من تنحية شريف

(*) صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب فى يناير سنة ١٩٥٢ وقد صادرها رجال العهد البائد . فلما افرج عنها بعد قيام الثورة ، نفدت جميع النسخ خلال بضعة ايام ثم صدرت بعد ذلك الطبعة الثانية التى نفدت كذلك .

باشا عن رياسة الوزارة فى فبراير سنة ١٨٨٢ ، فأخذت الثورة تتعثر فى خطاها ، ولو ان عرابى ابقى على وزارة شريف باشا لكان من المرجح أن تستمر الثورة على صراطها المستقيم ، وتتغلب على ما اعترضها من العقبات والعراقيل ، ولكن الجد العاثر سار بها فى طريق محفوف بالأشواك والعثرات ».

لقد تحريت الحقائق فى تدوين هذه السيرة ، بحيث أرجو ان تكون فى جملتها صورة حية صادقة للزعيم احمد عرابى .

يناير سنة ١٩٥٢



احمد عرابي باشا وزير الحربية

نشأة الثائر
وأسباب الثورة

العصر الذى ظهر فيه عرابى

نحن الآن فى منتصف القرن التاسع عشر ، وقد تولى سعيد باشا اريكة مصر سنة ١٨٥٤ ، وظل يتولاها الى سنة ١٨٦٣ ، وامتاز عهده بنهضة وطنية ترجع الى شخصيته ونفسيته ، فلقد كان يميل بجوارحه الى خير المصريين ورفاهيتهم ، ويعمل على تحريرهم من نير المظالم التى كانوا يعانونها ، ويشجعهم على تقلد المناصب العالية فى الجيش والادارة ، بعد أن كان معظمها وقفا على الترك والشراكسة .

فى هذا العصر بدأت شخصية احمد عرابى فى الظهور ، اذ نال رتبة ملازم فى الجيش سنة ١٨٥٨ ، ومن يومئذ اخذ يرتقى فى المرتب العسكرية .

فمن هو ذلك الضابط الذى بلغ مرتبة القيادة وعقد له الجيش بل عقدت له الأمة لواء الزعامة سنة ١٨٨١ ؟

نشاته الاولى

ولد أحمد عرابى فى ٣١ مارس سنة ١٨٤١ فى « هرية رزنة » وهى احدى قرى مديرية الشرقية على مقربة من الزقازيق ، وكان أبوه شيخ البلد ، وهو من عائلة بدوية استوطنت تلك القرية فى عهد جد عرابى ، ولما شب وترعرع ، علمه أبوه مبادىء القراءة والكتابة ، وعهد الى رجل يدعى ميخائيل غطاس كان صرافا فى البلد تدريبه على الكتابة والأعمال الحسابية ، ومكث يتمرن على يديه نحو خمس سنوات ، ثم ارسله والده الى الجامع الأزهر سنة ١٨٤٩ لطلب العلم ، فمكث فيه اربع سنوات ، أتم فى خلالها

استظهار القرآن الكريم وتلقى شيئا من اللغة والفقه والتفسير

وبعد ان عاد الى بلده ، دون ان يتم دراسته فى الأزهر ، التحق بالعسكرية فى ٦ ديسمبر سنة ١٨٥٤ جنديا بسيطا « نفرا » تنفيذا لما قرره سعيد باشا من تجنيد اولاد العمد والمشايخ ، ولاجادته القراءة والكتابة والحساب عين كاتبا بدرجة « بلوك امين » بالأورطة الرابعة من الاى المشاة الاول .

وفى سنة ١٨٥٨ رقى الى مرتبة الضباط ، وذلك حين اعتزم سعيد باشا ترقية المصريين فى الجيش ، فنال فى تلك السنة رتبة ملازم من تحت السلاح ، وهو بعد فى السابعة عشرة ، ثم رتبة يوزباشى سنة ١٨٥٩ ، ثم رتبة صاغ سنة ١٨٥٩ ، ثم رتبة بكباشى سنة ١٨٦٠ ، ثم صار قائم مقام فى سبتمبر سنة ١٨٦٠ ، وقد حظى برضا سعيد باشا ورافقه فى زيارته للمدينة المنورة ياورا له سنة ١٨٦٠ ، وكان لهذه الزيارة اثر كبير فى نفسه ، اذ آنس من سعيد عطفا كبيرا على طبقة الفلاحين ، ثم بدأ لسعيد أن ينقص عدد الجيش ، فالغى بعض الفرق وفصل ضباطها من الخدمة ، ومنهم احمد عرابى ، ثم امر باعادتهم قبيل وفاته ، وعاد عرابى الى سابق رتبته .

من هذا البيان يتضح ان ليس فى نشأة عرابى شىء يستوقف النظر، بل هى نشأة عادية لرجل عادى، لم يتميز فى ماضيه بالبطولة ولم يخض غمار المعارك والحروب ، كان ضابطا من تحت السلاح ، ونال مرتبة الضباط لأن سعيد باشا وضع قاعدة امكان ترقية الضباط من بين أفراد الجند رغبة منه فى اكثار عددهم . ولا غبار على هذه النشأة فى شىء وليس ثمة ما يمنع صاحبها من أن يقوم بدور هام فى حياة البلاد السياسية والقومية .

متى وكيف بدأت دعوته الوطنية ؟

يبدو من التأمل فى حياة عرابى أن دعوته الوطنية قد بدأت تخالجه فى عهد سعيد باشا ، فقد سمعه يلقى خطبة فى « قصر النيل » مقر وزارة الحربية وقتئذ ، قال فيها مخاطبا الحاضرين من العلماء والرؤساء الروحانيين وافراد الأسرة الحاكمة وكبار رجال الحكومة الملكيين والعسكريين :

« ايها الاخوان ... انى نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ فوجدته مظلوما مستعبدا لغيره من امم الأرض ، فقد توالت عليه دول ظالمة له كثيرا ...

« وحيث انى اعتبر نفسى مصريا فوجب على أن اربى أبناء هذا الشعب واهذبه تهذيبا ، حتى اجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفسه عن الأجانب ، وقد وطدت نفسى على ابراز هذا الرأى من الفكر الى العمل » .

يقول عرابى تعليقا على هذه الخطبة انه لما انتهى سعيد باشا من القائها خرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين حنقين ، مدهوشين مما سمعوا ، واما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحا واستبشارا ، ويقول انه اعتبر هذه الخطبة أول حجر فى أساس مبدأ « مصر للمصريين » .

ولا شك ان خطبة سعيد باشا لم تصادف فى نفس عرابى موضع الاقناع والغبطة الا لأن روحه كانت وطنية ، فهى تقبل ما يوافق ميولها واتجاهاتها .

على أن دعوته الوطنية لم تنضج الا فى عهد الخديو اسماعيل ، ذلك انه حين خلف سعيد باشا فى ولاية الحكم فقد عرابى عطف ولى الأمر الجديد، اذ لم يكن اسماعيل يأخذ بسنة سلفه فى العطف

على الضباط الوطنيين ، فعادت الحظوة فى الجيش الى الضباط الشراكسة ، فكان ذلك من اسباب تذمر عرابى واتجاه أفكاره الى المطالبة بحقوق الضباط الوطنيين .

ووقع له حادث فى اوائل عهد اسماعيل كان له اثر كبير فى اتجاه أفكاره وتكوين دعوته الوطنية ، فقد وقعت خصومة بينه وبين اللواء خسرو باشا الشركسى أدت الى تقديمه الى مجلس عسكرى والحكم عليه بالسجن واحدا وعشرين يوما ، فاستانف عرابى هذا الحكم أمام المجلس العسكرى الاعلى ، فقضى بالغاء الحكم الابتدائى ، وحدث خلاف بسبب هذا الحكم بين وزير الحربية وقتئذ — اسماعيل سليم باشا — ورئيس المجلس الاعلى ، لأن الوزير كان يرغب فى تأييد الحكم الابتدائى ، فسعى لدى الخديو اسماعيل فى فصل عرابى من الجيش ، فتم له ما اراد ، فاورثته هذه الحادثة بغضا شديدا للشراكسة .

ورفع ظلامته من هذا القرار الى الخديو اسماعيل ، وظلت بين النظر والاهمال ثلاث سنوات ، وقد توسط له بعض الخيرين فالتحق بوظيفة فى دائرة الحلمية ، وفى أثناء قيامه بهذه الوظيفة تزوج من كريمة مرضعة الأمير الهامى باشا وهى أخت حرم الخديو توفيق من الرضاعة ، وتوصل بذلك الى استصدار أمر من الخديو اسماعيل بالعفو عنه واعادته الى الجيش برتبته العسكرية ، ولكنه حرم مرتبه مدة فصله ، فتأصلت فى نفسه روح الكراهية لرؤساء الجيش من الشراكسة والترك الذين كانوا سببا فى تأخير ترقية الضباط المصريين ، ومنهم عرابى ذاته ، فقد ظل تسعة عشر عاما برتبة قائم مقام ، وهى الرتبة التى نالها فى عهد سعيد ، وشهد عرابى محاباة الرؤساء لصغار الضباط الذين هم من أصل شركسى ، ممن هم دونه مرتبة ، حتى نالوه فى الرتب العسكرية لا لسبب سوى أنهم من مماليك أو أبناء مماليك العائلة الخديوية .

من ذلك الحين اخذ عرابى يبث فى نفوس الضباط الوطنيين فكرة الاتحاد والمطالبة بحقوقهم ، ورفع الحيف منهم ، وكان للباقته وفصاحته فى الكلام واستناده الى بعض الاحاديث الشريفة النبوية والحكم المأثورة ، تأثير كبير فى نفوس الضباط اجتذبهم اليه ومال بهم الى تلبية ندائه والاستماع لنصائحه والاقتناع بدعوته ، ذكر محمود فهمى باشا احد زعماء الثورة العرابية فى هذا الصدد ، أن عرابى دخل سنة ١٨٧٥ احد الآلايات المرابطة بناحية رشيد ، فاخذ من ذلك الوقت فى تأليف قلوب الضباط الوطنيين « أولاد العرب » على حد تعبيره وجمع كلمتهم على ولائه واظهار الأسف لحرمانهم من الترقيات فى حين أن الضباط الترك والشراكسة مغمورون بها .

فيمكن اعتبار سنة ١٨٧٥ بدء دعوة عرابى الوطنية ، وكان ذلك فى عهد الخديو اسماعيل .

ولما تولى توفيق باشا مسند الخديوية رقى عرابى الى رتبة أميرالاى فى يونية سنة ١٨٧٩ ، وأصدر الخديو امره بذلك وهو فى الاسكندرية ، فتوجه عرابى الى سراى راس التين وقدم للخديو شكره مقرونا بعبارات الاخلاص والولاء ، فشمله الخديو برعايته ، وجعله ضمن ياورانه ، وعينه أميرالاى لآلاى المشاة الرابع الذى كان مركزه بالقاهرة ، ويعرف بالآى العباسية ، وظل يشغل هذا المنصب حتى شبوب الثورة سنة ١٨٨١ .

اسباب الثورة

توصف ثورة عرابى بأنها ثورة عسكرية ، وهذا صحيح لا مراء فيه اذا لاحظنا أن زعيمها والقائمين بها هم من ضباط الجيش ، وانها قامت وتحركت وفازت وقتا ما بقوة الجيش ، ثم انتهت بهزيمته .

ولكن مما لا ريب فيه كذلك انها ليست ثورة عسكرية فحسب، بل هي ايضا ثورة قومية ، اشتركت فيها طبقات الامة كافة ، واذا أردنا أن تستقصي أسبابها وجدناها على نوعين : أسباب خاصة مباشرة ، وهي المرتبطة بطبقة الضباط والجند وموقفهم من الحكومة ، وموقف الحكومة منهم . واسباب عامة ، وهي التي تتصل بحالة الشعب والعوامل التي دفعته الى مناصرة الثورة وتأييدها . واذ كانت الاسباب الخاصة اقوى اثرا في ظهورها وتطورها ، فلنبدأ بالكلام عنها ...

الاسباب المباشرة

ترجع هذه الاسباب الى تذمر الضباط الوطنيين من سوء معاملة رؤسائهم وخاصة عثمان رفقي وزير الحربية في عهد وزارة رياض باشا ، التي شبت الثورة في عهدها .

كان عثمان رفقي قائدا شركسيا متعصبا لجنسه يتحيز للضباط الذين هم من أصل شركسي أو تركي أو ارناءودي ، ويعمل على جمع زمام السلطة في أيديهم ، ويؤثرهم في الترقيات والتعيينات على الوطنيين الذين كان ينظر اليهم بعين الزراية والبغض .

وكان عثمان رفقي من ناحية الكفاية جاهلا ، قليل الادراك والذكاء ، عديم المواهب ، قليل النظر في العواقب ، يمثل طبقة الرؤساء العسكريين المنحدرين من سلالة الترك والشراكسة الذين كانت لهم رياسة الجيش في عهد اسماعيل واوائل عهد توفيق . ولم يكن الضباط الوطنيون يجدون منهم في الجملة انصافا ، ولا مساواة ولا معاملة حسنة ، ولو أن اسماعيل درج على سنة سعيد في تشجيعه المصريين وترقيتهم في المناصب العسكرية ، لسادت روح المساواة في الجيش . ولما هيأ امثال عثمان رفقي السبيل الى الفتنة .

ولا مراء فى ان اسماعيل كان يميز الضباط والرؤساء الشراكسة والترك على الوطنيين فى المعاملة، برغم ما بدا منهم من العجز والجهل وعدم الكفاية ، مما ظهر اثره جليا فى الهزائم التى حاقت بالجيش سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦ فى حرب الحبشة . وعلى ما كان لهذه الهزائم من اسوأ الأثر فان اسماعيل لم يحاسب أولئك القواد والضباط على ما وقع منهم من الاهمال والتقصير ، وقيل انه اعتزم محاكمة راتب باشا قائد هذه الحملة ، ولكنه ما لبث أن رجع عن ذلك .. فقربه اليه وجعله من خاصة بطانته .

وهذا يدلك على شديد ميله الى تلك الفئة .. فكانت لها الحظوة لديه ، ثم لدى الخديو توفيق . ولو ظلت روح المساواة التى بثها سعيد فى الجيش سائدة فى عهد اسماعيل وتوفيق، لما قامت الثورة العرابية ، لأن عرابى وصحبه لم يثوروا الا حين طفح الكيل من محاباة أمثال عثمان رفقى للترك والشراكسة ، واضطهادهم للضباط الوطنيين . فعرابى وصحبه كانوا على حق فى المرحلة الأولى من الثورة ، لان الطبيعة البشرية مفطورة على كراهية الظلم والاضطهاد . ومن صفات النفس الانسانية الثورة على المظالم . ولم تكن المظالم التى يشكو منها الضباط الوطنيون مقصورة على حرمانهم حقوقهم فى الترقى ، بل كانوا كذلك هدفا لأشد ضروب العنت والارهاق، اذ كان يكفى أن تلصق بأحد منهم تهمة ما ، ولو لم تكن صحيحة ، ليكون جزاؤه أن تنزع منه درجته أو يقصى عن منصبه ، أو ينفى الى اقصى السودان ، وتصبح حياته عرضة للخطر لأوهى الاسباب.

فالثورة العرابية كانت ثورة دفاع عن الحق ، ودفاع عن الحياة ، وليس من ينكر ما كان عليه معظم الرؤساء الشراكسة والترك والارناءود من الفلظة والفطرسة ، والزهو والخيلاء ، والزراية بالوطنيين .. فان هذه النزعات كانت فاشية فيهم ، لا فى مصر وحدها ، بل فى سائر بلاد السلطنة العثمانية القديمة ، اذ كان العربى

يعانون سوء معاملة الترك لهم واضطهادهم اياهم ، وكانت هذه المعاملة من أسباب قيام الفتن والثورات فى السلطنة العثمانية ، حتى نهاية الحرب العالمية الاولى .

وما دمنا فى صدد الأسباب المباشرة للثورة ، فلا جدال فى أن ظهور احمد عرابى كان فى مقدمة هاتيك الاسباب ، فهو الذى بث فى نفوس الضباط روح التضامن والاتحاد للمطالبة بحقوقهم المهضومة ، وتقدم الصفوف لعرض مطالبهم جهارا على ولاة الأمور ، وكانت هذه المطالب فاتحة الثورة ، فهذه الجراة كان لها اثر كبير فى ظهور الثورة ، ولو لم يظهر عرابى ، ولم تكن له تلك الشخصية التى اجتذبت اليه صفوف الضباط وبثت فيهم روح التضامن والاقدام ، لكان محتملا الا تظهر الثورة العرابية ، أو لظهرت فى زمن آخر ، وفى ظروف وملابسات أخرى ، غير التى ظهرت فيها .

وهناك سبب من الأسباب المباشرة ، يرجع الى شخصية الخديو توفيق ، فقد كان من أخص صفاته التردد والضعف ، فلم يعالج الثورة فى مهدها بالحزم والشدة ، او بالعدل ورفع المظالم التى شكا منها الضباط ، بل كان موقفه منها موقف التردد والتناقض ، يستقر على راى واحد ، ولا على خطة واحدة .. بل كان يقابل حركة الضباط تارة باللين وآونة بالشدة ، ثم يجنح الى التراخى والضعف ، ثم الى الشدة بعد الضعف . ولم يكن صريحا فى مسلكه ولا فى تصرفاته ، وكان له عدا ذلك من ظروفه العائلية ما يشجع عوامل التحريض على الثورة ، فان اسماعيل كان لا يفتأ يسعى فى العودة الى الحكم ، ولا يرضيه أن يستقر ابنه على العرش .

ومن هنا جاء الظن بأن لاسماعيل ضلعا فى مؤامرة الضباط الشراكسة التى اجحت نار الخلاف بين الخديو والعرابيين ، كما سنذكره فى موضعه . وكذلك كان له من الأمير محمد عبد الحليم ابن محمد على منافس قوى فى التطلع الى مسند الخديوية . وكان

وجود عبد الحليم فى الآستانة ــ مهبط الفتن والدسائس ــ واتصاله برجال المابين ، عاملا قويا لتهيئة الأفكار لتوقيع خلع توفيق كما خلع أبوه من قبل . هذا الى أن الأمير عبد الحليم كان بحسب نظام الوراثة القديم أحق بالعرش من توفيق لأنه أكبر أفراد الأسرة الحاكمة سنا .

ولم يتبدل هذا النظام الا فى عهد اسماعيل اذ جعل العرش فى ذريته ــ فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ ــ فكان توفيق أول من أفاد من النظام الجديد ، ولم يكن قبل صدور هذا الفرمان يتطلع الى العرش، ولا كان معترفا له بالزعامة من امراء آل بيته ، وبخاصة الأميرات، اذ كن ينعين على والدته أنها قينة من جوارى اسماعيل . فهذا المركز القلق من شأنه أن يحرض على الثورة ، أضف الى ذلك أن أعضاء وزارة رياض باشا كانوا مختلفى الرأى والنزعات فى مواجهة الثورة ، فكان هذا الموقف وما ينطوى عليه من الاضطراب والتنافس من العوامل التى أعانت على ظهور الثورة ونجاحها .

وثمة أسباب عامة يشترك فيها الشعب بجميع طبقاته ، منها أسباب سياسية ، وأخرى اقتصادية ، وثالثة اجتماعية .

الأسباب السياسية

فالأسباب السياسية ترجع الى تذمر المصريين عامة من سوء نظام الحكم القائم ، ورغبتهم فى التخلص منه ، فقد كان قوام هذا النظام استبداد الحكام واضطهادهم الأهلين .

لم يكن ثمة عدل ولا قانون ، ولا قضاء ينتصف للمظلوم ويعطى كل ذى حق حقه ، ولا حرية ، ولا مساواة ، ولا ضمانات قانونية تكفل للناس حقوقهم وحياتهم . وكان الضرب بالكرباج شائعا يتخذه الحكام وسيلة لتحصيل الأموال ، أو أداة للقسوة والتعذيب .. حقا أن رياض باشا أمر بابطاله ، ولكن أوامره فى هذا الصدد لم تنفذ

تنفيذا تاما ، وبقى الكرباج فى كثير من النواحى اداة للحكم ، وكانت السخرة مضروبة على البلاد ، ولم تكن مقصورة على المنافع والأعمال العامة ، بل كانت تستخدم لاستصلاح اطيان ذوى السلطة والجاه من الحكام والأمراء . وكان النفى الى أقاصى السودان عقوبة يعانيها الكثيرون لمجرد الشبهة أو النكاية . ذكرت جريدة « المونيتور اجبسيان » — الجريدة الرسمية الفرنسية للحكومة — أنه لما ألف شريف باشا وزارته بعد قيام الثورة العرابية تقدمت له عرائض كثيرة من المحكوم عليهم بالنفى الى السودان يطلبون رفع الظلم عنهم ، وبلغ عددهم ٩١٢ منفيا ، وهو عدد كبير يدلك على كثرة المظالم التى كان الناس يعانونها قبل الثورة ، وقد تبين من تحقيق هذه الشكايات أن كثيرين من المنفيين كان يتقرر نفيهم لمجرد محضر موقع عليه من بعض الأفراد باتهام أى شخص بانه خطر ، أو لمجرد خطاب من أية سلطة محلية بهذا الاتهام . ولم تكن المظالم مقصورة على طبقة دون اخرى ، بل كانت عامة ، يعانيها العامة والخاصة ، ولم يكن ينجو من شرها الا من كانت تشملهم رعاية أولى الأمر ، على أن هذه الرعاية لم تكن مضمونة البقاء ، بل كثيرا ما تنقلب غدرا لغير ما سبب سوى أهواء الطغاة وتقلباتهم .

فالمصريون كانوا اذن يتطلعون الى التخلص من نظام الحكم القائم ، وقد ادركت الطبقة الممتازة من الامة أن اصلاح هذا النظام انما يكون بقيام الدستور وانشاء مجلس نيابى يوطد مبادىء العدل والحرية ، ويتحقق فيه معنى الرقابة على الحكام ، ويحول دون ارتكاب المظالم .. فيأمن الناس على حقوقهم وعلى حياتهم ، ومن هنا اتحدت الطبقة المثقفة من الأمة مع الضباط الوطنيين فى الشعور والميول ، وأجمع الكل على المطالبة بالمجلس النيابى . فالثورة العرابية كانت من هذه الوجهة ثورة على المظالم ، وثورة على الحكم الاستبدادى .

وليس يخفى ان البلاد عرفت شيئا من النظام الدستورى من

قبل ، اذ انشىء مجلس شـورى النواب سنة ١٨٦٦ على عهـد اسماعيل . ولكنه كان مجلسـا لا سلطة له ، فلم يكن له أى أثر فى رفع الظلم عن الاهلين ، وقد بدأت روح الحياة والمعارضة تظهر بين اعضائه فى أواخر عهد اسماعيل ، وتطلعت افكار الخاصة من النواب والاعيان الى اصلاح نظامه وتوسيع اختصاصه ، وحقق شريف باشا هذه الآمال بوضع دستور على أحدث المبادىء العصرية سنة ١٨٧٩ ، ولكن الأزمة التى انتهت بخلع الخديو اسماعيل حالت دون اصداره والعمل به .

وبينما كانت الطبقة المثقفة ترتقب اعلان الدسـتور على يد الخديو توفيق ، اذا بهم يرون شريف باشا يستقيل لمعارضة الخديو اياه فى تشكيل مجلس النواب ، واصراره على الحكم المطلق . ورأوا الخديو يؤلف وزارة برياسته ، مما يتم عن ميوله الاستبدادية ، ثم يكلف رياض باشا تأليف وزارة كان من مبادئها الاساسية حكم البلاد حكما مطلقا ، وحرمانها أى نظام دستورى . . حتى مجلس شورى النواب القديم على ما كان عليه من ضعف السلطة ، فقد ظل معطلا زهاء سنتين ، طوال عهد وزارة رياض باشا . ولم ينس الناس ما كان لهـذا المجلس من بعض المواقف الطيبة فى أواخر عهـد اسماعيل ، وانه عطل فى عهد توفيق ، فكان لزاما أن يستأنفوا الجهاد للدستور . وكان طبيعيا اذا دعاهم داع الى الثورة ان يلبوا نداءه طائعين مستبشرين . . ويتبين لك من هذه الناحية أن الثورة العرابية هى استمرار للحركة الوطنية التى ظهرت فى أواخر عهد اسماعيل وامتداد لها .

وكانت سياسة رياض باشا من اسباب ظهور الثورة ، فقد استهدف لحركة مقاومة قوية لما بدا منه من المعارضة فى انشـاء مجلس النواب ، وانحيازه للنفوذ الاوربى ، ولمـا عرف عنـه من الاستخفاف بميول الشعب وعدم اكتراثه لآراء الخاصة من الكبراء والأعيان ، واصراره على قمع كل معارضة بالشدة ، واضطهاده

للمعارضين . ومن امثلة هذا الاضطهاد تجريده الفريق شاهين باشا كنج وزير الحربية السابق من رتبته والقابه لاتصاله بالحزب الوطنى ، وتقديم السيد حسن موسى العقاد للمحاكمة ، ونفيه الى اقصى السودان لاعتراضـه على الغـاء قانون المقـابلة ، ثم اضطهاده للصحف المعارضة لوزارته .

استهدفت الصحف المعارضة للاضطهاد فى عهد وزارة توفيق ، ثم فى عهـد وزارة رياض ، واستخدمت الحكومة اللائحة القديمـة المسماة لائحة أو (نظامنامه) المطبوعات لانذار الصحف أو تعطيلها ففى عهد الوزارة التى راسها توفيق باشا عطلت الحكومة جريدة « مرآة الشرق » لمدة شهر ، وانذرت جريدة « التجارة » ثم عطلت جريدة « مرآة الشرق » لمدة خمسة اشهر « لأنها اعتادت الدخول فيما لا يعنيها ، ونشرت مطالعات سخيفة مخترعة من تلقاء نفسها خرجت فيها عن حدود وظائفها » . وفى عهد وزارة رياض باشا انذرت جريدتا « مصر » و « التجارة » لنشرهما مقالات عدتها الحكومة غير معتدلة تخدش الأذهان ، ثم عطلتا نهائيا لاصرارهما على خطة المعارضين .

كانت جريدتا « مصر » و « التجارة » من أقوى صـحف المعارضة ، تجلت فيهما روح السيد جمال الدين ، ولا غرو فصاحبها ومنشئها هو اديب اسحق من خاصة تلاميذ الحـكيم الافغانى ، انشئت الأولى سنة ١٨٧٧ والثانية سنة ١٨٧٨ فى أواخر عهد اسماعيل وكانتا فى عهد توفيق لا تفتأ كل منهما تنشر المقالات الحماسية وتنتقد سياسة الحكومة وتندد بتفريطها فى حقوق البلاد ، فلم تطق وزارة رياض باشا صبرا على مسلكهما واصدرت قرارها بتعطيلهما تعطيلا نهائيا .

وانذرت جريدة « مصر الفتاة » لطعنها على الحكومة لمناسبة توسيع اختصاصات الرقيبين الماليين ثم عطلت تعطيلا نهائيا لنشرها مقالات واخبارا عدتها الحكومة مهيجة للخواطر والأفكار ، ومنعت

جرائد «النحلة» و « أبو نضارة » ثم «أبو صفارة» و «القاهرة» و « الشرق » من دخول القطر المصرى ، وانذرت جريدة « الاسكندرية » ثم عطلتها شهرا ، وعطلت جريدة « المحروسة » لمدة خمسة عشر يوما . ولم يقتصر الاضطهاد على الصحف العربية ، بل تناول الصحف الاوربية ، فعطلت جريدة « الريفورم » تعطيلا نهائيا واغلقت مطبعتها بحجة انها تنشر مقالات مثيرة للافكار ، وانذرت جريدة « الفارد السكندرى » .

فالصحف المعارضة ، وما كانت تبثه فى الأفكار من روح التبرم بنظام الحكم والتطلع الى الحرية والدستور ، وما لقيته من اضطهاد . كل ذلك كان من الأسباب الممهدة للثورة والمحرضة عليها .

* * *

وقد اشتد ساعد الحركة بتأليف جمعية من الناقمين من سياسة رياض باشا ، عرفوا بالحزب الوطنى « القديم » ، وقد نشروا فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٧٩ أول بيان سياسى لهم ، وطبعوا منه عشرين الف نسخة . وسعى رياض باشا فى معرفة ناشريه لاقصائهم الى السودان فلم يستطع الى ذلك سبيلا . ويقول المسيو جون نينيه الذى عاصر حوادث الثورة العرابية : « ان اخفاق رياض باشا فى تعقب ناشرى هذا البيان شجع خصومه على متابعة العمل لاسقاطه ، وان منهم الخديو توفيق ذاته . ومن بينهم الباشوات الأربعة شريف باشا ، واسماعيل راغب باشا ، وعمر لطفى باشا ، وسلطان باشا — وانهم أوفدوا الى باريس اديب اسحق لانشاء جريدة القاهرة — وقد رحل فعلا الى أوربا بعد الغاء جريدتيه « مصر » و « التجارة » . واصدر بباريس جريدة معارضة لوزارة رياض ، وكانت من أشد الصحف لهجة ضدها ، فكانت من أقوى العوامل فى اثارة الأفكار على رياض ووزارته . وتعقبها رياض لمنع تداولها فى مصر ، ولكن الباشوات الأربعة كانوا يوزعونها فى انحاء البلاد . وتعددت الاجتماعات السرية فى منزل سلطان باشا لتنظيم

الحزب الوطنى ، وقويت الروابط بين منظمية . . وكان فى مقدمتهم سلطان باشا واحمد عرابى بك وصاحباه عبد العال حلمى وعلى فهمى ، ومحمود سامى البارودى باشا وسليمان أباظة باشا — مدير الشرقية — وحسن الشريعى باشا — مدير المنيا — ومحمود فهمى باشا .

ويقول المسيو « جون نينيه » : ان الغرض من ضم المديرين الى الحزب هو نشر الدعاية له فى الاقاليم ، وان سلطان باشا بوجاهته وثرائه — اذ كان يمتلك نحو ثلاثة عشر الف فدان من اجود الأطيان — كان يطمع فى رياسة الحزب رغم ضعف اخلاقه ودخيلة نفسه ؟ ولم يكن يتطلع الى الوزارة لأنه لم يكن كفؤا لها بل كان يرنو الى رياسة مجلس النواب .

ويقول عرابى فى مذكراته عن تأسيس الحزب الوطنى : انه تألف من لفيف من العظماء والكبراء والعلماء والنبهاء ، ويرجع تأليفه الى التذمر من تغلغل النفوذ الأوربى فى الحكومة — فالف اولئك الكبراء هذا الحزب ، وجعلوا مركزه مدينة « حلوان » ونشروا عدة منشورات فى الصحف الفرنسية نصحوا فيها للحكومة بمراعاة مصالح البلاد واعلنوا عن وجود الحزب الوطنى ، وبينوا واجباته وحقوقه ، ثم اعترضوا على « الدين الممتاز » واختصاصه بالضمان وطلبوا المطالب الآتية :

اولا — تعاد الى الحكومة المصرية جميع الأملاك المسماة بالخديوية .

ثانيا — يلغى النص القاضى بتخصيص السكة الحديدية للقرض الممتاز — فى قانون التصفية — فان لم يرض بذلك الدائنون من الانجليز تعين عليهم قبول ذلك الدخل كما هو من غير أن تؤخذ بقية الفائدة المخصصة لهم من الدخل العام .

ثالثا ـ أن تكون الديون الممتازة والسائرة والمنتظمة دينا واحدا مضمونا بمال الأمة والبلاد بفائدة مقدارها ٤ فى المائة .

رابعا ـ أن تقام ادارة مراقبة وطنية خاصة مؤقتة يكون فيها ثلاثة من الاجانب تعينهم الدول وتقرهم الحكومة المصرية .»

* * *

فرواية عرابى عن تأسيس الحزب الوطنى لا تختلف فى جوهرها من رواية نينيه . ويقول عرابى انه لما علمت الحكومة بوجود هذا الحزب شددت الرقابة على زعمائه وهددتهم واضطهدتهم . وكان الفريق شاهين كنج باشا وزير الحربية السابق من زعماء هذا الحزب، فاحتمى بالحماية الايطالية وغادر مصر الى ايطاليا فصدر أمر الخديو فى ١٤ يونية سنة ١٨٨٠ بتجريده من رتبه وألقابه ومحو اسمه من دفاتر ضباط الجيش . وبنى الأمر على انه دخل فى حماية دولة أجنبية دون أن يعطى له اذن بذلك ، وانه سافر من مصر بدون جواز سفر مستعينا بجواز سفر حصل عليه من حكومة أجنبية دون أن تعترف به الحكومة المصرية .

يتبين مما تقدم أن الحزب الوطنى كان له أثر كبير فى اظهار الثورة العرابية ، وكانت بالاسكندرية جمعية أخرى عرفت بجمعية « مصر الفتاة » رفعت عريضة الى الخديو بمطالب الحرية وأنشأت جريدة « مصر الفتاة » للدعوة الى الحرية وهى الجريدة التى عطلتها الحكومة كما تقدم .

وثمة عامل آخر ، يتصل بالأسباب السياسية ، كان له أثره فى التحريض على الثورة ، ويعد من مقدماتها ، وهو حدوث سابقة للثورة العرابية .. ونعنى بها ثورة الضباط على وزارة نوبار باشا أواخر عهد اسماعيل فى فبراير سنة ١٨٧٩ ، فان تلك الثورة هى صورة مصغرة للثورة العرابية ، اذ قامت على أكتاف الضباط ، وكان الباعث شكواهم من تأخير مرتباتهم واحالة ٢٥٠٠ منهم الى

الاستيداع ، فذهب نحو ستمائة ضابط منهم يتبعهم لفيف من طلبة المدرسة الحربية ونحو الفين من الجنود الى وزارة المالية بحجة رفع ظلامتهم الى نوبار باشا والسير ريفرس ويلس وزير المالية وقتئذ ، فهجموا على نوبار باشا واعتدوا عليه بالضرب ، وكذلك اعتدوا على السير ريفرس ويلسن ، واقتحموا ابواب الوزارة واحتلوا غرفها وقاعتها وحبسوا نوبار باشا ، ورياض باشا — وكان وزيرا للداخلية — والسير ريفرس ويلسن فى احدى غرف الدور الاعلى . وكانت نتيجة تلك الثورة سقوط وزارة نوبار . فهذا الفوز الذى احرزه الضباط سنة ١٨٧٩ قد أغرى عرابى وصحبه بالثورة سنة ١٨٨١ .

الأسباب الاقتصادية

لم تكن الحالة الاقتصادية خيرا من الحالة السياسية ، بل كانت أدعى منها الى الثورة .. فالديون التى اقترضها الخديو اسماعيل ألقت على البلاد عبئا جسيما من الاثقال الفادحة ، واضطرت الحكومة الى تخصيص نصف موارد الميزانية لسداد فوائد الديون . فكان ذلك سببا لتذمر الاهلين خاصتهم وعامتهم ، لأن تخصيص هذا المبلغ الضخم ، الذى يجبى كل عام من عرق الفلاح وكده ، معناه حرمان الأهلين ثمرة جهودهم ومتاعبهم ، واضاعتها لحساب الدائنين .. هذا فضلا عن فداحة الضرائب فى مجموعها ، وعدم توزيعها توزيعا عادلا ، واقتضائها بوسائل القهر والارهاق . فانضم الأهلون الى الثورة وشايعوها آملين ان تخفف عنهم أعباء الضرائب . وكان استفحال نفوذ الأجانب عامة ، واستحواذهم على مرافق البلاد الاقتصادية ، مما دعا الى تبرم الأهلين بنظام الحكم .. فان الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها والمزايا التى نالها التجار والمرابون منهم قد اكسبتهم الأموال الطائلة فاثروا على حساب الخزانة المصرية وعلى حساب الأهلين .

وزاد فى تذمر المثقفين والاعيان استسلام الحكومة فى عهد وزارة رياض باشا لمطالب الدائنين وحكوماتهم ، فقد اقرت نظام الرقابة الثنائية كما أملاه القنصلان الانجليزى والفرنسى ، وخولت الرقيبين الأوربيين سلطة واسعة المدى فى شئون الحكومة المالية ، واتسع النفوذ الأوربى داخل الحكومة بواسطة الرقيبين وخارج الحكومة لاستجابتها لمطالب الماليين الاوربيين ، والترخيص لهم باستثمار موارد البلاد ومرافقها الاقتصادية ، فأنشئت فى عهد وزارة رياض باشا عدة مؤسسات مالية واقتصادية زادت فى طغيان النفوذ الاوربى فى حياة مصر الاقتصادية ، كالبنك العقارى ـ وقد تأسس فى ١٥ فبراير سنة ١٨٨٠ ـ وشركة تكرير السكر ، والشركة العمومية لاجراء الاشغال بالديار المصرية ، وشركة المقاولات وغيرها ، وكلها شركات أجنبية برءوس أموال أوربية ، وأعضاؤها من الأوربيين وعقود تأسيسها التى صدرت بها الأوامر العالية لم تراع فيها مصالح الأهلين فى شىء .. فهذا الاسراف فى رعاية المصالح ورءوس الأموال الأوربية ، وتمكينها من التغلغل فى كيان البلاد المالى والاقتصادى ، كل ذلك كان له اثره فى تبرم الناس بالوزارة ، فضلا عن أنه كان فى ذاته عملا غير صالح ولا يتفق والروح القومية .

***

وزاد الاعيان سخطا على الوزارة الغاؤها « قانون المقابلة » ، فانضموا الى صفوف المعارضة، ذلك أن ابطال ما كان يقضى به هذا القانون من اعفائهم من نصف المربوط على أطيانهم من الضرائب ، فيه ضياع أموالهم التى ادوها للحكومة مقابل هذا الاعفاء . وقد كان أكثر الأعيان اعتراضا على هذا الالغاء السيد حسن موسى العقاد ، فقدم بذلك مظلمة الى لجنة التصفية نشرها فى جريدة « الريفورم » ووصف فيها هذا العمل بأنه استبداد ، وأبان أن قانون المقابلة وما احتواه من المزايا لدافعى الضرائب مقدما هو عقد لا يجوز نقضه من جانب الحكومة وحدها ، وان الاهالى قد احتملوا شدائد كثيرة

فى اداء المقابلة ، وباعوا فى هذا السبيل مصوغاتهم وأملاكهم ، واستدانوا الديون الفادحة فكان لزاما على الحكومة أن ترد جميع ما اداه المالكون الى أصحابه، بحيث لا يسرى مرسوم الالغاء الا بعد رد ما اخذته الحكومة . فرأى رياض باشا أن فى تقديم هذه المظلمة الى لجنة التصفية ونشرها فى جريدة « الريفورم » معنى التشهير بالحكومة واثارة الأفكار عليها، وبخاصة لأن العقاد دعا الأهالى الى توقيع عرائض بهذا المعنى ، فأمر بالقبض عليه وقدمه للمحاكمة ، فحكم عليه مجلس مصر الابتدائى بالحبس سنتين . وشدد المجلس الاستئنافى هذا الحكم ، فزاده الى خمس سنوات . ولم تكتف الحكومة بذلك ، بل قضى « مجلس الأحكام » بنفيه الى فازوغلى بأقاصى السودان ، ونفذ فيه الحكم وسيق الى فازوغلى .. ولم يفرج عنه الا فى عهد وزارة شريف باشا بعد انشاء مجلس النواب . يضاف الى ذلك صدور قانون التصفية ـ يوليه سنة ١٨٨٠ ـ فقد ظهر فيه من التحيز للدائنين الأجانب والاجحاف بالأهلين ، ما زاد الناس كرها لوزارة رياض باشا ، وزاد الاعيان والملاك سخطا عليها لما فرضته عليهم من زيادة ضريبة العشر على اطيانهم .

ومن مظاهر سياسة الحكومة الاقتصادية انقاص عدد الجيش توفيرا للنفقات .. وهذا النقص كان له سبب آخر يتصل بالحالة السياسية ، وهو صدور الفرمان السلطانى لتوفيق باشا مشتملا على انقاص عدد الجيش العامل الى ١٨ الف جندى . ولكن السبب الاقتصادى كان له أكبر الأثر فى هذا النقص ، لأن عدد الجيش نقص الى اثنى عشر الفا أى الى أقل مما حدده الفرمان السلطانى ، وقد استتبع هذا النقص احالة كثير من الضباط الى الاستيداع ووقوعهم فى الضيق المالى . ولم تعن الحكومة بتدبير وظائف لهم تعوضهم عما نقص من رواتبهم ، فانضموا بطبيعة الحال الى الناقمين .

وشارك الموظفون ضباط الجيش فى شعورهم ، اذ راوا من مظاهر اتساع سلطة الرقيبين الاوربيين ما يثير فى نفوسهم روح السخط والتبرم ، واهم هذه المظاهر ازدياد نفوذ الموظفين الاوربيين فى دور الحكومة ، وزيادة عددهم ، وتمييزهم بالمرتبات الضخمة .. فاستاء لذلك الموظفون الوطنيون .

وخلاصة ما تقدم ان الثورة العرابية هى من الوجهة السياسية ثورة على الاستبداد والمظالم ، ومن الوجهة الاقتصادية ثورة على التدخل الأوربى فى شئون مصر المالية وعلى النظم الاقتصادية التى كانت تعانيها البلاد قبل الثورة .

الأسباب الاجتماعية

ان حالة المجتمع المصرى كانت تؤهله بلا مراء ــ عند اول دعوة ــ لتلبية نداء الحرية والثورة .. وذلك بفضل انتشار التعليم من عهد محمد على فالمدارس التى اسسها ، والبعثات العلمية التى اوفدها الى الخارج ، وقد خرجت طبقة مثقفة نالت حظا موفورا من العلوم ، وليس يخفى أن العلم من شانه ان يهذب النفوس وينير البصائر ، وينهض بالعقول والأفكار ، ويسمو بها الى التماس الرقى والتقدم ، ويعرفها معانى الحرية والمساواة والحقوق الانسانية ، ويهيب بها الى محاكاة الأمم الحرة فى الثورة على الاستبداد . فالنهضة العلمية كان لها فضل لا ينكر فى توجيه انظار المثقفين الى التبرم بالاستبداد والتطلع الى الحرية والدستور .

واقترنت النهضة العلمية بنهضة فى الأدب ، قوامها الشعراء والكتاب من ادباء ذلك العصر ، والادب بما يطبع فى نفس الاديب من التطلع الى المثل العليا يمهد للنهضات الوطنية ويغذيها ، ويحدو الامم الى الاستمساك بالحرية والكرامة الانسانية ، والنفور من الذل واباء الضيم والمهانة ..

فالعلوم والآداب كان لها أثرها فى تمهيد الأفكار لقبول الثورة ، وفى الدعاية لها . وقد كان لقصائد الشعراء ومقالات الأدباء وما كان يلقيه الخطباء فى المحافل والمجتمعات أثر كبير فى التحريض على الثورة .

وكانت الصحافة من العوامل القوية فى ترقية الأفكار بما تكتبه عن الشؤون العامة فى مصر والخارج ، وما تنشر من المقالات عن مختلف الأحوال السياسية والاجتماعية ، وما تحوى من التنويه بالأعمال النافعة وانتقاد الأعمال الضارة .. فكان لها فضل كبير فى تفتيح أذهان الناس ، وتبصيرهم بالحقائق ، وتهذيبهم وتثقيفهم ، وكان لصحف المعارضة أثرها فى احراج مركز الحكومة ، وتبرم الناس بها ، وقد استهدفت هذه الصحف للانذار والتعطيل كما تقدم فكان الاضطهاد يكسبها عطف الناس ويزيدهم تعلقا بها وتأييدا لآرائها وأفكارها الحرة .

ويتصل بالأسباب الاجتماعية تأثير السيد جمال الدين الأفغانى فى المجتمع المصرى ، فقد ظهرت على يده بيئة استضاءت بأنوار العرفان ، وارتوت من ينابيع العلم والحكمة ، وتحررت عقولها من قيود الجمود والأوهام . وبفضله خطا فن الكتابة والخطابة فى مصر خطوات واسعة ، ولم تقتصر حلقات دروسه ومجلسه على طلبة العلم ، بل كان يؤمها كثير من العلماء والموظفين والأعيان ، وكان يحمل بين جنبيه روحا كبيرة ونفسا قوية ، تزينها صفات وأخلاق عالية ، فأخذ يبث فى النفوس روح العزة والشهامة ، ويحارب روح الذلة والاستكانة . وكان بنفسيته ودروسه وأحاديثه ومناهجه فى الحياة ، مدرسة أخلاقية رفعت من مستوى النفوس ، وكانت على مر الزمن من العوامل الفعالة للتحول الذى بدا على الأمة ، وانتقالها من حالة الخضوع والاستكانة ، الى التطلع للحرية والتبرم بنظام الحكم القديم ومساوئه ، والسخط على تدخل الدول فى شؤون البلاد .

ولئن نفى جمال الدين من مصر فى أوائل حكم توفيق ، فان روحه ومبادئه وتعاليمه تركت اثرها فى المجتمع المصرى ، وهيأته للثورة ولا غرو فكثير من اقطابها هم من تلاميذه او مريديه أو المتاثرين بتعاليمه ، ولو بقى فى مصر حين نشوب الثورة لكان جائزا ان يمدها بآرائه الحكيمة وتجاربه الرشيدة ، فلا يغلب عليها الخطل والشطط ولكن شاءت الأقدار والدسائس الانجليزية أن ينفى السيد من مصر . وهى احوج ما تكون الى الانتفاع بحكمته وصدق نظره فى الأمور .

عرابى يتزعم الجيش

كان ضباط الجيش يتطلعون الى رجل منهم يتولى زعامتهم وتوحيد كلمتهم للمطالبة بحقوقهم المشروعة .. فوجدوا فى عرابى ذلك الزعيم ، ولقد كانت صفات الزعامة متوافرة فيه بالنسبة للظروف التى عاصرها ، فقد كان ذا شخصية قوية جذابة تؤثر فيمن حوله وتجتذبهم اليه ، وهذه أولى صفات الزعامة ، كانت أقواله تقع من نفوس الضباط والسامعين موقع الاقناع ، وهذا مظهر لقوة شخصيته ، ولولا أنه ذو شخصية كبيرة قوية لما استطاع أن يجمع الجيش وضباطه على محبته ، والانضواء تحت لوائه ، والائتمار بأوامره .

ويمكن تحديد سنة ١٨٨١ لبدء زعامته العسكرية على معظم ضباط الجيش .. فى هذه السنة كان عثمان رفقى يتولى وزارة الحربية ، وكان وحده من اسباب ظهور الثورة العرابية ، وآخر ما وقع منه ــ مما عجل بالثورة ــ انه أصدر امرا بنقل الأميرالاى عبد العال حلمى حشيش بك ــ أحد زعماء الثورة فيما بعد ــ قائد آلاى طره الى ديوان الجهادية (وزارة الحربية) وجعله معاونا بها ، وفى هذا تنقيص من درجته ومركزه ، وأمر بتعيين خورشيد نعمان

بك بدله ، وهو من أصل شركسى . واصدر أمرا آخر بق
عبد الغفار بك قائمقام آلاى الفرسان ، وعين بدله ضابطا ن

علم عرابى بهذه الأوامر فى ١٦ يناير سنة ١٨٨١ قبل
فثار لها ، وقال لمن بلغه نبأ هذه الاوامر : « ان هذه لقمة
لايقوى عثمان رفقى على هضمها » ، وذهب الى داره ساخط
فالقى كثيرا من الضباط ينتظرونه ليتشاوروا معه فيما ي
اذ كانوا قد بلغهم ايضا نبأ تلك الأوامر ، فاخذوا يتداولو
فى الموقف ، فاتفقت كلمتهم على اختيار عرابى رئيسا لهم
اليه فى العمل للتخلص من هذه الحالة ، وقرروا أنهم يتضا
فى تنفيذ ما يأمر به ، واقسموا على السيف والمصحف أنه
ويفدون الوطن بأرواحهم ، واتفقوا على كتابة عريضة ا
باشا يطلبون فيها عزل وزير الحربية عثمان رفقى باشا

❊ ❊ ❊

لثورة
فى مرحلتها الأولى

فاتحة الثورة العرابية

كتب عرابى العريضة وتلاها على الحاضرين ، فوافقوا عليها ووقع عليها كما وقع معه الاميرالاى على فهمى بك والأميرالاى عبد العال حلمى بك ، ووضع المجتمعون الخطط الكفيلة بالمحافظة على النظام عند قيامهم بما اعتزموه والمحافظة على حياتهم اذا ارادت الحكومة أن تبطش بهم .

يعد هذا الاجتماع فاتحة الثورة العرابية ، لأن تعاهد كبار الضباط على مقاومة تنفيذ الأوامر العسكرية ، والجهر بمناصبة وزير الحربية العداء ، والمطالبة بعزله ، واختيارهم عرابى رئيسا لهم فى هذه الحركة ، وحلفهم اليمين على التضامن واياه ، ومفاداته ومفاداة الوطن بأرواحهم .. كل ذلك معناه التمرد والخروج على النظام وتحدى الحكومة والاستهانة بهيبتها وقوتها ، أو بعبارة اخرى هى الثورة على الحكومة .

وفى غداة ذلك اليوم ـ اى فى ١٧ يناير سنة ١٨٨١ ـ ذهب الضباط الكبار الثلاثة : احمد عرابى بك ، وعلى فهمى بك ، وعبد العال حلمى بك الى وزارة الداخلية ، وقدموا العريضة الى خليل يكن باشا وكيل الوزارة ، وطلبوا اليه تقديمها الى رياض باشا .. فذهب اليه ثم عاد واخبرهم بأن رياض باشا يطلب أن يقابلوه ، فلما قابلوه وعدهم بالنظر فى الأمر . ولم تبد منه علامات السخط والغضب .

وبعد اسبوع من هذه المقابلة ذهبوا الى داره وقابلوه ثانية وسألوه عما تم فى أمر العريضة ، فأجابهم متهددا متوعدا وقال لهم ان تقديم مثل هذه العريضة يؤدى الى الهلاك ..

فلم يتراجع عرابى وصاحباه امام هذا التهديد ، واصروا على طلباتهم ، وأبان عرابى أن ما يطلبونه هو حق وعدل . وانتهى الحديث بأن اخبرهم بانه سينظر فى الأمر ، وانصرفوا على ذلك .

واقعة قصر النيل

اجتمع مجلس الوزراء يوم ٣١ سنة ١٨٨١ فى سراى عابدين برياسة الخديو ، وبحث فى امر هذه العريضة .. فاستقر الراى على وجوب محاكمة الضباط الثلاثة والقبض عليهم لتقديمهم الى المجلس العسكرى . واخذ عثمان باشا رفقى على عهدته تنفيذ القرار وأن يكون مسئولا اذا حصل ما يخل بالأمن . ولم يعرف الضباط الثلاثة ما قرره مجلس الوزراء فى شأنهم ، ولم يخطرهم عثمان باشا رفقى بأمر القبض عليهم .. بل نفذه بطريقة ملتوية لا تدل على شعور الحكومة بهيبتها وسلطانها ، وذلك انه تحايل عليهم وارسل اليهم فى مساء ذلك اليوم تذاكر يدعوهم فيها الى الحضور لديوان الوزارة ــ بقصر النيل ــ صباح اليوم التالى بحجة المداولة معهم فى ترتيب الاحتفال بزفاف الأمير جميلة هانم شقيقة الخديو ..

فاحس عرابى ورفيقاه المكيدة المدبرة لهم ، لانه لم تجر العادة بأن يستدعى وزير الحربية ثلاثة من امراء الالايات للمذاكرة فى مثل هذا الشأن .. فاستعدوا للدفاع عن حياتهم ، واتفقوا على أن يلبوا الدعوة وأن يذهبوا الى قصر النيل ، على أن يصحبهم بعض ضباط الالاى الأول ــ آلاى الحرس ، وكان مقره بقشلاق عابدين ــ كعيون يرقبون الحالة عن بعد ، لكى يبادروا الى ابلاغ اخوانهم بما يقع اذا اصاب الضباط الثلاثة مكروه .

* * *

وصل عرابى وصاحباه الى قصر النيل ، فالفوه غاصا بكبار الضباط الموالين للحكومة . وكان المجلس العسكرى منعقدا ، فتلا على الضباط الثلاثة الأمر القاضى باعتقالهم ومحاكمتهم ، ثم نزعت

منهم سيوفهم ايذانا بانفـــاذ الأمر .. وكان ذلك حوالى الظهـر ، وسـيقوا الى قاعـة السجن بقصر النيل ، بين صفين من الضباط الشراكسة . وتقاذفت عليهم الفـــاظ الشماتة والسباب ، ووقف عليهم الحرس وبأيديهم السيوف مسلولة . وعين عثمان باشا رفقى ثلاثة ضباط بدلهم على آلاياتهم الثلاثة .

فلما علم عيون الآلاى الأول باعتقال الضباط الثـلاثة ، اسرعوا بالعودة الى مركز الآلاى بقشلاق عابدين ، وانهوا الى ضباطه ما وقع .. فهاج الضباط جميعا ، واعتزموا انقاذ اخوانهم ، ونهض البكباشى محمد عبيـــد ـ بطل واقعة التل الكبير ـ مناديا الجند النـــداء العسكرى بالاحتشاد والتأهب للمسير . فاعترضه قائم مقام الآلاى خورشيد بك بسمى ، وساله عن سبب هذا النداء ، فلم يجبـــه بكلمة . وامر بعض الجنود باعتقاله فى احـدى قاعات القشــلاق . واصطف الجنود بأسلحتهم ، وساروا بقيادة محمد عبيد الى قصر النيل حيث الضباط المعتقلون ..

وبينما كان الجند يستعدون للخروج من القشلاق، علم الخديو بهذه الحركة ، وشاهدها بنفســـه من سلاملك السراى المقـــابل للقشلاق ، فأمر الفريق راشد باشا حسنى سر ياوره بأن يتوجـــه اليهم لوقف الحركة ، فلم تجد هذه الوساطة نفعـــا ، فاستدعى الخديو الضباط فلم يحضر أحد .

سار جنود الآلاى الأول من قشلاق عابدين الى قصر النيل .. فلما بلغوه وضع البكباشى محمد عبيد الحصار حوله ، وامر بقيـــة الجنـــد بالهجوم على الديوان ، فهجم الجنـــود حاملين بنادقهم وفى أطرافها الرماح « السونكى » ، واقتحموا الديوان صائحين صاخبين، فوقع الرعب فى نفوس القواد والضباط الموجودين بالديوان ، وفى مقدمتهم عثمان باشا رفقى ـ وزير الحربية ـ وبادروا الى الفرار .. اما عثمان رفقى فقد فر من احدى النوافذ الى « ورشة » الترزية يطلب النجاة لنفسه ، واخذ الجند يبحثون عن الضباط المعتقلين ..

وتفرقوا لذلك فى جميـــع الغرف والجهـــات ، وكسروا الابواب والشبابيك وكل ما عاقهم عن الســـير ، الى ان وصلوا الى مقـــر الضباط الثلاثة ، ففك البكباشي محمد عبيد سراحهم .

وخرج الضباط الثلاثة من قصر النيل ظافرين ، وساروا يحيط بهم الجند الى قشلاق الآلاى الاول بميـــدان عابدين . وكان عرابى وصحبه على عهد مع ضباط الآلايات الثـــلاثة ان يتضامنوا معهم ، ويبادروا الى نجدتهم اذا حل بهم مكروه .

***

ولم يكد يعلم آلاى طره ، الذى كان على راسه عبد العال حلمى ؟ بما حل بعرابى وصاحبيه حتى هب لنجـــدتهم .. فلمـــا حضر الاميرالاى الجديد ، خورشيد بك نعمان ، ليتسلم الآلاى يصحبـــه خورشيد باشا طاهر واحمد بك حمدى ياور الخديو، بادر البكباشى خضر افندى خضر الى اعتقـــالهم ووضعهم تحت الحفظ فى غرفة القائم مقام فرج بك الذكر واعتقله معهم .. ثم أمر بتوزيع الاسلحة والذخيرة على الجنود ، وسار بهم الى قصر النيل لانقـــاذ الضباط الثلاثة . وقد شعر ناظر محطة طرة بهذه الحركة فأرسل تلغرافا الى الخديو ينبئه بها ، فأوفد الخـــديو احد ياورانه لمقـــابلة خضر واخباره بما تم من الافراج عن الضباط الثلاثة ، واقناعه بالرجوع من حيث أتى واطلاق سراح الضباط الذين سجنهم بطره .. فلم يلق الياور اليه اذنا صاغية ، واستمر الجند سائرين بقيادة خضر افندى خضر ، وسار بهم الى ميدان عابدين لكى يشاهدوا الضباط الزعماء بعد الافراج عنهم . فلما وصلوا الى ميدان عابدين ، استقبله الآلاى الأول بالتعظيم العسكرى وعزف الموسيقى ، وتقـــدم ضباط آلاى طره الى عرابى وصاحبيه فهنؤوهم بالسلامة ، وتعانقوا فرحين مستبشرين .. واحتشد الناس فى الميدان لمشاهدة هذا المنظر الذى لم يألفوه من قبل . وعندئذ وقف عرابى خطيبا بأعلى صوته ، وأثنى على اخلاص الضباط والجند لانقاذه وانقاذ صاحبيه من السجن .

اول انتصار لعرابى

كان احتشاد جنود الالايين باسلحتهم فى ميدان عابدين كافيا لايقاع الاضطراب فى نفس الخديو وحاشيته ، وقد استدعى وزراءه وخاصة رجاله حين بلغه نبأ ما حدث فى قصر النيل ، وتشاوروا فيما يصح عمله ازاء هذه الحركة .. فاشار محمود سامى باشا البارودى — وكان وقتئذ وزيرا للأوقاف — باجابة طلبات الجند ، وقال انى اراهم مطيعين بدليل هتافهم باسم الخديو . ولم ير الخديو بدا من الاذعان ، واتفق الراى على أن يذهب البارودى باشا يصحبه خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى ليقابلا عرابى وصاحبيه ويتعرفا ما يطلبون ، فقابلاهم وعرفا منهم انهم يطلبون عزل عثمان باشا رفقى ، ويلتمسون العفو عنهم لأن عثمان باشا هو السبب فيما حدث . فعاد البارودى وخيرى باشا الى الخديو وعرضا عليه حديثهما مع الضباط الثلاثة ، فامر باستدعائهم فحضروا والتمسوا منه العفو فعفا عنهم .

واستقال عثمان باشا رفقى ، واصدر الخديو امره باسناد وزارة الحربية الى البارودى مع بقاء وزارة الأوقاف فى عهدته .. فتم بهذا التعيين ثلاثة انتصارات نالها الحزب العسكرى فى يوم واحد : اولها اطلاق سراح الضباط الثلاثة ، وثانيها عزل عثمان باشا رفقى الذى كان خصما لهم ، ثم اسناد وزارة الحربية الى نصير لهم ، ومن هنا توطدت صلات الثقة بين البارودى والضباط ، اذ برهن على انه كان مؤيدا لهم داخل مجلس الوزراء ، وظل عضدا لهم وموضع ثقتهم طوال عهد الثورة .

عرابى والقناصل

وفيما كان عرابى على راس هذه الحركة ارسل الى قنصلى انجلترا وفرنسا كتابا يسوغ فيه عمله ويبسط فيه شكواه من تصرف الحكومة . وكان البارون « دى رنج » قنصل فرنسا العام

يعطف على مطالب الضباط ، وينكر على وزير الحربية تصرفاته . وقد عرف فى الجملة بالعواطف الطيبة نحو مصر ومناواته المطامع الانجليزية فيها .

وقد نقم الخديو ورياض باشا من البارون « دى رنج » عطفه على الضباط الوطنيين وتأييده اياهم .. فأرسل الخديو باتفاقه مع رياض الى المسيو جول جريفى رئيس جمهورية فرنسا رسالة يشكو فيها مسلك القنصل العام . وكانت نتيجة هذا المسعى استدعاء البارون « دى رنج » الى فرنسا فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٨١ ثم نقله من منصبه ، فغادر مصر على كره من الضباط الوطنيين فى أول مارس سنة ١٨٨١ ، وكان نقله انتصارا لوزارة رياض باشا . وقد اغتبط الساسة البريطانيون لهذا النقل لأنهم كانوا يرون فى البارون « دى رنج » عاملا مناوئا لهم ومؤيدا للحركة الوطنية فى مصر .

وعين بدله المسيو سنكفكس معتمدا وقنصلا عاما لفرنسا فى مصر ، فحضر الى القاهرة وقدم اوراق اعتماده الى الخديو فى ٢٦ يوليه سنة ١٨٨١ بسراى رأس التين .

أراد الخديو بعد انقضاء بضعة أيام على واقعة قصر النيل أن يجتذب اليه قلوب ضباط الجيش ، ويزيل تأثير الحادثة من نفوسهم .. فاستدعى الى سراى عابدين يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٨١ ضباط آلايات العاصمة من رتبة بكباشى فما فوقهم ، وحضر الاجتماع وزير الحربية « البارودى » وكبار رؤساء الجيش من رتبة فريق ولواء . فلما انتظم عقدهم ، ألقى الخديو فيهم خطبة ضمنها العفو عما حدث يوم أول فبراير ، وأكد لهم انه لم يبق فى نفسه أثر منها ، وطلب اليهم احترام النظام وطاعة الحكومة .

فقابل الضباط هذه الخطبة باظهار الولاء للخديو والامتثال للأوامر والقوانين والنظم العسكرية ، وانصرفوا داعين شاكرين .

وكان الظن ان مثل هذه الخطبة ترد النظام الى الجيش ، وتدعو الضباط الى الاطمئنان الى نيات الحكومة نحوهم .. اذ لم يكن خافيا انهم كانوا يتوجسون شرا من ناحيتها ، ويتوقعون أن تتربص بهم الدوائر للاقتصاص منهم اذا أمكنتها الفرصة . وبذلك تزداد هوة التنافر اتساعا بينهم وبين الحكومة ، فأراد الخديو بهذه الخطبة أن يدخل الطمأنينة الى نفوسهم ، ويدعوهم الى الثقة بمقاصد الحكومة ، ولكن الحوادث جاءت على خلاف ما كان يظن ويتوقع .

بعد واقعة قصر النيل

لم يطمئن عرابى وصحبه على مركزهم وعلى حياتهم بعد واقعة قصر النيل .. فبالرغم من عزل عثمان باشا رفقى ، وتعيين وزير حربية يعطف عليهم ويؤيدهم ، فانهم كانوا يخشون على حياتهم أن تمتد اليها يد الاغتيال انتقاما مما فعلوا ، واقاموا لهم حرسا من المخلصين لاشخاصهم ، وزادوا من عدد الخفراء لحراسة منازلهم ليلا ، واختاروا ضباطا من خاصة أوليائهم لنقل المراسلات السرية بينهم ، رصاروا اذا انتقلوا من مراكز آلاياتهم الى بيوتهم اصطحب كل منهم حرسا من العساكر المسلحين للمحافظة على حياتهم يلازمونهم حتى يعودوا الى مراكزهم ، واكثروا من الاجتماعات السرية ، يعقدونها ليلا فى منزل عرابى ، ويدعون اليها من يثقون باخلاصهم من الضباط للتشاور فيما يفعلون ، وتنفيذ ما يستقر عليه رايهم .

وقد أسفرت هذه الاجتماعات عن تقديم عريضة من جميع الآلايات بالمطالب الآتية :

أولا ــ صرف نقود بدل التعيينات التى تؤخذ من مخازن الجهادية وتباع للآلايات ، وذلك حفظا لحقوق العساكر من التلاعب بها والخيانة التى كانت فاشية فى المامورين ورؤسائهم ، وخصوصا

فى صنف المسلى « السمن » ، فانه كان يصرف الالايات من الشحم الذى يصنع فى تريستا ، ويأتى فى براميل باسم « مسلى » . وكان كريه الطعم والرائحة لا يصلح للطعام ، ولكن لم يكن احد ليجسر على المجاهرة بالحقيقة ، لما للتجار المتعهدين بتوريده من المداخلة مع الرؤساء .

ثانيا — عدم استقطاع مرتبات الضباط والعساكر فى مدة الأجازات التى تعطى لهم اذا لم تتجاوز ثلاثين يوما ، واذا تجاوزت هذه المدة يستقطع نصفها فقط .

ثالثا — يؤخذ من الضباط والعساكر نصف الأجرة فى السكك الحديدية .

رابعا — ابطال ورشة الترزية لما فيها من التلاعب والغبن الفاحش وصرف اثمان الملابس نقدا لتشترى من الخارج بمعرفة الآلايات .

خامسا — عدم جواز الترقى للعسكرية ما لم يسن لذلك قانون خاص يجرى العمل على مقتضاه .

سادسا — زيادة مرتبات جميع الضباط والعساكر بالنسبة لارتفاع أسعار الحاجات عن قيمتها من منذ ثمانين سنة ، اى حين انشاء العسكرية وترتيب تلك المرتبات الدنيئة .

سابعا — سن قانون يشمل حالات الترقى والتقاعد والمكافآت والاجازات وتسوية معاش الاستيداع .

ثامنا — ارجاع احمد بك عبد الغفار قائم مقام السوارى ، الذى فصله عثمان باشا رفقى من الخدمة من غير محاكمة ولا سبب يوجب ذلك .

* * *

أجابت الحكومة معظم هذه الطلبات .. فعنيت وزارة الحربية باصلاح مأكل الجيش ، وصار يطبخ لهم فى معظم الوجبات اللحم

وأنواع الخضر والأرز باللبن والحلوى ، بدلا من العدس والفول اللذين كانا طعامهم الدائم ، وصار يعطى للجنود السودانيين شراب « البوظة » المصنوعة من الشعير كمألوف عادتهم ، وتصرف لأولادهم ونسائهم جرايات زيادة عن جرايات الجند .

وعرض محمود سامى باشا البارودى على مجلس الوزراء وجوب سن القوانين اللازمة لاصلاح حالة الجند ، وزيادة رواتب الضباط والجنود . وتألفت لجنة للنظر فيما يجب اجراؤه من التعديلات والاصلاحات فى النظم والقوانين العسكرية ، ورفع رياض باشا الى الخديو فى ٢٠ ابريل سنة ١٨٨١ تقريرا بذلك اشار فيه الى طلب ناظر الجهادية ــ وزير الحربية ــ زيادة رواتب الضباط والجند .

وبناء على هذا التقرير صدر مرسومان بتاريخ ٢٠ ابريل سنة ١٨٨١ (٢١ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ هـ) يقضى الأول بزيادة رواتب الضباط والجنود .

ويقضى المرسوم الثانى بتأليف لجنة (قومسيون) برياسة وزير الحربية والبحرية للنظر والبحث فى القوانين والنظم العسكرية المعمول بها وقتئذ ، وادخال كل ما ترى لزومه من التعديلات والاصلاحات فيها وما ينبغى اجراؤه من الاصلاح فى المدارس الحربية ، واعداد مشروع قانون بشروط الدخول فى سلك الضباط وتعيينهم وترقيتهم واستيداعهم ورفتهم وتقاعدهم ، وتسوية حالة الضباط الحالين الى الاستيداع .

فأخذت اللجنة توالى الاجتماع لاعداد القوانين العسكرية الجديدة ، وهى القوانين التى صدرت فى عهد وزارة شريف باشا كما سيجىء بيانه .

الاحتفال بزيادة الرواتب

أقام محمود سامى باشا البارودى بعد صدور هذين المرسومين حفلة فى ديوان الجهادية ـ وزارة الحربية ـ بقصر النيل ابتهاجا بزيادة رواتب الضباط والجند وتأليف لجنة اصلاح النظم العسكرية ، وكأنما أراد أن يعلن عن أول ثمرة لتقلده وزارة الحربية ليكسب ثقة الضباط والجند ، ويزداد بهم نفوذا وسلطانا .

استكملت هذه الحفلة مظاهر الرونق والفخامة ، اذ أعد فيها البارودى مادبة فاخرة دعا اليها الوزراء وعلى رأسهم رياض باشا ، ثم المراقبين الأوربيين ، وضباط الجيش .. ولما تكامل جمعهم جلسوا الى موائد الطعام ، فتناولوا المآكل الفاخرة .

ثم قام محمود سامى باشا البارودى ، والقى خطبة نوه فيها بفضل الحكومة . واعرب عن فضل الخديو فيما تقرر من الاصلاحات ، ودعا الضباط الى الخضوع لأوامر الحضرة الخديوية . ولعله أراد بهذه الخطبة أن يزيل من الأذهان تأثير التمرد الذى وقع من الجيش يوم أول فبراير سنة ١٨٨١ ، وهاك نص الخطبة :

« هذه ليلة انس دعتنا الى الاجتماع فيها دواعى المحبة والائتلاف ، تذكارا لمآثر الحكومة الخديوية الجليلة التى وجهت عزيمتها الى اصلاح أحوال الأهالى جميعا ، وتعميم العدل فيهم وايصال كل الى ما يستحق ، وقد رأينا فى هذا الزمن القليل من عهد ما استلم خديوينا المعظم زمام الحكومة تغييرا مهما اذ تبدل فيه العسر باليسر ، والظلم بالعدل ، والنقم بالنعم ، وتقدمت فيه البلاد الى نجاحها تقدما سريعا ، وما ذلك الا من حسن مقاصد هذا الجناب وطهارة سجاياه ، خصوصا وانه اصطفى لمساعدته على مقاصده الجليلة رجلا غيورا عالى الهمة زكى النفس ، وهو حضرة دولتلو رياض باشا . فلم يأل جهدا فى العمل ، ولم يقصر فى تذليل المصاعب باتحاده مع حضرات رفقائه الكرام حتى

وصلنا الى هذه الغاية التى لا ينكر أحد حسنها . ولا ريب فى ان هذه نعم يجب علينا استبقاؤها وحفظها والاستزادة منها ، ولن يكون ذلك الا اذا قرناها بالشكر عليها ، فقد قالوا : الشكر سياج النعم ،وحقيقة الشكر أن يكون جميعنا مخلصا للحكومة فى خدمته قائما بواجباته لها ، معضدا لجميع مقاصدها ، خاضعا لأوامر الحضرة الخديوية التى هى السبب فى هذا الخير العظيم ، وعلى ذلك لا بد أن ننادى جميعا : فليحى الجناب الخديوى اطال الله بقاءه » .

* * *

ثم قام بعده رياض باشا وارتجل خطابا وجهه الى الضباط، جاء فيه :

« ليلة سرور ، تجلى فيها الصدق والاخلاص ، واجتمعت فيها القلوب على قصد أداء الشكر للجناب الخديوى ، غير أن تذكار محامده ومآثره الجليلة يجعل الشكر موضعا يقع موقع الفرض الشرعى .

« ان محسنات العدل ووجوه الاصلاح التى امتازت بها مدة حكم الجناب الخديوى فى هذه الأوطان أمر معلوم ، يعد تعدادها من قبيل تحصيل حاصل .. وانتم معاشر الضباط تعلمون ذلك حق العلم ، فلا حاجة الى بسط الكلام فيه ، ومن أراد توضيح الحقيقة فليقارن بين الحالة الحاضرة وما قبلها بسنتين يظهر له الفرق الجلى والبون التام ما بين الحالتين وان ضباط العسكرية وهم من أشرف أعضاء الحكومة ، ممن شملتهم هذه المحسنات وعمتهم فوائد الاصلاح . ومن أهم وجوهه التى شهدناها فى عصر الخديو الجليل تقرير الأمن على الأرواح والأموال ، وحفظ الحقوق الشرعية وأداؤها لأربابها ، ويلزم لدوام ذلك ثبوت الطمأنينة ورسوخ قاعدة الراحة العمومية ، ومدار ذلك واساسه انتظام حال العسكرية »

« وقد رأيتم من انفسكم ان حقوقكم وصلت اليكم ، وانتم دوح

الضبط والربط ، وانتم قوة الحاكم وآلته المنفذة ، فاذ بدأ الحاكم يحسن الالتفات ونظر اليكم بعين الرأفة والرحمة ، فعليكم كما أخذتكم مالكم ، أن تؤدوا ما عليكم ، وهو طاعة ولى الأمر الذى هو السبب الاعظم فى جميع هذه الخيرات التى شملتنا ، بل هو الذى انعش فى هذا الوطن روح الحياة بعد أن أشرف على الموت والدمار ، فعليكم أن تكونوا دائما على قدم الاستعداد لتنفيذ احكامه والمحافظة على اوامره ونواميسه العادلة ، وعلينا جميعا أن نبتهل الى الله تعالى بدوام بقائه وتأييد عزه وان ينادى لسان الصدق منا . فليعش الجناب الخديوى » .

خطبـة عرابى بك

وبعد أن جلس رياض باشا قام احمد عرابى بك (باشا) وأجاب بتحقيق ما قاله وزير الحربية ورئيس الوزراء ، وبين ما وصلت اليه الحكومة فى ذلك العهد من التقدم ، ناسبا جميع ذلك الى همة الجناب الخديوى واستقامة وزرائه وغيرتهم على المصالح .. ثم قال : انا على الدوام مطيعون لأوامره السامية ، ونحن آلته المنفذة الحاضرة بين يديه يديرها كيف يشاء ، وفى أى وقت أراد ، واننا بلسان واحد نسأل الله تعالى أن يحفظه لنا ويطيل بقاءه ويعززه برجال حكومته ويمتع البلاد باحكامه العادلة آمين ، وكلنا بلسان واحد نسأل الله سبحانه وتعالى أن يحفظ الحضرة الخديوية ، ويوفق رجال حكومته الكرام لاصلاح البلاد واسعاد العباد » .

عظمت مكانة عرابى فى نفوس الضباط والجند بعد انتصاره فى واقعة قصر النيل ، وزاد من التفافهم حوله انه تقدم بطلباته سالفة الذكر الى وزير الحربية الجديد (البارودى) واستجاب البارودى الى طلباته .

وبذل البارودى جهدا موفقا فى اعادة التفاهم بين الحكومة والضباط ، على أن هذا التفاهم لم يدم طويلا .. ولم تلبث مظاهر

الخلاف وبوادر الشقاق أن باعدت بين الفريقين ، وأخذ كل فريق يسيء الظن بالآخر ويتوجس خيفة من مقاصده وتدابيره .

استقالة البارودى

وقعت فى شهر يوليه سنة ١٨٨١ حادثة بالاسكندرية أعادت القطعية بين الضباط والحكومة .. وذلك أن الخديو توفيق كان يقضى صيف سنة ١٨٨١ بالاسكندرية . وقد حدث يوم ٢٥ يوليه ان عربة لأحد تجار الثغر يقودها سائق أوروبى كانت تسير فى الشارع المؤدى الى سراى راس التين ، فصدمت جنديا من فرقة المدفعية ـ الطوبجية ـ وأصابته اصابه قاتلة ، نقل على اثرها الى المستشفى وتوفى هناك . وكان الخديو وقتئذ بالسراى ، فارتأى رفاق القتيل أن يحملوه اليها ، ويلتمسوا من الخديو الاهتمام بمعاقبة الجانى .

وكان هذا العمل بالغا فى الخروج على النظام ، لان مثل هذه الحادثة لا ترفع الى الخديو ، وليس من اللائق بمقامه أن يذهب الجنود الى قصره حاملين القتيل يعرضونه عليه ، ويطلبون منه معاقبة الجانى ، اذ ان السراى الخديوية ليست مخفر بوليس تحمل اليه جثث القتلى .. وقد دخل الجند السراى فى جلبة وضجة ، وصاحوا طالبين معاقبة الجانى .. فغضب الخديو من الجند ، وامر بطردهم ، فانصرفوا . وبعد أيام صدر الأمر بتشكيل مجلس عسكرى لمحاكمتهم ، فحوكموا وصدرت عليهم أحكام بالغة منتهى القسوة ، فقد حكم على الجندى الذى دعا رفاقه الى حمل القتيل الى السراى بالأشغال الشاقة المؤبدة . وحكم على رفاقه وهم ثمانية بالاشغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات وبأن يقضوا مدة العقوبة بليمان الخرطوم ، ثم يكونوا بعد ذلك من أفراد الجيش بالأقطار السودانية .. وأقر الخديو الحكم ونفذ فى المحكوم عليهم وسيقوا الى السويس ومنها الى سواكن ثم الى الخرطوم .

كان لهذا الحكم الشديد رقع اليم فى النفوس ، وكتب عبا بك حلمى تقريرا الى وزير الحربية « البارودى » يشـ من قسوته ، وذكر بعض الحوادث التى تجرى فى آلايه ، والد التى لا تنقطع .

رفع البارودى هذا التقرير الى الخديو ، فاستاء من ذلك تطاولا على مقامه وغضب على البارودى ، واعتزم اقصاءه عن الحربية ، واستدعى الوزراء بالتلغراف من القاهرة .. فوفد الاسكندرية واجتمعوا بالخديو فى سراى راس التين ، وتداو حادثة الجندى القتيل ، وما فعل رفاقه . وقرر الخديو أ البارودى فى وزارة الحربية هو منشأ هذه الفوضى ، ولا الى اعادة النظام الا بعزله . فلم ير البارودى بدا من أن استقالته ، فقبلت فى الحال ، وعين الخديو صهره داود باش بدله ، ثم اعقب ذلك صدور امر آخر بعزل احمد باشا ال محافظ العاصمة ، لما كان معروفا عنه من مشايعته لحركة ع وتعيين عبد القادر باشا حلمى مكانه ، وكان مكروها من العرا

قابل عرابى وصحبه هذا التغيير بالانزعاج والتبرم .. وتو خيفة من عواقب ابعاد البارودى الذى كانوا يطمئنون اليه ، وي الى اخلاصه ، وتوقعوا شرا مستطيرا من تعيين صهر الخد راس الوزارة التى تملك ناصية الجيش ، على انهم كتموا شعو واخذوا يتدبرون ما يجب عليهم عمله للمحافظة على حياته هذا التغيير ، وذهبوا الى داود باشا فى ديوان الجهادية ، ي بمنصبه الجديد ، وطلبوا اليه أن يجعل فاتحة اعماله اصدار الاصلاحات العسكرية التى وضعت فى عهد البارودى ، فو بذلك ..

ولكنه لم يلبث أن أصدر منشورا ابلغه جميع الآلايا فيه الضباط عن اجتماعهم فى المنازل أو فى احياء المدينة

على عدم ترك مراكز الآلايات ليلا أو نهارا ، وانذرهم بانه اذا وجد اثنان منهم أو اكثر مجتمعين معا فى المدينة فسيجرى ضبطهم بيد رجال الضبطية واعتقالهم ، وأن كل من يتكلم منهم مع آخر فى الامور السياسية يسجن بالقلعة ، وشدد على الضباط فى اتباع هذه الأوامر واخذ يراقب تنفيذها ، فيذهب بنفسه ليلا الى مراكز الآلايات ليتحقق من تنفيذ أوامره ، وبث عبد القادر باشا حلمى محافظ العاصمة الجديد العيون والجواسيس على منازل رؤساء الحزب العسكرى ، وخاصة عرابى وعبد العال وأحمد عبد الغفار ، لمنع اجتماعاتهم ، فارتاعوا من ذلك ولزموا آلاياتهم .

كان الغرض من صدور هذه الأوامر تفريق اجتماعات الضباط ، اذ كانت هذه الاجتماعات الوسيلة العملية لتبادلهم الآراء والأفكار، وتعاهدهم على التضامن واتحاد الكلمة واتفاقهم على الخطط التى يتبعونها لحفظ كيانهم وتحقيق مطالبهم .. فداود باشا يكن قد حقق بهذه الأوامر المخاوف التى ساورت عرابى وصحبه من تعيينه وزيرا للحربية بدلا من البارودى ، واتفق الضباط على رفض تنفيذ هذه الأوامر .

***

عــرابى
الــزعيــم القــومى

الزعامة القومية

لم يكن لواقعة قصر النيل اثرها فى الجيش فحسب ، بل كان لها اثر بالغ فى الأمة .. اذ جعلت لعرابى مكانة كبيرة فى البلاد ، وأخذت الألسنة تلهج باسمه وتمتدح شجاعته واقدامه ، والواقع ان الحادثة فى ذاتها وما تنطوى عليه من الجراة على الحكومة، واطلاق سراح المسجونين ، وعزل وزير الحربية عثمان رفقى الذى كان موضع سخط الضباط الوطنيين ، وتعيين وزير يعطف عليهم ويؤيدهم ، ثم الاصلاحات التى قام بها البارودى ، وأخصها زيادة رواتب الضباط والجند . كل هذه الأعمال جعلت من عرابى زعيما قوميا اتجهت اليه الانظار لتحقيق أمانى الشعب ، ولم يكن الجيش يصدر عن افكار وعواطف تخالف أفكارها ونفسيتها ، فهو أول شيء طبقة من صميم الأمة ، وضباطه وجنوده متصلون بها بروابط القرابة والدم . وكانوا يمثلون الامة من هذه الناحية ، ومن كونهم جاءوا من مختلف نواحى المديريات .

وكانت المظالم التى شكا منها زعماء الجيش تشبه المظالم التى كانت البلاد تشكو منها ، ولم يكن الناس راضين عن الحكومة وسياستها . بل كانوا يتبرمون بمظالم الحكام وينقمون من الوزارة بسبب استسلامها للنفوذ الاجنبى وخضوعها لأوامر القناصل ومحاباتها للموظفين الاجانب فى مصالح الحكومة وتمييزها اياهم بالرواتب الكبيرة والمزايا العديدة ، فلا غرو ان اغتبط الناس بتحقيق مطالب الجيش ، وذاع فى البلاد اسم عرابى كمنقذ للامة من المظالم، ومحقق للآمال ، وقد لقى عرابى عطفا وتأييدا من جميع الطبقات ، وفى مقدمتها العلماء والأعيان وعامة البلاد ومشايخ العربان واخذ هو يبث افكاره بينهم ليكونوا عدته وحزبه ، ويتأهب للقيام بحركة جريئة توطد نفوذه وسلطانه ، ويطمئن بها على حياته وحياة

صحبه الموالين له فى الجيش .. وهى المطالبة بتاليف المجلس النيابى مع اسقاط وزارة رياض باشا ، أو بعبارة أخرى احداث انقلاب فى نظام الحكم ، واحلال حكم الشورى محل الحكم الاستبدادى .

ولما اطمان عرابى الى ان الجيش فى قبضة يده والأمة تناصره ؟ شرع فى احداث الانقلاب الذى كان يرجوه فى نظام الحكم ، أو بعبارة اخرى اخذ يتاهب لمتابعة الثورة التى بداها يوم أول فبراير سنة ١٨٨١ .

وكانت الحكومة من ناحيتها تدفعه الى الثورة دفعا ، بما بدا منها من الحركات العدائية التى قصدت منها تفريق شمل زعماء الجيش وضباطه تمهيدا للتنكيل بهم .. فهى أولا لم تصدر القوانين العسكرية الجديدة التى وضعت فى عهد البارودى ، وكان هذا اخلالا بوعدها فى تحسين حالة الضباط والجنود ، وبرهانا على سوء مقاصدها نحو الجيش ، واشتدت هذه المقاصد ظهورا من يوم عودة الخديو من مصيفه بالاسكندرية الى العاصمة .

لم يكد الخديو يصل الى العاصمة حتى اخذ ينفذ خطته ، وقوامها تفريق وحدات الجيش ، ونقل الفرق الموالية للحزب العسكرى من العاصمة لكى يستبدل بها فرقا اخرى موالية للخديو .. فأصدر داود باشا يكن وزير الحربية امرا بأن ينقل الآلاى الثالث من المشاه ـ آلاى القلعة ـ الى الاسكندرية بدلا من آلاى الاسكندرية ـ الآلاى الخامس ـ وان يأتى هذا الى القاهرة مكانه . فلما علم ضباط الآلاى الثالث بهذا الأمر اضطربوا له وأوجسوا شرا من عواقبه ، وذهبت بهم الظنون والوساوس كل مذهب ، وخشوا أن يكون غرض الحكومة الانتقام منهم والتنكيل بهم . وسرت بينهم اشاعة ان فى نية الحكومة اغراقهم فى كوبرى كفر الزيات حين سفرهم بالقطار الى الاسكندرية ، وعادت الى اذهانهم حادثة اغراق الأمير احمد باشا رفعت بن ابراهيم باشا فى كفر الزيات فى عهد سعيد باشا .

واتفقت كلمة ضباط الآلاى على رفض الاذعان لأمر وزير الحربية الجديد ، والامتناع عن مغادرة القلعة .. فلما جمع قائد الآلاى ضباطه وتلا عليهم أمر الوزير أعلنوا جميعا انهم يرفضون الاذعان له .. فكتب الى وزير الحربية يخبره بذلك ، واعتزم عرابى وصحبه تحريك الجيش والسير به الى سراى عابدين فى شكل مظاهرة عسكرية لاملاء ارادتهم على الخديو لكى يضعوا حدا للحالة القلقة التى وصلت اليها البلاد ، ولاحداث الانقلاب الذى ارادوه .

واقعة عابدين

اتفقت كلمة زعماء الضباط على اقامة المظاهرة العسكرية أمام سراى عابدين يوم ٩ ستبمبر سنة ١٨٨١ ، ووضعوا لها خطة محكمة ، وهى حضور جميع الآيات الجيش المرابطة بالقاهرة الى ميدان عابدين فى أصيل ذلك اليوم لتقديم طلبات الأمة الى الخديو .. وقوامها اسقاط الوزارة ، وتأليف المجلس النيابى ، وزيادة عدد الجيش . فخاطب عرابى جميع آلايات المشاة والفرسان والمدفعية الموجودة وقتئذ بالعاصمة لموافاته بميدان عابدين فى الساعة الرابعة لعرض طلباتهم على الخديو . وارسل الى وزير الحربية يبلغه أن يخبر الخديو بأن جميع الآلايات ستحضر الى ساحة عابدين فى الساعة المذكورة « لعرض طلبات عادلة تتعلق باصلاح البلاد وضمان مستقبلها » وأرسل ايضا الى قناصل الدول يطمئنهم أن لا خوف على رعاياهم من هذه المظاهرة لانها مقصورة على أحوال البلاد الداخلية .

احتشد الجيش فى الموعد المضروب فى ميدان عابدين ، وكان أول من حضر الى الميدان آلاى الفرسان « السوارى » بقيادة احمد بك عبد الغفار . ولعله بادر بالحضور لانه كان من أول الناقمين من النظام القديم ، اذ فصله وزير الحربية الاسبق « عثمان باشا رفقى » لغير ما سبب ، ثم جاء عرابى ممتطيا جواده شاهرا سيفه ،

يقود آلاى العباسية ويصحبه آلاى المدفعية « الطوبجية » يقوده اسماعيل بك صبرى ، ومعه المدافع بذخيرتها . وكانت بطاريات المدافع تتخلل أورطة المشاة اثناء السير .

* * *

ولما وصل عرابى تفقد على بك فهمى فلم يجده ، واخبره بعض الضباط انه وزع آلاى الحرس داخل السراى ، ومعه كمية وافرة من الذخيرة ، وانه على استعداد للدفاع عنها اذا مست الحاجة . فبعث اليه من فوره بالملازم محمد افندى على ليستدعيه .. فحضر على بك فهمى ، فسأله عرابى عن سبب جعله العسكر على ابواب السراى ومنافذها من الداخل ، ولم يكن هذا اتفاقهم من قبل . فطمأنه على بك فهمى ، وقال له : « ان السياسة خداع » ، اى انه لم يفعل ذلك الا لمخادعة الخديو ، وانه باق على عهده . فطلب اليه عرابى أن يسحب آلايه من السراى ويأخذ مكانه فى الميدان ، ففعل ، وامر بخروج الآلاى من السراى ، فخرج منها الجند جميعا ، واصطفوا الى جانب اخوانهم فى المكان المعين لهم من الدائرة ، ثم تم ترتيب آلاى المدفعية والفرسان والمشاة على شكل مربع ... وجاء بعد ذلك الآلاى الثانى من قصر النيل يقوده بعض ضباطه وذلك لامتناع قائده وكبار ضباطه عن الاشتراك فى الحركة ، ثم جاء الآلاى الثالث قادما من القلعة ، بقيادة الكباشى فودة حسن ، والآلاى السودانى قادما من طره بقيادة عبد العال بك حلمى ، ثم أورطة المستحفظين يقودها القائمقام ابراهيم بك فوزى . وبذلك اكتمل الجيش فى ميدان عابدين ، اذ لم يبق آلاى من الآلايات المرابطة بالعاصمة الا حضر الى الميدان . وبلغ عدد الجنود المحتشدين فى الميدان نحو اربعة آلاف بأسلحتهم ومدافعهم ، وغصت أطراف الميدان بالجموع الحاشدة من الناس الذين جاءوا ليشهدوا هذا المنظر ، وامتلأت نوافذ البيوت المجاورة للسراى وسطوحها بالنظارة ، وكان الموقف رهيبا ، لأن مجىء الجيش متهددا متوعدا ، واحتشاده بأسلحته

وذخائره ومدافعه أمام السراى الخديوية ، يحاصرها ويسد المسالك على من فيها ، كل ذلك خليق بأن يفزع الخديو ووزراءه ، وخاصة بعد أن رأى أن حرسه الخاص قد تخلى عنه فى هذه الساعة العصيبة وانضم الى الجيش الثائر .

وكان الخديو قد جاء الى السراى ودخلها من الباب الشرقى وصعد الى ديوانه ، وشهد تجمع الجنود فى الميدان ، وكان الوزراء قد توافدوا على السراى ، وجاء أيضا بعض قناصل الدول والسير أوكلن كولفن المراقب المالى الانجليزى .. فشهدوا هذا المنظر الذى لم يألفوا مثله فى مصر من قبل .

الخديو فى الميدان

وقد ظن الخديو انه اذا نزل الى الميدان ، فان ما له من الهيبة التقليدية فى نفوس الرعية والجند يصد الجيش وضباطه عن التمرد ، فنزل من السراى الى حيث رؤساء الجند ، يصحبه المستر كوكسن ، قنصل انجلترا فى الاسكندرية ــ وكان نائبا عن القنصل العام السير ادوار مالت لغيابه بالأجازة ــ والسير أوكلن كلفن المراقب المالى الانجليزى ، وبعض عساكر الحرس الخاص . فلما توسط الميدان نادى عرابى ، فجاءه راكبا جواده شاهرا سيفه ، وخلفه نحو ثلاثين ضابطا شاهرين السيوف . فلما دنا من الخديو صاح به احد رجال الحرس أن ترجل واغمد سيفك .. ففعل ثم أقبل عليه ..

وهنا يقول عرابى : ان المستر كوكسن أشار على الخديو بأن يطلق عليه مسدسه ، ولكن الخديو لم يعمل باشارته وقال له : « أفلا تنظر الى من حولنا من العسكر ؟! » ، أى انه خشى مغبة العمل بنصيحة المستر كوكسن . والواقع انها نصيحة لا تنم عن اخلاصه للخديو ولا حسن قصد من المستر كوكسن .. فلو أن الخديو أمكنه

آن يقتل عرابى فى هذه اللحظة لما أمن على حيـاته من الجنـد والضباط .

اما ما فعله الخديو فى ذلك الحين ، فانه صاح بالضباط الذين جاءوا خلف عرابى : « اغمدوا سيوفكم وعودوا الى بلوكاتكم » .. فلم يفعلوا ، وظلوا وقوفا فى أماكنهم .. وكانوا كحرس خاص لعرابى، فلم يغادروه حتى انتهى الحوار بينهما .

مطالب عرابى

ولما وقف عرابى أمام الخديو وحياه التحية العسكرية خاطبه الخديو قائلا : « ما هى أسباب حضورك بالجيش الى هنا ؟ » .

فأجابه عرابى « جئنا يا مولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة .. وكلها طلبات عادلة ! » .

فقال الخديو : « وما هى هذه الطلبات » .

فأجابه : « هى عزل رياض باشا ، وتشكيل مجلس النواب ، وابلاغ عدد الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية » .

فقال الخديو : « كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وانا خديو البلد واعمل زى ما أنا عاوز » .

فقال عرابى : « ونحن لسنا عبيدا ولا نورث بعد اليوم » .

فلما وصل الحوار الى هذا الحد اشار المستر كوكسن على الخديو بالرجوع الى السراى لافتا نظره الى سوء المغبة اذا زادت المناقشة عن هذا الحد .. فرجع الخديو ومن كان بمعيته الى داخل السراى .

ثم عاد منها المستر كوكسن ومعه السير أوكلن كولفن ، وخاطب عرابى كرسول من قبل الخديو قائلا : « ان عزل الوزارة من اختصاص

الخديو ، وطلب تشكيل مجلس النواب ليس من حقوق الجهادية ، وزيادة الجيش لا لزوم لها لأن مالية الحكومة لا تساعد على ذلك » .

فقال عرابى : « أعلم يا حضرة القنصل ان طلباتى المتعلقة بالاهالى لم أعمد اليها الا لأنهم أقامونى نائبا عنهم فى تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هم عبارة عن اخوانهم واولادهم .. فهم القوة التى تنفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة . وانظر الى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر ، فهم الاهالى الذين انابونا عنهم فى طلب حقوقهم ، واعلم علم اليقين اننا لا نتنازل عن طلباتنا ، ولا تبرح هذا المكان ما لم تنفذ » .

فقــال القنصـــــل : « علمت من كلامك انك ترغب فى تنفيذ اقتراحاتك بالقوة ، وهذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم وتلاشيها » .

قال عرابى : « كيف يكون ذلك ؟ .. ومن ذا الذى يعارضنا فى أحوال داخليتنا ؟ فاعلم أننا سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة الى أن نفنى عن آخرنا » .

قال القنصل : « وأين هى قوتكم التى ستدافع بها ؟ »

قال عرابى : « عند الاقتضاء يمكن أن نحشد مليونا من العساكر يدافعون عن بلادهم ويسمعون قولى ويلبون اشارتى » .

فقال القنصل : « وماذا تفعل اذا لم تجب الى ما تطلب ؟ » .

فقال عرابى : « أقول كلمة أخرى » . فقــال القنصـــــل : « وما هى ؟ » .

فقال عرابى : « لا أقولها الا عند اليأس والقنوط » .

قبول مطالب عرابى

وهنا انقطعت المخابرات بين الفريقين .. وتداول الخديو فى الموقف مع من كانوا بداخل السراى من وزراء وقناصل وغيرهم . ومرت ساعة وهم يتداولون ، فرأوا أن لا بد من الادعان لمطالب

الجند ، لأن الجيش باكمله يؤيد هذه المطالب . ولم يكن لدى الخديو أية قوة يعتمد عليها ، فاستقر الرأى على اجابة هذه المطالب تدريجيا ، وان يبدأ بسقوط الوزارة ، فقدم رياض باشا استقالته الى الخديو ، وكان هذا أوج الثورة .

ابلغ عرابى هذا القرار ، وطلب اليه الخديو قبول اسناد رياسة الوزارة الجديدة الى على حيدر باشا يكن ، فلم يوافق على ذلك .. لما له من صلة القرابة بالخديو ، فعرض عليه تعيين محمد شريف باشا رئيسا ، فقبل .. وكان شريف باشا وقتئذ بالاسكندرية ، فاستدعى بالتلغراف للحضور الى العاصمة .

وبعد أن أجيبت مطالب عرابى توجه الى الخديو فى السراى وشكر له ارضاءه مطالب الأمة ، فاقسم الخديو انه مرتاح لما فعل ، وانه وافق على تلك الطلبات بنية صادقة . فكرر عرابى الشكر والدعاء له ، واصدر أمره الى الآلايات بالرجوع الى مراكزها ما عدا آلاى طره فانه قضى ليلته فى ضيافة آلاى الحرس بقشلاق عابدين .

ونشرت « الوقائع المصرية » فى عدد الأحد ١١ سبتمبر سنة ١٨٨١ البيان الآتى : « فى ليلة السبت ١٦ شوال سنة ١٢٩٨ (١٠ سبتمبر سنة ١٨٨١) استعفت نظارة دولتلو رياض باشا ، فقبل استعفاؤها . وكلف دولتلو شريف باشا بتشكيل نظارة جديدة » .

وزارة الأمة

حضر شريف باشا الى العاصمة فى اليوم التالى ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨١ — وذهب اليه عرابى فى منزله وهناه برياسة الوزارة ، وفاوضه فى أشخاص الوزارة الذين يؤلف منهم وزارته .

وكان طبيعيا ان يتدخل عرابى فى تاليف الوزارة ويكون له راى فى أشخاصها ، لانه هو الذى توصل بقوة الجيش الى اسقاط وزارة رياض باشا واختيار شريف باشا ذاته للرياسة . ولم يكن شريف يجهل ذلك أو يتجاهله — ولكنه كان رجلا أنوفا ، مستقل الرأى ، حفيظا على كرامته ، لا يقبل ان يتلقى الأوامر من غيره ، فضلا عن انه كان يشعر فى خاصة نفسه بخطر تدخل الجيش فى السياسة، وانه اذا استمر هـذا التدخل وصار قاعدة متبعة فى ادارة الشئون العامة ، فانه يؤدى الى فساد الاداة الحكومية ، ويفضى الى انشاء دكتاتورية عسكرية لا يؤمن معها عدل او حرية أو دستور . ولذلك اجتهد فى وضع حد للتدخل العسكرى فى شئون الحكومة .

أما فيما يتعلق باختيار اعضاء وزارته ، وتدخل عرابى فى هذا الصـدد ، فان هذا التدخل جعله يتردد أياما فى قبول رياسة الوزارة .. فقد رغب اليه عرابى أثناء المقابلة الأولى فى اختيار محمود سامى باشا البارودى للحربية ، ومصطفى فهمى باشا للخارجية ، « لما يعلمه من ميلهما الى العدل والحرية » — كما قال عرابى — ولم يكن هذا اعتقاد شريف باشا فيهما ، وقد صارح عرابى انه لا يقبل اشتراكهما معه فى الوزارة ، لانهما حين كانا عضوين فى وزارته السابقة التى الفها فى أول عهد الخديو توفيق تعاهدا واياه كما تعاهد سائر الوزراء على انه اذا رفض الخديو الموافقة على تشكيل مجلس النواب استقالت وزارته على أن لا يشترك أحد من أعضائها فى الوزارة التى تخلفها ما لم يقبل الخديو تشكيل المجلس النيابى .. فنكث البارودى ومصطفى فهمى عهدهما .

❋ ❋ ❋

ولكن عرابى كان حريصا على اسـناد وزارة الحربية الى البارودى ، لما ثبت من ولائه للحركة واخلاصه للجيش . ولم ينس أنه على يده حين تولى وزارة الحربية أجيبت مطالب العرابيين

الاولى ، وهى زيادة رواتب الضباط والجند وتأليف لجنة لاصلاح القوانين العسكرية .. وان الخديوى قد اقصاه بعد ذلك من وزارة الحربية لاخلاصه للحزب العسكرى ، أما مصطفى فهمى فكان عرابى يميل الى تقليده وزارة الخارجية لما كان يتظاهر به من الاخلاص للحركة .. على انه لم يبد منه اى عمل ايجابى يدل على هذا الاخلاص ، وكل ما عرف عنه أنه من يوم أن اشترك فى مقتل اسماعيل باشا صديق على عهد الخديو اسماعيل ملىء قلبه رعبا من هول هذا الحادث ، ونفرت نفسه من استبداد الخديويين .

ومن هنا اطمأن له العرابيون ، واراد عرابى أن يقنع شريف بقبول مرشحيه ، فقال له : « ان لكل وقت حكما ، وانى واثق بحبهما للحرية والعدل والمساواة ، وفضلا عن ذلك فان العسكرية لا تطمئن لغير محمود سامى باشا » .

فعرض شريف باشا على عرابى أن يقبلوه هو وزيرا للحربية ، ولعله أراد بذلك أن يراقب بنفسه ابتعاد الجيش عن التدخل فى سياسة الدولة ، اذا هو تولى وزارة الحربية .

قال مخاطبا عرابى : « افلا ترضون ان اكون ناظر الجهادية ؟ .. فانى قد ربيت معكم فى العسكرية » . والحق ان حجة شريف باشا كانت قوية ، لأنه تلقى التعليم العالى فى المدارس الحربية ، ونال قسطا وافرا من علومها وفنونها فى أرقى مدارس ... وهو بلا شك اكفأ فى هذا الصدد من محمود سامى البارودى ومن القواد العرابيين . ولكن عرابى أصر على اختيار البارودى للحربية ، وقال لشريف باشا : « لقد اخترناك رئيسا للوزارة ، ولابد من مراعاة ميول رجال العسكرية » فاصر شريف باشا على عدم قبول مرشحيه ، وانتهت المقابلة الأولى على غير اتفاق .

ومضت أيام وشريف باشا متردد فى قبول الرياسة . ولم يكن يستطيع غيره ان يضطلع باعبائها وينقذ الموقف . وظل فى تردده حتى عاهده العرابيون فى بيان مكتوب ان لا يتدخل الجيش

فى السياسة ، وأن يكون خاضعا لأوامر الحكومة . فقبل تأليف الوزارة وألفها يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ ، ورضى باسناد الحربية الى البارودى ، والخارجية الى مصطفى فهمى .

وقدم كبراء البلاد واعيانها الى شريف باشا بيانا يقرب من بيان الضباط فى العبارة ويطابقه فى المعنى وغايته اعلان ثقتهم بصداقته وميلهم جميعا اليه وانعقاد قلوبهم عليه ، وانهم يكفلون له أن لا يقع فى المستقبل شيء من الحوادث التى تنسب الى رجال العسكرية ، وواثقون من امتهم ومن رجال العسكرية الذين هم ابناؤهم واخوانهم بزوال كل خطر ، وانقطاع جميع الأسباب التى توجب الخوف والاضطراب ، ويسألون الله تعالى تأييد دولته وتوفيقه لاصلاح أحوال البلاد بعناية الجناب الخديو المعظم .»

قبل شريف باشا تأليفه الوزارة بعد ان حصل على هذه العهود والمواثيق ، فألفها فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ .

* * *

وتعد وزارة شريف باشا « وزارة الأمة » لانها الفت تحقيقا لرغبة كبراء البلاد واعيانها .. وقد ابتهجت الأمة ابتهاجا كبيرا بتأليفها ، وعلقت عليها تحقيق آمالها فى اقامة النظام الدستورى المقرون بالعدل والاستقامة . وقد اضطلع شريف باشا بالمهمة التى القتها الثورة على عاتقه ، وأول ما رسم من الخطوط الحكيمة اعادة النظام الى الجيش .. فان الثورة باعتبارها ثورة عسكرية قد اخرجت الجيش عن مهمته الاصلية ، وهى حفظ النظام والذود عن كيان البلاد ، وجعلته اداة سياسية للسيطرة والحكم . وهنا موضع الخطر ، اذ بذلك يختل النظام العسكرى ويفقد الجيش روح النظام والقيام بالواجب ويتسرب الانقسام الى صفوفه ، ثم تقع الحكومة فريسة الفوضى .. فبذل شريف باشا جهده فى الحيلولة بين الجيش والسياسة ، ووافقه عرابى على هذه الخطة

فى أوائل عهد وزارته ، فقد ذهب اليه عقب تأليف الوزارة بيومين على رأس وفد من الضباط لتهنئته بالوزارة وشكره على قبول الرياسة ، وألقى أمامه الكلمة الآتية :

« انى بلسان قومى اعرض لدولتكم اننا جميعا واثقون بصداقة دولتكم وخلوص طويتكم لمحبة الوطن واهله ، وجازمون بأن هذه هذه الصفات التى تحلت بها ذاتكم الشريفة تكون وقاية لبلادنا وسببا فى استتباب الراحة العمومية فيها ، واننا نعلم واجباتنا والفروض التى تحتمها علينا وظائفنا العسكرية ، واعظمها حفظ البلاد ومن فيها ، ولذلك فاننا نقر باننا القوة المنفذة لما يصدر من الأوامر التى تكون ان شاء الله فى خير ، وقاضية باصلاح شؤون البلاد ، الا أن لنا حقوقا معلومة يمنحها لنا القانون ، ونرجو من الله أن يحسن الينا بنوالها بمساعدة دولتكم وتوفيق الله تعالى ونسأله سبحانه أن يوفقنا جميعا لما فيه الخير والصلاح آمين »

وأمن عليه الحاضرون من الضباط ..

فترى فى هذا الخطاب ان عرابى تعهد من جديد باحترام النظام ، اذ يقر بأن الجيش هو القوة المنفذة لما يصدر اليه من أوامر .

خطبة شريف باشا

وقد اغتنم شريف باشا هذه الفرصة لينبه الضباط الى واجبهم فى ابعاد الجيش عن السياسة ، فأجاب على كلمة الشكر بقوله « فى علمكم ما قال الاقدمون آفة الرياسة ضعف السياسة ولا حكومة الا بقوة ولا قوة الا بانقياد الجنود انقيادا تاما وامتثالهم امتثالا مطلقا .

« كل حكومة عليها فرائض وواجبات ، من أهمها صيانة الوطن وحفظ الأمن العمومى فيه .. وهذا وذاك لا يتأتيان الا بطاعة رجالها العسكرية ، فترددى أولا فى قبول الرياسة ما كان الا تجافيا عن تأسيس حكومة غير قوية تخيب بها الآمال ويزيد معها

الاشكال ، فأكون عرضة للملامة بين اخوانى فى الوطن وبين الاجانب.
وحيث أغاثتنا الألطاف الالهية وحصل عندى اليقين بانقيادكم ، فقد زال الاضطراب من القلوب ، ورتبت الهيئة الجديدة من رجال ذوى عفة واستقامة ، فأوصيكم بملاحظة الدقة فى الضبط والربط، لأنهما من أخص شؤون العسكرية واساس قواها ، واعرفوا انكم مقلدون أشرف وظيفة وطنية .. فقوموا باداء واجباتها الشريفة ، وعلى القيام بأداء كل ما يزيدكم فخرا وسؤددا ، وفقنا الله واياكم ».

فهذه الخطبة على ايجازها ، جمعت أسمى ما يقوله زعيم سياسى صائب الراى بعيد النظر فى الظروف التى تألفت فيها وزارته ، اذ لم يكن خافيا أن الدول الاستعمارية ــ وخاصة انجلترا ــ كانت تتطلع الى الثورة العرابية لكى تتخذ منها ذريعة للتدخل فى شؤون البلاد . ولم تخف هذه المطامع عن عرابى ذاته ، فقد ذكر فى مذكراته انه كان يلاحظ هو وصحبه عقب واقعة قصر النيل كثرة تردد السير أدوار مالت قنصل انجلترا فى مصر على الخديو ليلا ونهارا .. فأوجسوا من ذلك خيفة على مصير البلاد ، وخشوا من مطامع انجلترا ، وتحدثوا بانها تطمع فى احتلال وادى النيل أسوة بما فعلته فرنسا فى تونس ، اذ احتلتها سنة ١٨٨١ .

فشريف باشا سعى جهده فى أن لا يتخذ دعاة الاستعمار من الثورة ذريعة للتدخل فى شؤون البلاد . من أجل ذلك لم يفته النصح للعرابيين أن لا يقحموا الجيش فى غمار السياسة ، فتضطرب الأحوال ، وتتفتح الثغرات للتدخل الأجنبى . ولم يكن

يخفى أن زعماء الثورة من الضباط قد داخلهم شيء كثير من الزهو والخيلاء ، اذ كانوا قوام الحركة ، وبفضلهم سقطت وزارة رياض باشا البغيضة الى الراى العام ، وتالفت وزارة شريف المرجوة من الأمة ، فلو لم يكن شريف عظيم النفس ، قوى الشخصية لجعل خطبته تمليقا لضباط الجيش اكتسابا لثقتهم وتاييدهم ، ولكنه على العكس خاطبهم بلهجة الناصح الأمين ، ودعاهم الى التزام حدود واجباتهم ، وهى الطاعة والنظام والذود عن الوطن .

* * *

ولم يكن مثل شريف ليقبل ان يكون اداة فى يد الجيش وزعمائه، لأنه لم يقصد من تاليف الوزارة مجدا ولا سلطة ، وقد عرف عنه التعفف والنزاهة فى كل ادوار حياته ، وشهد له ماضيه بانه لا يحرص على المناصب ، وانه يزهد فيها اذا رآها تخالف مبدأه وكرامته . ولقد كان من الوجهة الدستورية أسبق فى الكفاح للدستور من العرابيين ، فعلى يده تطور نظام مجلس النواب ، اذ تالفت وزارته الأولى فى عهد الخديو اسماعيل على قاعدة تقرير مبدأ المسئولية الوزارية امام المجلس ، وعلى يده وضع دستور سنة ١٨٧٩ على أحدث المبادىء العصرية . ولم يحل دون صدور المرسوم الخديو بانفاذه الا خلع اسماعيل ، ومن اجل الدستور استقال من وزارته الثانية فى أوائل عهد الخديو توفيق ، وبرنامجه سنة ١٨٨١ حين الف وزارته الجديدة كان استئنافا لجهاده فى سبيل الدستور منذ سنة ١٨٧٩ ، اى قبل ان تظهر الحركة العرابية بسنتين ، فلا غرو أن يشعر شريف بعزة النفس والاستقلال فى الرأى ازاء العرابيين .

وقد حققت وزارة شريف باشا كثيرا من الاصلاحات فى المدة الوجيزة التى تولت فيها الحكم ، وكان مما انفذته اصدار القوانين العسكرية التى كان هدفها تحسين حال الضباط والجند واصلاح التعليم فى المدارس الحربية .

وابتهج الضباط بصدور هذه القوانين ، وزادتهم ثقة بوزارة شريف باشا .. وذهب وفد منهم الى داره وقدموا له شكرهم وشكر زملائهم على عنايته واهتمام وزارته باصدارها . واعربوا له عن حسن مقاصدهم وكامل ثقتهم به وبوزارته وعاهدوه على الا يخالفوا له امرا ، وان ينقادوا لارادة الحكومة ولا يترددوا فى الذهاب الى اية جهة تأمرهم بالذهاب اليها .

عرابى فى الشرقية

وقد رغب شريف باشا فى نقل زعماء الحركة من القاهرة الى الاقاليم لكى يخفف من ضغط الحزب العسكرى على الحكومة ، ويحقق مبداه الذى تولى الوزارة على اساسه ، وهو ابعاد الجيش عن السياسة جهد المستطاع . واقنع عرابى وصحبه بأن مصلحة البلاد تقضى بابعاد الالايات التى يتولون قيادتها عن العاصمة حتى تهدأ الخواطر ، ويقوى سلطان الحكومة حيال الدول . وزاد فى حجة شريف باشا ارسال الحكومة التركية وفدا الى مصر برياسة على نظامى باشا لتحقيق اسباب تمرد الجيش وخروجه على الخديو .. فقد ورد نبأ قيام هذا الوفد من الاستانة فى ٣ اكتوبر سنة ١٨٨١ ، فاتخذ شريف باشا من هذا الحادث وسيلة لاقناع زعماء الضباط بالابتعاد عن العاصمة لكى يكون ذلك دليلا قائما

على اذعانهم للحكومة وتنفيذهم اوامرها وترك سلطة الحكم فى يدها ولكى يمتنع الاتصال بينهم وبين الوفد العثمانى القادم ، فلا ينفسح المجال امامه للدس والتفرقة ، فاقتنعوا بهذه الحجة ، واستقر راى وزارة الحربية على نقل آلاى عبد العال حلمى الى دمياط ، وآلاى عرابى الى راس الوادى بالشرقية .. ويقول عرابى انهم قبلوا ذلك على شرط صدور الأمر الخديوى بانتخاب النواب لكى يطمئن على انشاء المجلس النيابى ، وفعلا صدر الأمر المذكور فى ٤ اكتوبر سنة ١٨٨١ .

وكان سفر الآلايين الى مقرهما الجديد فرصة للمظاهرات الوطنية التى تجلت فيها حماسة الاهلين وعواطفهم نحو الجيش .

كان آلاى عبد العال حلمى بك هو السابق بالسفر الى مركزه الجديد ، وكان يوم سفره يوما مشهودا ، فقد انتقل الآلاى الى محطة العاصمة مارا وسط المدينة ، وسبقه اليها معظم ضباط العسكرية وضباط المستحفظين والبوليس للقيام بواجب التوديع . وامتلأت المحطة بالمودعين ، ولما وصل اليها الآلاى اخذ مصطفى بك العنانى أحد أعيان القاهرة ومن كبار تجارها ينشر الورود والرياحين على رؤوس العساكر ، وسقى الناس شرابا سكريا فى ذلك اليوم اكراما للجيش المنقذ للبلاد من هاوية الاستبداد . وحضر محمود سامى باشا البارودى وزير الحربية ليودع الآلاى المسافر يصحبه عرابى بك ، وتبودلت الخطب الحماسية فى المحطة قبل قيام القطار .

وفى ٦ اكتوبر سنة ١٨٨١ سافر آلاى عرابى من العاصمة بين مظاهر الحماسة والتكريم .. فتحرك من مركزه بالعباسية فى

الساعة الثامنة صباحا قاصدا المحطة ، وشق المدينة من باب النصر تتقدمه موسيقاه تعزف بالحانها الحربية لتثير الحماسة فى النفوس الى ان بلغ المشهد الحسينى ، فاصطف الآلاى امام المسجد .. ثم دخل عرابى وزار مقام الحسين رضى الله عنه يصحبه بعض الضباط ، وادار بيرق الآلاى على الضريح الشريف ، ودعوا الدعوات الصالحة ، ثم خرجوا وسار الآلاى الى المحطة ، مارا بالموسكى ثم شارع البوستة فشارع كلوت بك . وكانت الشوارع تزخر بالمتفرجين ، وازدحمت المحطة بالمودعين ، اذ حضر اليها جميع ضباط الجيش المصرى ورؤسائه وكثير من الأعيان والتجار وعامة الناس ، وتبودلت الخطب الوطنية فى المحطة .

ثم تحرك القطار فى منتصف الساعة الحادية عشرة قاصدا مدينة الزقازيق ، وصحب عرابى فى سفره السيد عبد الله نديم — خطيب الثورة — واستقبل وصحبه وجنده فى المحطات بمظاهر الفرح والسرور والتكريم . وكان السيد عبد الله نديم يخطب فى الناس فى كل محطة ، واستمرت مظاهر الاحتفالات حتى بلغ القطار محطة الزقازيق ، فاستقبل القادمين جمهور الاعيان والاهالى والتجار يتقدمهم امين بك الشمسى كبير تجار البندر ، وهتفوا لعرابى وللجيش هتاف الدعاء ، ونثروا على العساكر الورود والأزهار العطرية وسقوهم الشراب السكرى ، ونزل عرابى من القطار وحيا جميع المستقبلين والقى فيهم خطبة حماسية بدأها بقوله :

« سادتى واخوانى ، انا اخوكم فى الوطنية ، واسمى احمد عرابى ، ، ولدت فى بلدة « هرية رزنة » من بلاد الشرقية هذه ،

فمن عرفنى منكم فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فقد عرفته بنفسى ، وها انا واقف بين ايدى الاهل والخلان » ، واخذ يشيد بما قام به وزملاؤه الضباط .

ثم استانف القطار السير قاصدا الى راس الوادى حيث كان مركز الآلاى .. وبعد أن استقر به عرابى وجنده يومين دعاه امين بك الشمسى ودعا معه صحبه من الضباط الى وليمة شائقة فخمة تكريما لهم ، فلبوا الدعوة والقى عرابى فى الوليمة خطبة بمعنى الخطبة السابقة ، وشكر امين بك الشمسى واثنى عليه الثناء المستطاب ثم وقف السيد عبد الله نديم والقى خطبة حماسية ، تعالى فى اثنائها هتاف الاستحسان من الحاضرين .

وفى اليوم التالى دعى عرابى لوضع الحجر الأساسى للمدرسة الاميرية بالزقازيق .. فلبى الدعوة وحضر الحفلة ، ووضع الحجر الأساسى للمدرسة باسم الخديو . والقى بهذه المناسبة خطبة ذكر فوائد التعليم ، وحث الحاضرين على العناية بتعليم ابنائهم ليعدوهم لخدمة بلادهم فى المستقبل .

تعيين عرابى وكيلا لوزارة الحربية

بقى عرابى فى منصبه بالشرقية نحو ثلاثة اشهر يتنقل فى الجهات ويبث أفكاره بين الأعيان والأهلين ، وقد اوجست الحكومة خيفة من ابتعاده طويلا عن العاصمة وتركه يجمع حوله الاتباع والانصار بعيدا عن رقابتها ، فاقترح البارودى تعيينه وكيلا لوزارة الحربية ، فصدر الأمر العالى بذلك فى ٤ يناير سنة ١٨٨٢ ،

وعاد الى العاصمة واستقر بها ، وتوطدت الثقة بينه وبين البارودى وعظم نفوذه ، وصارت داره كعبة لطلاب الحاجات وذوى التشكايات يقصدون اليها من كل فج ، حتى أصبحت تشبه مجموع دوائر الحكومة لكثرة من كان يفد عليها من الزائرين والشاكين . وتردد عليه مراسلو الصحف الأوربية ليأخذوا عنه الاحاديث والبيانات من الحركة التى قام بها ، فازدادت شهرته فى الاوساط الأوربية .

انشاء المحاكم الاهلية

ان أهم اصلاحات الوزارة الشريفية بعد الاصلاح الدستورى هو انشاء المحاكم الاهلية ووضع نظامها الجديد .. ففى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨١ صدر القانون المعروف بلائحة ترتيب المحاكم الأهلية ، وهى تتضمن معظم القواعد العامة للنظام القضائى الحالى واهمها :

١ - وجوب العمل بالقوانين بعد نشرها واعلانها فى الجريدة الرسمية « ويكون اجراء العمل بمقتضاها فى القطر المصرى بعد مضى ثلاثين يوما من تاريخ الاعلان ، واما فى السودان وباقى ملحقات الحكومة المصرية فيكون العمل بها بعد مضى سبعين يوما » .

٢ - عدم سريان القوانين على الماضى ، وصدور الأحكام باسم الحضرة الخديوية ، ووجوب استنادها الى القوانين التى سيجرى نشرها أو القوانين واللوائح الجارى بموجبها متى كانت أحكامها غير مخالفة لنصوص القوانين المذكورة .

٣ - رتبت اللائحة أنواع المحاكم الجديدة .. فقضت بانشاء محكمة ابتدائية فى كل من مصر والاسكندرية وفى كل مديرية من الوجه البحرى والقبلى ، وفى السودان وباقى ملحقات الحكومة

المصرية ، وانشاء محاكم جزئية فى دوائر اختصـــاص المحاكم الابتدائية ، ومحكمتين استئنافيتين ، احداهما بمصر ، والاخرى بأسيوط ، « أما فيما يختص باستئناف الاحكام الصادرة من المحاكم الابتدائية بالسودان وباقى ملحقات الحكومة المصرية فيتقرر فيما بعد بأمر الحضرة الخديوية » ، ومحكمة نقض بالقـــاهرة وكان اسمها فى اللائحة « محكمة التمييز » ، وانشاء النيابة العومية .

٤ ـ ونصت اللائحة على عدم جواز عزل قضاة المحاكم ، انما للحكومة حق استبدال من ترى فيه عدم اللياقة والاستعداد منهم فى أثناء السنوات الثلاث الأولى من تاريخ تعيينه .. ونصت على عدم نقل القضاة من محكمة الى أخرى الا برضاهم وبمقتضى امر يصدر من الحضرة الخديوية بناء على طلب وزير الحقانية وبعد أخذ راى محكمة النقض .

٥ ـ تقررت فى اللائحة قواعد اختصاص هـذه المحاكم على النظام الجارى العمل به اليوم .

تركيا والثورة العرابية

لم يكن موقف تركيا حيال مصر أثناء الثورة العرابية موقفا سليما ولا نزيها ، بل كانت ترمى الى انتهاز الفرص لانتقاص مزايا الاستقلال الذى نالته مصر فى عهد محمد على ثم فى عهد اسماعيل ، واسترداد هذه المزايا والتدخل فى شؤون مصر الداخليـة . ومع أن تركيا وقتئذ كانت من الضعف والارتباك بحيث لا تستطيع أن تجعل مصر ولاية عثمانية خاضعة لحكمها ، فقد كانت السياسة التركية قائمة على الدس وقصر النظر .. فهى لم تدع وسيلة

الا انتهزتها لاحراج مركز مصر والوقيعة بها . وكان موقفها من يوم ان ظهرت الثورة العرابية الى أن وقع الاحتلال موقفا مشئوما ، قوامه الختل وسوء النية والخداع ، فضلا عن الجهل وقصر النظر ، وكان ذلك من أكبر العوامل المساعدة على وقوع الاحتلال .»

الوفد العثماني الأول

حدثت واقعة عابدين يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وانتهت بسلام، وتألفت وزارة شريف باشا المرجوة من الأمة ، وهدأت الاحوال وابتدأت الوزارة الجديدة تحقق برنامجها بين مظاهر الثقة والاطمئنان . وبالرغم من ذلك ، فان الحكومة التركية رأت فى هذه الحادثة فرصة جديدة للتدخل فى شؤون مصر وانتحال حق الاشراف عليها ، فقررت ارسال لجنة الى مصر للنظر فى الحوادث الاخيرة . وقد عرفت هذه اللجنة بالوفد العثمانى ، وهو مؤلف من على نظامى باشا سر ياور السلطان عبد الحميد ، وعلى بك فؤاد من اعضاء مجلس شورى الدولة ونجل عالى باشا الصدر الأعظم المشهور ، وفى معيتهما قدرى بك وصفر افندى وسيف الله افندى من ياوران السلطان .

تحرك هذا الوفد من الاستانة يوم ٢ أكتوبر سنة ١٨٨١ قاصدا الى مصر .. ولم يسبق تأليفه مخابرة بين حكومة الاستانة والحكومة المصرية حتى يعرف مقصدها من ايفاده ، بل فوجئت البلاد بتلغراف من الاستانة ينبىء بقيام هذا الوفد ، فقوبل النبأ بالدهشة ، لأن حالة البلاد لم تكن تسيغ ايفاده فضلا عما يحدثه مجيئه من هياج الخواطر واثارة الهواجس فى وقت كانت البلاد محتاجة فيه الى اقرار الطمأنينة فى النفوس .»

ولكن الحكومة العثمانية كانت فى الواقع لتعمد احداث حدث يثير الخواطر فى مصر .. فلعلها كانت تامل أن تستفيد من الثورة ، أو لعلها نظرت بعين الاستياء الى قيام وزارة حرة تقيم النظام الدستورى فى مصر ، لأن مثل هذا النظام لم يكن لترضى عنه حكومة الاستانة التى جبلت على كراهية الحرية والدستور . هذا الى ان على راسها السلطان عبد الحميد الذى بدأ عهده بتعطيل القانون الأساسى العثمانى ، والغاء مجلس المبعوثين « النواب » وتشتيت دعاة الحرية وانصارها .. أضف الى ذلك أن الخديو توفيق لم يكن منظورا اليه فى الاستانة بعين الرضا والعطف ، لأن سلطان تركيا لم يكن ليغفر له اغفاله الذهاب الى عاصمة السلطنة ، حين ولايته الحكم ، ليقدم له فروض الولاء !

حقا ان توفيق باشا اعتذر عن عدم ذهابه الى الاستانة بارتباك أحوال مصر وضرورة وجوده فى عاصمة ملكه . ولكن هذا العذر لم يكن ليقبله حكام الاستانة ، اذ كان من اخص صفاتهم الغطرسة والكبرياء وسوء الظن والانتقام . لذلك انتهزوا كل فرصة لاحراج مركز الخديو واثارة المشاكل والعقبات فى وجهه . ففكرة ارسال وفد الى مصر فكرة قوامها الكيد وسوء القصد ، وقد استاء لها شريف باشا وابدى مخاوفه منها .

جاء هذا الوفد الى الاسكندرية يوم الخميس ٦ اكتوبر سنة ١٨٨١ ، ووصل أعضاؤه الى القاهرة فى مساء ذلك اليوم ونزلوا ضيوفا على الحكومة بقصر النزهة بشبرا .

وفى صبيحة الجمعة ذهبوا الى سراى الاسماعيلية لمقابلة الخديو ، فاستقبلهم بالترحاب ، وتبادل واياهم عبارات التحية

والود ، وابلغوه تحيات السلطان واعربوا له من تمام رضاه وسروره لما يبذله فى تحسين احوال البلاد ، وان الفرض من ارسال هذا الوفد هو اظهار الثقة بالخديو وتأييد نفوذه وتثبيت مركزه .. فرد عليهم بعبارات الشكر المألوفة ، ثم انصرفوا عائدين الى قصر النزهة وهناك رد لهم الخديو الزيارة .

وذهب على نظامى باشا الى قصر النيل حيث كان ديوان الحربيـــة ومركز الآلاى الثانى .. فاستقبله محمود سامى باشـــا البارودى وزير الحربية ، وهناك استدعى طلبة بك عصمت قائد الآلاى ومعه الضباط من رتبة قائمقام وبكباشى ، والقى فيهم خطابا باللغة التركية ـ عربه لهم البارودى ـ حثهم فيه على طاعة الخديو وتنفيذ اوامره

فاجابه طلبه بك عصمت بقوله : « ان العساكر المصرية جموعا وافرادا على قدم الطاعة والانقياد لولى أمرنا الخديو المعظم ، يتلقون أوامره بالامتثال ، ويقفون عند حد نواهيه .. فان كلا منا يعلم ان اول واجب على الجند هو اطاعة ولى الأمر والاذعان لما يأمر به . وما منا الا محب للجناب الخديوى ميال بكليته الى الامتثال لارشاداته » .

ولما انتهى من كلامه وقف على نظامى باشا ، وصافح طلبة بك ومن معه من الضباط ، واثنى عليهم الثناء الجميل ، ثم بقى مع محمود باشا سامى البارودى نحو نصف ساعة وانصرف .. وزار بعد ذلك شـيخ الجامع الأزهر ونقيب الاشراف وشـيخ المالكية .. وكانوا فى أحاديثهم معه يثنون على الجيش ويطرون اعماله ، ويذكرون فضله فيما نالته البلاد .

وقد استاءت فرنسا وانجلترا من حضور الوفد العثمانى على غير اتفاق معهما .. وعدتاه تدخلا من تركيا فى شؤون مصر الداخلية ، وطلبتا من الحكومة العثمانية تقصير مدة اقامته .. وانتهزت انجلترا هذه الفرصة لتعلن عن نفوذها فى مصر حيال حضور الوفد ، فطلب السير ادوار مالت من حكومته ارسال بارجة حربية الى مياه الاسكندرية ، فاجابت طلبه . واتفقت مع الحكومة الفرنسية على ان ترسل كل منهما بارجة على أن تعود البارجتان من الاسكندرية حين مبارحة الوفد العثمانى أرض مصر . وقد وصلت فعلا البارجة الفرنسية « الما » الى مياه الاسكندرية ، ثم جاءتها البارجة الانجليزية « انفنسبل » . وغادرتا الميناء يوم ٢٠ اكتوبر غداة سفر الوفد العثمانى فكانت هذه المظاهرة البحرية أول مظاهرة من هذا النوع اثناء الثورة العرابية ، والمظاهرة الثانية وقعت فى شهر مايو سنة ١٨٨٢ كما سيجىء بيانه . ويلاحظ ان البارجة « انفنسبل » هى احدى البوارج التى اشتركت فى ضرب الاسكندرية يوم ١١ يولية سنة ١٨٨٢ ، فحضور الوفد العثمانى كان باعثا على مجىء هذه البوارج .. فلا جرم كان حضوره ضارا بمصر من جميع النواحى .

وظل رجال الوفد العثمانى فى مصر بضعة عشر يوما بين مقابلات وولائم ، واجمعت كلمة من حادثوهم من ذوى المقامات على أن البلاد ليس فيها أى اضطراب . واكد لهم الخديو ان الجيش على طاعته ، وبذلك انتهت مهمتهم . واتضح ان مجيئهم لم يكن له مسوغ ، ولا كانت له نتيجة ما ، وعادوا الى الاسكندرية يوم

١٨ أكتوبر سنة ١٨٨١ ، وفى صباح اليوم التالى انقلبوا راجعين الى الاستانة .

انشـــاء مجلس النواب

فى ٤ اكتوبر سنة ١٨٨١ رفع شريف باشا الى الخديو تقريرا باجابة مطلب الامة فى صدد انشاء مجلس النواب ، ضمنه مزايا النظام الدستورى وضرورة اقراره مصر ، وطلب تمهيدا لتاليف المجلس النيابى الجديد اجراء انتخابات عامة طبقا للائحة مجلس شورى النواب القديم .. على ان تعرض الوزارة على المجلس المنتخب مشروع اللائحة الأساسية التى تكفل نهوضه الى مستوى المجالس النيابية الصحيحة ، أو بعبارة اخرى دعا الى انتخاب مجلس شورى النواب على ان يكون « جمعية تاسيسية » تضع الدستور الجديد .

وفى نفس اليوم الذى رفع فيه شريف باشا تقريره الى الخديو ، صدر الأمر العالى باجراء الانتخابات العـامة وتحديد يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨١ لافتتاح مجلس النواب .

ولما كان نظام مجلس شورى النواب القديم يجعل انتخاب النواب موكولا الى عمد البلاد ومشايخها فى المديريات وجماعة الأعيان فى القاهرة والاسكندرية ودمياط ، فقد جرت انتخابات سنة ١٨٨١ على هذا الأساس .

ولا شك فى أن جعل انتخاب النواب موكولا الى عمد البلاد ومشـــايخها فى المديريات يســـهل على الحكومة السيطرة على الانتخابات واملاء ارادتها فيمن يختارهم العمد والمشايخ .. ولكن

شريف باشا حرص حرصا شديدا على أن تجرى الانتخابات حرة بعيدة عن تدخل الحكومة . واصدر منشورا بذلك الى جميع المديريات والمحافظات نبه فيه المديرين والمحافظين الى ترك الانتخابات حرة ، وهو أول منشور انتخابى فى تاريخ مصر الحديثة يقضى باحترام حرية الانتخابات العامة .

وفى الحق أن الحكومة لم تتدخل فى هذه الانتخابات ، ولم تتعرض لحرية الناخبين فى انتخاب من يريدون .. فكان الانتخاب حرا بكل معانى الحرية . وكذلك كان حرا من تدخل العرابيين واملاء ارادتهم على الناخبين ، وترشيح اشياعهم واتباعهم . وقد كان فى استطاعة حزبهم باعتباره صاحب الفضل فى انشاء مجلس النواب أن يتدخل فى الانتخابات ، ويملى ارادته على الناخبين ، لكى يضمن تأليف غالبية النواب من اتباعه ومرشحيه . ولو فعل ذلك لقضى على حرية الانتخاب قضاء مبرما .. ولكن حسنا فعل ، اذ ترك الناخبين أحرارا فى انتخاب من يأنسون فيهم الاستقامة والاخلاص والكفاية ، ولم يسلبهم حرية الاختيار التى هى قوام الحياة الدستورية الصحيحة .. فجاءت الانتخابات صورة صادقة لارادة الناخبين ، وضرب العرابيون بذلك مثلا رائعا فى احترام حرية الانتخاب .

افتتـــاح مجلس النواب

كان افتتاح مجلس النواب يوما مشـــهودا من أيام مصر التاريخية ، استقبلته الأمة مغتبطة مبتهجة بما نالته من تقرير حريتها السياسية بانشاء مجلس يمثلها ويشرف على شؤونها

واقدارها . وقد كان هـذا المجلس حقا رمزا لهذه الحرية .. ولولا دسائس الانجليز ومكايدهم لكان فاتحة عصر جديد لنهضة مصر وتقدمها .

أعدت قاعة اجتماع المجلس بديوان وزارة الأشغال - قاعة اجتماع مجلس الشيوخ الآن - وحدد يوم الاثنين ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ لافتتاحه (١) فلم تكد تشرق شمس ذلك اليوم حتى ازدحم الديوان والشوارع المفضية اليه بالجماهير ، واصطفت اورطه من الالاى الأول المشاة - آلاى الحرس - على جانبى الطريق من باب الديوان الى سلم القاعة بقيادة البكباشى محمد عبيد (الذى تقدم الكلام عن الدور الذى قام به فى واقعة قصر النيل) ومعها موسيقاها العسكرية تصدح بالحان الفرح والسرور والابتهاج .

وحضر النواب ، واخذوا مجالسهم ووجوههم تتهلل غبطة وسرورا .. وفى نحو السـاعة العاشرة صـباحا تحرك الركب الخديوى من سراى الاسماعيلية ، فاطلقت المدافع من القلعة ايذانا بتحرك الموكب . وكان يصحب الخديو فى عربته شريف باشا رئيس مجلس الوزراء ، واحمد خيرى باشا المهردار - حامل الختم - ورئيس الديوان الخديوى ، وطلعت باشا كاتب الديوان الخديوى .

فلما اقبل الركب صدحت الموسيقى بالسلام ، وهتف الجنود بحياة الخديو منادين النداء المعتاد : « افندمز جوق باشا » - أى يعيش افندينا - وكان فى انتظاره على سلم المجلس جميع الوزراء

(١) كان محددا لافتتاحه يوم ٢٣ ديسمبر كما تقدم بيانه ، ولعدم اكمال معدات الاجتماع ارجىء الى يوم ٢٦ منه .

ورئيس مجلس النواب وبعض أعضائه فتلقوه بالاجلال .. وقصد الى الغرفة المعدة لاستراحته ، فلبث بها هنيهة قصيرة ، ثم انهى اليه محمد سلطان باشا رئيس المجلس ان المجلس قد استعد وكمل اجتماع الأعضاء . فسار الخديو ودخل قاعة الاجتماع فى نحو الساعة الحادية عشرة ، وحيا الأعضاء .. فتلقوه بجميل الاعزاز والاجلال .

واخذ مجلسه يحف به كبار رجال الدولة ، وافتتح المجلس بتلاوة خطبة العرش ، وقد تلاها بنفسه ، وهذا نصها :

« ابدى لحضرات النواب مسروريتى من اجتماعهم لأجل أن ينوبوا عن الاهالى فى الأمور العائدة عليهم بالنفع ، وفى علم الجميع انى من وقت ما استلمت زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب .. ولكن تأخر افتتاحه للآن بسبب المشكلات التى كانت محيطة بالحكومة . فأما الآن فنحمد الله تعالى على ما تيسر لنا من دفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ، ومن تخفيف احمال الاهالى على قدر الامكان ، فلم يبق مانع من المبادرة الى ما انا متشوق لحصوله وهو مجلس النواب الذى انا فاتحه فى هذا اليوم باجتماعكم ، وانتم تحيطون علما ان جل مقاصدى ومساعى حكومتى هو راحة الاهالى ورفاهيتهم وانتظام امورهم بتعميم العدالة بينهم ، وتأمين سكان القطر على اختلاف اجناسهم ، وهذا منهجى واضحا مستقيما ، وعليه سيرى منذ توليت أمركم ، محبا للتربية ونشر العلوم والمعارف ».

« فعلى المجلس أن يكون مساعدا للحكومة فى هذه الأمور كلها ، خالصا مخلصا فى خدمة الوطن منحصرة افكاره ومذكراته فى

المنافع العمومية ، مع مراعاة قرار لجنة التصفية وسائر تعهدات الحكومة مع الدول ، سالكا المسلك المعتدل والمنهج القويم الذى هو اهم شيء فى هذا الوقت الذى هو عصر الترقى والتمدن .. فالواجب علينا الاعتدال والتأنى وحسن التبصر ، وأن نكون يدا واحدة فى اتمام الأعمال النافعة ، متوسلين بعناية الله تعالى وامداد رسوله الكريم ، ومتمسكين بقوة ارتباطنا بالحضرة الشاهانية والدولة العلية أدامها الله ، نسأل الله حسن النجاح انه ولى التوفيق » .

* * *

ولما انتهى الخديو من تلاوة خطبة العرش هتف الجميع له واطلقت المدافع من القلعة مؤذنة بانتهاء الخطاب مبشرة باجتماع مجلس النواب .. ثم برح الخديو مكان الاجتماع وصدحت الموسيقى بنغمات التحية له ، وعاد الى سرايه فى موكب حافل .

وتعد خطبة الخديو توفيق من الوثائق الهامة فى تاريخ مصر الدستورى ، لانها اول خطبة لولى الامر فى افتتاح اول مجلس نيابى كامل السلطة فى تاريخ مصر الحديث ، وهى فى مجموعها سديدة المعانى واضحة الاسلوب ، متضمنة اعلان الخديو انضمامه الى الامة فى اقرار النظام الدستورى . وقد القاها بنفسه دون أن يستنيب عنه رئيس مجلس الوزراء كما هو العرف البرلمانى ، فكان فى القائه اياها تثبيتا وتوكيدا لما احتوت عليه من الآراء والمعانى .

لم تكن جلسة الافتتاح علنية ، وذلك طبقا للائحة مجلس شورى النواب القديمة .. ولكن الحكومة تجاوزت عن تطبيق

هذا النص ، فدخل كثير من النظارة مكان الاجتماع ، ووقفوا حول مقاعد الاعضاء حتى انتهت حفلة الافتتاح . ولم يدع احد من قناصل الدول الى حضور الحفلة باعتبارها حفلة سرية طبقا للائحة القديمة ، ولأن هذا الاجتماع من شؤون البلاد الداخلية » وقد اعد فى القاعة ١٢٠ كرسيا لجلوس النواب ، وكانوا فى الواقع اقل من ذلك .. ولكن الحكومة كانت معتزمة تعديل اللائحة الاساسية القديمة بزيادة عدد النواب عن بعض المديريات ، وانتخاب نواب عن السودان ، فاعدت منذ افتتاح المجلس المقاعد الكافية لهذا العدد .. واعدت كذلك نحو ٤٠٠ كرسى للنظارة ، لاعتزامها جعل جلسات المجلس علنية فى اللائحة الجديدة »

وبعد انصراف الخديو دخل النواب مكان الاقلام « اللجان » وظلوا مستريحين ساعة من الزمن ، ثم عادوا الى قاعة المجلس ، واستانفوا اجتماعهم ، فالقى فيهم محمد سلطان باشا الخطبة الآتية :

« أيها السادة النواب

« نحمد الله الذى جعل أمرنا شورى ، ونصلى ونسلم على نبيه المامور بالشورى والآمر بها ، وبعد فقد سمعتم ما تضمنته المقالة الخديوية الكريمة من حسن القصد وسمو الادارة ، فما زادكم الا يقينا بما عهدتم بالجناب المعظم من صفاء النية وكرم العنصر وسلامة الطوية والارتياح الى المصلحة الوطنية .. وقد اجتمعتم فى هذا المكان الرفيع بعناية الجناب العالى ورجال حكومته السنية للنظر فى امور أوطانكم وانتم خلاصة وجهاء القطر وبضعة

أعيانه ونبهائه ، فواجباتكم من هذا القبيل تقضى عليكم بالحكمة والاعتدال والثبات ..

« ولا ازيدكم علما أن الوطن العزيز محتاج الى الاصـــلاح والتنظيم قابل للتقدم والعمران جامع لأسباب المنافع الكلية ، فما عليكم الا السعى والاجتهاد لنوال المراد . ولكنكم لا تجهلون أن علينا حقوقا واجبة الحفظ ، وذمما لازمة الرعاية ، وانا قد أمرنا شرعا بحفظ العهود ورعى الذمم ، فمن تلك العهود شدة الارتباط وصلة التابعية للدولة العلية التى هى مركز قوتنا ومرجع سطوتنا ، وقد عرفنا منها العناية وعرفت منا الاخلاص . فلا بد من ثباتنا على هذه الحال بالنظر اليها ، ولا شك ان تقدمنا واستقامة امورنا وتأييد أمر الشورى فينا يسر هذه الدولة العلية لما ينشأ لنا عنه من القوة التى تكون جزءا من قوتها الكلية . ومن الذمم والمواثيق علاقتنا المالية والتجارية مع الدول العظمى ، فهذه الذمم واجبة الرعاية لما يترتب على حفظها من استحكام صلات المودة بيننا وبين هاتيك الدول التى ينبغى لنا الاعتقاد برغبتها فى انتظام امورنا وميلها الى كل ما يعود علينا بالنفع كما صرح بذلك عظماء رجالها على منابر المجالس النيابية وفى المنشورات الرسمية .

« فاذا حفظنا تلك العهود ورعينا هذه الذمم وعرفنا حقوق الوطن علينا ولم نذهل عن شى من الواجبات لزمنا الأخذ بأسباب الحكمة والثبات للنظر فيما يجلب لنـــا النفع ويدرا عنـــا الضرر ويثبت للناس جدارتنا بما وصلنا اليه ويحقق بنا ظن ابناء الوطن الذين جعلونا موضع ثقتهم واعتمادهم .

« فوجهوا اخوانى همتكم فى السعى بالحكمة والاعتدال والتبصر والثبات .. فمن جد وجد ، ومن سار على الدرب وصل »

ثم القى سليمان باشا اباظة نائب الشرقية الخطبة الآتية :

« سعادة الرئيس ، الحمد لله على سوابغ آلائه ونوابغ نعمائه، وبعد فقد ابان رئيس مجلسنا الهمام ما تضمنته المقالة الخديوية الكريمة من حسن القصد وصفاء النية والميل الى المصلحة الوطنية ، وأوضح بعد ذلك حق الوطن علينا وواجباتنا بالنظر الى العهود الواجبة الحفظ والذمم اللازمة الرعاية ، وهذا موقف الشكر له والثناء عليه ، أقوم فيه أصيلا عن نفسى ونائبا عن سائر اخوانى النواب .. فيا سعادة الرئيس الهمام ، لقد علمت وانت أولنا ان ليس منا من قبل النيابة على علم بعظم واجباتنا الوطنية والسياسية الا وفى عزمه اداء حق الوطن وحفظ العهود المرعية وخدمة الامة بما يجلب لها النفع ويدرأ عنها الضر .. ويا اخوانى ! لقد علمتم ان الانظار محدقة الينا والأفكار محومة علينا ، وأن الوطن العزيز محتاج الى الاصلاح كما قال سعادة الرئيس .. فلندخل ، الاصلاح من بابه ،ونأخذ فيه بأسبابه ، لا ننظر الا الى المصلحة العمومية ، ولا نهتم الا بالمنفعة الوطنية .. وقد حصل لنا اليقين بأن يد الجناب المعظم منبسطة لمساعدتنا ، وعناية رجال حكومته متوجهة الى تأييد مجلسنا ، وان الامة تتوقع منا الاجتهاد فى سبيل الحكمة والسداد ..»

« فما اجدرنا بتحقيق الآمال ، وما احقنا بالسعى فيما يصلح به الحال ويحسن الآمال ، وقد آن الشروع فى العمل ، فلنقبل عليه

بنفوس راضية ، وقلوب صافية ، وافكار متوجهة الى حقوق الوطن ، ونيات معقودة على اداء الواجبات ، والله ولى توفيقنا عليه توكلنا واليه ننيب » .

كان افتتاح المجلس بمثابة عيد قومى عام .. تجلت فيه مظاهر الابتهاج والغبطة والسرور العظيم ، فوفد على العاصمة فى ذلك اليوم كثير من الزائرين من مختلف المديريات لمشاهدة حفلة الافتتاح ، واقيمت الولائم والحفلات فى القاهرة والاسكندرية ابتهاجا بافتتاح المجلس الجديد . واشترك فيها كثير من النواب والاعيان والموظفين وطبقات الشعب كافة ، وعبرت الصحف اصدق تعبير عن شعور الراى العام نحو هذا الحادث الهام فى حياة مصر القومية .

وقد اجتمع المجلس يوم افتتاحه وانتخب من بين اعضائه لجنة عهد اليها تحضير الجواب على خطاب العرش وتقديمه الى الخديو ، وهذه اللجنة مؤلفة من عشرة اعضاء من النواب البارزين وهم : احمد بك الشريف ، عبد السلام بك المويلحى ، محمد بك الشواربى ، امين بك الشمسى ، وهلال بك منير ، محمود بك سليمان ، احمد بك على ، مراد افندى السعودى ، اسماعيل افندى سليمان ، على بك شعير .

* * *

وقد اعدت اللجنة الجواب واقره المجلس ، وفى يوم الخميس ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٨١ ، ذهب سلطان باشا رئيس المجلس ومعه عبد الله باشا فكرى كبير الكتاب واعضاء اللجنة العشرة الى سراى الاسماعيلية بملابسهم الرسمية لتقديم جواب المجلس على خطاب

العرش ، فقابلهم الخديو بحضور الوزراء ، وتلا محمود بك سل
الجواب ، وهذا نصه :

« بعد حمد الله تعالى على توفيقه وراشاده ، والصلاة والتس
على من اصطفى من عباده ، نقوم لدى هذه السدة الخد
الكريمة نحن معاشر نواب الأمة المصرية مقام النيابة عن جم
فى تقديم واجب الشكر لهذا الجناب الخديوى الفخيم على انعه
عواطفه نحو مجلس الشورى النيابية الذى افتتحه بنطقه الشر
اظهارا لمقصده الجليل من حيز القول الى عالم الفعل واجابة لر
الأمة ، ونظرا للمصلحة العامة .. بعد أن زالت العوائق د
وامتنعت الموانع بيننا وبينه بجلائل همهه الخديوية التى ذ
لها صعاب المسائل ، وخضعت دونها رقاب المشاكل ، حتى ه
الوقت واطمانت الحال ، « ودنى المنى وانقادت الآمال ، » . و
شنف اسماعنا وانعش ارواحنا ذلك النطق الكريم ، وملك افئد
وملأها سرورا وطربا بما تضمن من الافصاح عما هو عليه ا
النعمة ، والفناه من نزاهة النية ونبالة القصد ، حتى لقد نما
السرائر بما بدا على قسمات الوجوه من سمات السرور .
تدع للألسنة من حاجة للتعبير عن فرط محبة عظيمة من أمة كر
لمولى متفضل عليها متحبب اليها محب لحريتها مشغوف بخي
ومنفعتها .

« فلم يبق الا ان نبذل غاية ما فى السعة وتاتى على قاص
الاستطاعة فى نفع هذه الأمة التى ندبتنا للنظر فى منفعتها واستناب
عن انفسها لرؤية مصالحها ، سالكين فى ذلك من مسالك الحـ
والتبصر وحسن النظر ما تحسن بعناية الله مغبته ، وتحمد بيـ
توفيقه عاقبته ، ويعضد مقاصد حكومتنا السنية المتجهة للسد
والرشاد وسلامة البلاد والعباد ، ويؤيد ما لنا من روابط التبع
للذات السنية السلطانية والدولة العلية العثمانية التى منحت
عواطفها الكريمة من الامتيازات المرعية ما جلت به النعمة وعظم

المنة ، ويؤكد علائقنا الودادية مع الدول الاجنبية المحبة لمنفعتنا وفائدةبلادنا مبتهلين الى الله جـل ثناؤه وتقدست آلاؤه فى أن يحرس لنا هذا الجناب الخديوى الفخيم ويديم لاوطاننا به النفع العميم ، ادام الله توفيقنا على أحسن ما يرام وبلغ به الوطن العزيز غاية المرام » .

وتعد خطبة رئيس مجلس النواب يوم افتتاح المجلس وتعقيب سليمان باشا اباظة عليها وجواب المجلس على خطبة العرش من الوثائق الهامة فى تاريخ المجلس .. وهى صورة ناطقة تمثل لنا جانبا من الحياة السياسية والآداب البرلمانية فى ذلك العصر ، ولغة هذه الوثائق ومعانيها حسنة — فى مجموعها — وتدل على سهولة استساغة نواب سنة ١٨٨١ للأساليب البرلمانية الحديثة .

وضـــع الدستور

واشتغلت وزارة شريف بوضع الدستور ، وكان يسمى فى اصطلاح ذلك العصر « اللائحة الاساسية » أو « القانون الاساسى» ، وقد وضع على احدث المبــادىء العصرية ، اذ يتضمن القواعد الرئيسية للنظم البرلمانية ، كتقرير مبدأ المسئولية الوزارية امام مجلس النواب ، وتخويل المجلس حق تقرير القــوانين بحيث لا تصدر الا بتصديق منه ، وتقرير الميزانية والرقابة على أعمال الحكومة وموظفيها والزامها بعدم فرض اى ضريبة أو اصــدار اى قانون أو لائحة الا بعد تصديق المجلس ، وقد اخذ بنظرية وحدة الهيئة النيابيــة فجعلهــا ممثلة فى مجلس النواب دون مجلس الشيوخ .

ولما اتم شريف باشا وضع الدستور عرضه على مجلس النواب للمناقشة فيه واقراره .. ففى عصر يوم ٢ يناير سنة ١٨٨٢ ، جاء الى مجلس النواب يصحبه سائر الوزراء ، فعرض الدستور على هيئة المجلس ، والقى فى هذا المقام خطبة ضافية ذكر فيها خلاصة ما احتواه من القواعد ، والمع الى انه بوضع هذا الدستور

انما ينفذ الخطة التى رآها من ثلاث سنوات ، فى عهد الخديو اسماعيل .

وقد احال المجلس مشروع الدستور على « اللجنة الدستورية » وهى لجنة ألفها خصيصا للنظر فيه وكانت تسمى « لجنة اللائحة» وقد بحثت اللجنة مواد الدستور وأقرت معظمها مع تعديلات يسيرة فى بعضها لا تغير من جوهره شيئا . وكاد الأمر يتم بالاتفاق بين الحكومة والمجلس على نصوص الدستور ، لولا الازمة السياسية التى ادى اليها تدخل فرنسا وانجلترا فى وضع الدستور وانتهت بسقوط وزارة شريف .

أزمة يناير سنة ١٨٨٢

اعترض وضع الدستور ازمة سياسية خطيرة نسميها ازمة يناير سنة ١٨٨٢ .. ترجع الى سوء نية انجلترا وفرنسا حيال مصر وائتمارهما بالنظام الدستورى ، الذى كاد يستقر باعلان اللائحة الأساسية . ولم يكن بقى على اعلانها وصدور المرسوم بها سوى اجراءات شكلية من تبادل الرأى بين مجلس النواب والحكومة على التعديلات الطفيفة التى أدخلتها لجنة المجلس فى مشروع اللائحة ..

ولكن انجلترا وفرنسا أرادتا أن تحدثا حدثا يخلق الاضطراب فى مصر ، وقد يودى بالدستور .. وذلك بتدخلهما فى شؤون مصر الداخلية ، وايقاع الفرقة بين الخديو والأمة ، ولكى تتخذا من هذه الفرقة ذريعة للتدخل المسلح .

ففى اليوم الثامن من شهر يناير سنة ١٨٨٢ توجه السير ادوارمالت معتمد انجلترا ، والمسيو سنكفكس المعتمد الفرنسى مجتمعين الى سراى عابدين ، وقدما الى الخديو مذكرة مشتركة من الدولتين بتاريخ ٧ يناير سنة ١٨٨٢ ، قوامها انهما حيال الحوادث الأخيرة قد اجمعتا على تأييد سلطة الخديو .»

وفحوى المذكرة أن الدولتين انتحلتا لنفسيهما حق القوامة والرقابة على مصر واقرار الأمن والنظام فيها ، والتدخل فى شؤونها الداخلية .. وظاهر من عباراتها أن فرنسا وانجلترا كانتا تنظران بعين الاستياء الى تأليف مجلس النواب وقيام النظام البرلمانى فى مصر .. ولم تكتما الاعراب عن هذا الاستياء صراحة فى المذكرة ، اذ جعلتا من الحوادث الموجبة للتدخل « صدور الأمر الخديوى باجتماع مجلس النواب » .

قوبلت هذه المذكرة فى مصر بالسخط العام .. وهاجت لها الخواطر ، وتوجه شريف باشا الى معتمدى فرنسا وانجلترا وانهى اليهما اعتراضه على المذكرة .

واعقب هذا التدخل تدخل آخر ، اذ طلب قنصلا الدولتين من شريف باشا بايعاز من الرقيبين الاوربيين الا يخول مجلس النواب حق تقرير الميزانية ، وقدما اليه فى ٢٦ يناير سنة ١٨٨٢ مذكرة بهذا المعنى اثناء اشتغال « اللجنة الدستورية » بالنظر فى اللائحة الأساسية ..

كان هذا التدخل تحديا بالغا لكرامة البلاد وحقوقها ، وتدبيرا مبيتا بين الدولتين للتدخل المسلح وخلق الذرائع للاحتلال .. اذ ما شأن انجلترا وفرنسا بنظام مجلس النواب المصرى ؟ وأى قانون يخولهما حق التدخل فى وضع الدستور والمطالبة بحرمان المجلس حق تقرير الميزانية ؟ !

ولا شك ان هذا عدوان منكر لا سند له من الحق ولا من العهود المبرمة بين مصر والدولتين ، لاسيما ان مشروع اللائحة الأساسية كان ينص فى صراحة لا ابهام فيها على احترام اتفاقات مصر الخاصة بتسوية الديون . وفى هذا النص الكفاية لاطمئنان الدول ورعاياها على حقوقهم .. اما التذرع بهذه الديون لحرمان مجلس النواب حق تقرير الميزانية ، وهو أهم خصائص البرلمان ، فهو الظلم والاعتساف والتحكم الذى لا مسوغ له ، وهو الطمع الاستعمارى الذى لا يحترم حقا ولا يرعى عهدا .

كان الموقف على جانب كبير من الخطر .. فهناك اولا حقوق الأمة وكرامتها ، ولا تقبل امة تحترم نفسها أن تنزل على ارادة دولتين غاصبتين تريدان حرمان مجلس النواب حقا من اقدس حقوقه ، وهو تقرير الميزانية .. وهناك من جهة اخرى الخطر الماثل امام رجل الدولة ، اذ يرى البلاد هدفا للتدخل المسلح من جانب الدولتين المتحفزتين للاحتلال .

* * *

وقد ارتأى شريف باشا درءا للأزمة ان لايبت مجلس النواب بقرار نهائي فى المادة المتعلقة بالميزانية ، وان يرجئها الى حين ، حتى تنجلى الغمة . وبذلك يتفادى التدخل المسلح الذى لم يكن فى استطاعة مصر ان تصده لما كانت عليه وقتئذ من الضعف والارتباك . والتأجيل فى ذاته لم يكن مضيعا لحقوق الأمة فى الدستور ، بل كثيرا ما يكون التأجيل من الوسائل السياسية التى يعمد اليها لاتقاء الازمات .. على ان وضع الدستور قد يستغرق وقتا يطول او يقصر ، على حسب الظروف والملابسات . ولم يكن النص الخاص بالميزانية فى ذاته مستعجلا لأن ميزانية سنة ١٨٨٢ كان قد صدر المرسوم باعتمادها فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨١ ، اى قبل انعقاد مجلس النواب .. فالبحث فى أمر الميزانية لا تبدو اهميته العملية الا فى ختام سنة ١٨٨٢ حيث توضع ميزانية سنة ١٨٨٣ ، فارجاء البت فى هذا النص لم يكن له من الخطر ما يدعو الى التصادم بين المجلس والوزارة .

وقد نصح المستر « بلنت » عرابى وصحبه بالاعتدال فى موقفهم من هذه الأزمة ، وبان لا يقطعوا براى فى نص الميزانية قبل أن تفاوض الوزارة حكومتى فرنسا وانجلترا . وأيده الشيخ محمد عبده فى نصيحته ، وروى عنه انه قال فى هذا الصدد : « لقد لبثنا عدة قرون فى انتظار حريتنا ، فلا يشق علينا ان ننتظر الآن بضعة أشهر » .. ولكن نصيحة الاثنين عبثا !

وقد عرض شريف باشا على مجلس النواب فكرة التأجيل .. ولكن عرابى ورؤساء الضباط والأعضاء البارزين من النواب لم يقبلوا هذا الحل ، وارتأوا رأيا آخر يناقضه ، وهو تقرير مادة الميزانية فى الحال . ويلوح لنا ان ثمة عاملا آخر غير الاقتناع كان له دخل فى الاخذ بهذا الرأى وهو انصراف العرابيين عن شريف ، ورغبتهم فى اقصائه عن الحكم ، واسناد رياسة الوزارة الى رجل منهم ، اذ لم يكن يخفى أن شريف باشا وان كان قد ألف وزارته على قاعدة اجابة مطالب العرابيين ، لكنه كان يشعر حيالهم بشىء من الاستقلال والكرامة .

وهذا ما جعل العرابيين يرغبون فى التخلص منه ويستبدلون به رجلا من خاصتهم .. وقد ساعد على ظهور هذه الرغبة طموح محمود باشا سامى البارودى الى رياسة الوزارة .. فقد كان البارودى كثير الطموح الى السلطة والجاه ، ومن هنا تعقدت الأزمة ، وامتنع الاخذ برأى شريف باشا ، لان البارودى وهو وزير الحربية فى وزارة شريف باشا ، قد زين لعرابى وصحبه ان يتشبثوا برأيهم ، ويرفضوا التأجيل ، ويقرروا مادة الميزانية فورا . وقد رتب على هذه الخطة وصوله الى الرياسة ، لانه كان مفهوما أن رفض النواب رأى شريف باشا يؤدى بداهة الى استقالته ، فيدعى هو الى تأليف الوزارة الجديدة .

استقالة شريف باشا

وكان ما رتبه البارودى .. فقد اتفقت كثرة النواب على رفض التأجيل وعلى اقرار مادة الميزانية كما هى . ورأى شريف باشا من حديثه مع اعضاء اللجنة الدستورية انهم راغبون فى اسقاط وزارته ، فلم ير بدا من تقديم استقالته فى ٢ فبراير سنة ١٨٨٢ .

وقد كان يجدر بالنواب أن يتريثوا فى الأمر .. وأن لا ينقلبوا بهذا السرعة على من كان موضع آمالهم حتى الامس . ومما يستوقف النظر ويدعو الى الأسف ، أن يكون أول عمل هام لمجلس

النواب هو التخلص من الرجل الذى انشاه وناضل من اجله ووضع نظامه الأساسى .. ولكنها الأهواء والمطامع كان لها الاثر البالغ فى ركوب هذا المسلك .

وبعد سقوط وزارة شريف باشا اقصاء تاما لسلطة الخديو وانتصارا حاسما للحزب العسكرى وعلى رأسه عرابى ، لأن الخديو لم يكن راغبا فى استقالة شريف باشا .

وقد ذاعت شهرة عرابى فى اوربا عقب سقوط هذه الوزارة بعد ما تبين ان له النفوذ الفعال فى مجلس النواب .. اذ استطاع بواسطته اسقاط الوزارة التى رغب فى التخلص منها .

وزارة البـــارودى

نزل الخديو على ارادة الحزب العسكرى — وفى الظاهر ارادة النواب — فاسند رياسة الوزارة الى محمود سامى البارودى .. فالفها وادخل عرابى فيها وزيرا للحربية .. ويبدو من التامل فى الكتاب الذى رفعه الى الخديو بتاليف الوزارة ان لا خلاف فى المبادىء العامة بين الوزارة الجديدة والوزارة المستقيلة ..

والخلاف الحقيقى بينهما هو فى اقرار المواد المتعلقة بالميزانية فورا .. وكان شريف يرى تاجيلها الى حين . وثمة فارق آخر فى التشكيل ، فان وزارة البارودى مؤلفة من صميم العرابيين .. وحسبك ان فيها عرابى باشا وزيرا للحربية ، وقد كانت فى ذلك الحين أهم الوزارات شأنا واعظمها نفوذا . وربما كان هذا من اهم الأسباب الحقيقية التى ادت الى تغيير الوزارة ، لان عرابى كان يطمع فى ان يتولى وزارة الجهادية بعد ان ارتقى فى عهد وزارة شريف باشا الى وكيلها ، كما كان يطمع البارودى فى رياسة الوزارة . وهكذا كان التطلع الى المناصب الوزارية — ولم يزل — من أسباب ما حل بمصر من الكوارث .

ثورة عرابي
في مرحلتها الثانية

المرحلة الثانية من الثورة

ويقيننا أن الثورة العرابية قد بدأت تسلك سبيلا بعيدا عن الحكمة من يوم أن اتفق عرابى وصحبه على اسقاط وزارة شريف باشا وبدأت بذلك مرحلتها الثانية .. مرحلة الشطط والخطل ، فان شريف باشا كان بلا نزاع اقدر من البارودى على حسن تدبير الأمور فى تلك الأوقات العصيبة ، اذ له من ماضيه السياسى وثقافته واختباره ما يجعل له كفاية ممتازة فى الاضطلاع بالمهام السياسية ، اما البارودى فقد كانت نشأته أدبية وحربية فحسب ، وعلى انه من اعلام الأدب وكبار الشعراء ، وله فى ذلك المقام الذى لا يبارى .. لكن هذه المزايا ليست هى المطلوبة لتصريف سياسة مصر ، وخاصة فى ذلك العصر المضطرب .. اضف الى ذلك أن النشأة الحربية اذا اجتمعت الى الشعر والأدب ، تثير فى النفس روح الخيال والتطلع الى أقصى مراتب المجد والعلا . ومن هنا جاءت آمال البارودى بعيدة الأفق ، لا تقف عند حد حتى بلغت التطلع الى العرش .

وقد عظم شأن عرابى بتقلده وزارة الحربية ، فانها الوزارة الوحيدة التى كانت تتطلع اليها الأنظار فى ذلك الحين .. وفيها كانت تتمثل سلطة الحكم ، وقوة الحركة الوطنية ، فاصبح عرابى الرئيس الفعلى للحكومة . وزاد من مكانته نيله بعد تقلده رتبة لواء « باشا » ، لما للالقاب والرتب من الأثر الذى لا ينكر فى نفوس العامة والخاصة . وصار له الأمر والنهى ، لا فى وزارة الحربية فحسب ، بل فى كل وزارات الحكومة . واصبح دكتاتورا محضا ، واضحت داره ملجأ لطلاب الحاجات واصحاب الشكايات .

دستور سنة ١٨٨٢

اقر مجلس النواب الدستور وصدر به المرسوم الخديوى فى ٨ فبراير سنة ١٨٨٢ وقدمه البارودى الى المجلس موقعا عليه من الخديو ، والقى لهذه المناسبة خطبة بليغة جاء فيها :

« ايها السادة النواب .. احسب نفسي سعيد الطالع بحضورى بينكم حاملا الى حضراتكم القانون الأساسى الذى سيكون ان شاء الله قاعدة لجميع اعمالكم ، ويسرنى كل السرور اننى لم احمله اليكم الا بعد يقينى انه خير أساس يمكنكم أن ترفعوا عليه من الاعمال ما يعزز شأن البلاد وينمى ثروتها ويقوى أصول العدالة فيها » ...

« الا اننى اعلم كما تعلمون أن مجرد وضع القانون على أصول الحرية وقواعد العدالة لا يكفى فى وصولنا الى الغاية المقصودة من اجتماع حضراتكم ، بل لابد أن ينضم الى ذلك خلوص النية من كل واحد منكم فى المحافظة على حدود هذا القانون ودقة النظر فى الوقوف عندها بحيث تكون جميع الاعمال والأفكار منحصرة فى دوائرها . وقد قال عقلاء السياسيين أن الوصول الى هذا النوع من الكمال ، أعنى حصر جزئيات الأعمال وكلياتها فى دائرة القانون ، انما ينال بعد العناء وطول التجارب .. لكنى لا أعد هذا صعبا عليكم ؛ فان العناية الالهية ساعدت سعد البلاد بوقوع الانتخاب على حضراتكم ، وانتم على أكمل درجات العقل والفضيلة . ولا عناء فى اتباع القانون الا على القاصرين ، وفى أملى أنكم ستحققون ما يظنه أحباء البلاد فيكم عندما تبتدئون فى الاعمال المهمة التى تهيأتم الآن لمباشرتها ، بأن تستعملوا صادق النظر للوقوف على ما فيه خير بلادكم وتوجهوا الى ذلك ماضى الهمم حتى لا يضيع الزمن الطويل فى الحصول على فائدة قليلة . وهذا لا يكون الا بتخليص الأفكار وتمحيص الطوايا من شوائب النزعات الشخصية بأن نجعل الأعمال وقفا على المصالح العمومية التى نفعها فى الحقيقة عائد عليكم وعلى أبنائكم .

« أن التفات النظر الى الخصوصيات يبعث فى القلوب محاسدات ومنافرات تحمل على الخلاف الدائم ، نعوذ بالله ، وانكم تعلمون أن الذين رقوا الى ذروة العز وأوج الشرف لم ينالوا ذلك الا باخلاصهم فى طلب النفع العام ، فاعترف العالم بفضلهم وأجلتهم القلوب فاعلتهم أعلى المنازل ، فثبتوا فى مكانتهم ما داموا بحلية الاخلاص ، وانى أهنىء نفسى بوقوفى بين عقلاء البلاد العارفين بحقوق بلادهم عليهم ، العالمين بأن شرفهم معقود بشرف أوطانهم ، الموقنين بأنهم لن يكونوا نوابا حقيقيين الا اذا أقاموا على صدقهم براهين من العمل وحججا من الثبات فى خطة الاعتدال حتى يقنع بها البعيد كما عرفها القريب » .

« وفى علم حضراتكم ايها السادة أننى عند استلامى رياسة النظار رفعت الى جناب خديوينا المعظم تقريرا بينت فيه مبادىء الهيئة الحاضرة واظنكم قرأتموه وتأملتم معانيه ، وقد تكرم على جناب الخديوى بقبوله . وانى مؤمل فيكم أن تكونوا عضدا لنا وساعدا قويا على تتميم ما قصدنا ليستقر أمر النظام وتتوفر لدينا أسباب الثروة والرفاهية ، ونحفظ الحقوق التى لنا ، وتؤدى الواجبات التى علينا ، ونوفى بجميع عهودنا لمن عاهدناه . ونكون بذلك قد أرضينا سلطاننا الأعظم الذى يسره نجاحنا وتقدمنا ، وأرضينا جميع الدول المتمدنة التى تحب أن ترانا حائزين لشرفنا حافظين لحقوقنا ، قائمين بعهودنا . وآخر ما نتواصى به الا نجعل للتعصب المشربى دخلا فى الأعمال الوطنية التى كلفتكم البلاد أن تقوموا بأدائها ، وأن تكون الوطنية الحقة هى الباعث القوى على كل فكر والغاية القصوى من كل قول وعمل ، نسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعا لما فيه رفعة أوطاننا وتقدم بلادنا وأن تتمتع البلاد ببقاء حضرة خديوينا المعظم أيده الله » .

ولما انتهى من خطبته قدم للمجلس نسخة الدستور مصدقا عليها من الخديو .

فنهض عبد السلام بك المويلحى والقى كلمة شكر للبارو
على اسراعه بالتصديق على الدستور ، ورد عليه البارودى باس
واسم زملائه بانهم لم يفعلوا الا الواجب . ثم القى سلطان ب
بلسان النواب كلمة شكر اخرى وانتهت الجلسة اذ كانت السـ
السابعة .

وبعد انفضاض الجلسة توجه النواب الى السراى الخدي
ليؤدوا للخديو واجب الشكر .. فلما مثلوا بين يديه تلقاهم بالب
والايناس ، وتقدم سلطان باشا بالنيابة عنهم وقال : « ان حضر
النواب وفدوا الى هذه الساحة الفيحاء ليقدموا للجناب الم
شكرهم وامتنانهم على ما اولاهم جنابه الكريم من النعم وما منـ
حضرته العلية لأهل القطر من التفضل والاحسان » ، ثم دعا للجنـ
الخديوى بدوام العز والاقبال وأمن جميع الحاضرين .. فو
ذلك موقع القبول لدى الخديو وشكر النواب على صنعهم الجمي
ثم جلسوا ودارت بينهم احاديث ودية .

واعرب لهم الخديو عن ميله الغريزى لمحبة الاصلاح وبذ
مساعيه لمنفعة رعيته ، وانه لا يتمسك بهم الا الخير ، ولا يريد
غير خطة التقدم والعمران . ثم نصح لهم ان يسلكوا جادة الـ
ويسيروا فى سبيل المنافع العمومية بقلوب ثابتة ونيات صادقة
متخذين الحزم مرشـــــدا والسكون والتأنى دليلا ، ووعدهم ب
مستعد لمساعدتهم فى كل ما أرادوه من الأعمال النافعة للبلاد
فخرجوا من لدنه شاكرين ، ثم قصدوا الى ديوان الداخلية وكرر
الشكر لرئيس مجلس الوزراء ، فقابلهم بالترحاب . وكان عنـ
اثناء المقابلة وزراء المالية والحقانية والخارجيـة والاشـغال ،
فقدم لهم النواب شكرهم وثناءهم وانابوا عنهم سلطان باشا
تقديم الشكر منهم للوزراء ، ثم انصرفوا فرحين مسرورين .

واخذ مجلس النواب يضطلع بمهمته فى كفاية وجهد يستحقا
التقدير والثناء . ومع انه لم يجتمع الا زمنا وجيزا لم يتجاو

ثلاثة أشهر ، فقد قام بطائفة صالحة من الأعمـال . فقد قرر الدستور .. وهذا من أهم اعماله . ووضع النظـام الداخلى للمجلس ، وتباحث فى مسائل هامة تتصل بتقدم البلاد ورفاهيتها كعلاج غلاء الأسـعار وتعميم التعليم الابتدائى ، ومنع تضـخم المعاشات . ونظر فى اقتراح قدمه نائب اسنا بانشـاء خزان أسوان واقره المجلس ، وهذا يدلك على أن نواب سنة ١٨٨٢ لم لم يفتهم التفكير فى أعظم مشروعات الرى التى تمت فى العهـد الحديث

ظهور الفتن

كانت مدة انعقاد المجلس فترة تقدم ونشاط تمتعت مصر خلالها بالهدوء والسكينة فى ظل النظام الدستورى . ولم تكد تنتهى الدورة النيابية حتى اكفهر جو الصفاء الذى ساد مصر من قبل ، واخذت الأحداث تتوالى على البلاد .. فكان انفضاض المجلس كأنه نذيرا بالإنتكاس والرجعية .. ولقـد كان محتملا لو بقى المجلس منعقدا أن يعالج هذه الأحداث بالحكمة والروية ، ولكن شاءت الاقدار والملابسات أن يضطرب الجو بعد انتهـاء الدورة البرلمانية ، فاحتملت وزارة البارودي وحدها تبعة معالجة الموقف ، وواجهت مشكلات عدة داخلية وخارجيـة ، وتفاقم الخلاف بينها وبين الخديو حتى أدى الى استقالتها .

واول الأحداث الداخلية التى انتابت البلاد بعد انفضاض مجلس النواب هو مؤامرة الضباط الشراكسـة .. وهى حادثة خطيرة كان لها تأثير كبير فى تطور الثورة العرابية ، بل فى مصير البلاد قاطبة .. وخلاصتها انه فى شهر ابريل سنة ١٨٨٢ علم عرابى من طلبة باشا عصمت قائد اللواء الأول أن بعض الضباط الشراكسة يأتمرون به ، ويدبرون الامر لقتله وقتل رؤساء الضباط الوطنيين والوزراء ، وأن بعض من صدر اليهم الأمر منهم بالسفر

الى السودان كانوا قوام هذه المؤامرة ، فعرض عرابى الأمر على الوزراء ، ثم على الخديو ، فتقرر تحقيق هذه المؤامرة فى مجلس حربى ، وتألف هذا المجلس برياسة الفريق راشد باشا حسنى .

فأخذ المجلس فى التحقيق ، وسأل من عرفت اسماؤهم من المتآمرين .. فدلوا على ثمانية عشر ضابطا مشتركين معهم فى المؤامرة . فأمر المجلس بالقبض عليهم وأخذ فى استجوابهم ، فدل هؤلاء أيضا على غيرهم ، فقبض عليهم .. حتى بلغ عدد المعتقلين نحو أربعين ضابطا ، وفى مقدمتهم عثمان باشا رفقى وزير الحربية السابق ، وخصم عرابى اللدود ، وقد سيق المقبوض عليهم الى سكنة قصر النيل ، وعوملوا بالغلظة والشدة .

واختلفت الآراء فى حقيقة هذه المؤامرة ، فقال بعض الرواة انها مؤامرة حقيقية ، كان القصد منها اغتيال رؤساء الحزب العسكرى وفى مقدمتهم عرابى . وقال البعض الآخر انها مؤامرة خيالية . قوامها فزع عرابى وخوفه على حياته ، فصدق الرواية التى خلقتها أوهام المفسدين ، وأراد الانتقام من خصومه . وقد كان عرابى لا يفتأ تساوره الهواجس من ناحية خصومه .

وفى ٣٠ أبريل سنة ١٨٨٢ أصدر المجلس حكمه فى القضية ، وهو يقضى على الأربعين ضابطا المتهمين بالنفى المؤبد الى أقاصى السودان ، مع تجريدهم من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين ، وأن يكونوا متفرقين فى الجهات التى ينفون اليها ولا تكون هذه الجهات فى مركز الحكمدارية « الخرطوم » ولا المديريات ولا السواحل . وصدر هذا الحكم أيضا على اثنين من غير العسكريين مع تجريدهما من الحقوق المدنية ، وأحيلت محاكمة خمسة غيرهما الى المحاكم الأهلية . وحكم على راتب باشا الذى عد محركا للمؤامرة بالتجريد من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين وحرمانه العودة الى مصر ، واذا عاد يقضى عليه بالنفى على النحو السابق .

وقع الحكم الى الخديو للتصديق عليه .. فرآه بالغا منتهى القسوة ، فامتنع عن اقراره ، ووقع من اجل ذلك خلاف كبير بينه وبين الوزارة ، اذ اصر على تعديل الحكم . وتمسكت الوزارة باقراره . وانتهى الأمر بأن اصدر الخديو « ارادة سنية » فى ٩ مايو سنة ١٨٨٢ بتعديل الحكم الى النفى من القطر المصرى والترخيص للمحكوم عليهم بالتوجه انى شاءوا خارج القطر مع هدم حرمانهم رتبهم ونياشينهم . وقد وقع الخديو هذه الارادة بحضور السير أدوار مالت والمسيو سنكفكس قنصلى بريطانيا وفرنسا .

على أن هذا التعديل لم يحسم الخلاف بين الخديو والوزراء ، فقد ذهب البارودى الى الخديو عقب توقيعه امر التعديل ، ولامه فى لهجة شديدة لنزوله على ارادة قناصل الدول واهماله رأى الوزراء . وطلب اليه اضافة عقوبة التجريد من الرتب العسكرية الى امر التعديل .. فاجتمع القناصل ثانية لدى الخديو عقب هذه المقابلة ، وانتهى الاجتماع باصرار الخديو على « الارادة السنية » التى اصدرها ..

فهاج ذلك سخط الوزراء ، واجتمعوا يوم ١٠ مايو اجتماعا طويلا دام ثمانى ساعات انتهوا فيه الى وجوب انعقاد مجلس النواب للنظر فى هذا الخلاف — وكانت قد فضت دورته — وبدا على اجتماعهم روح المعارضة الشديدة للخديو . فانكروا عليه حق العفو .. وصرح الخديوى من ناحيته انه لايطيق استمرار هذه الحال لأنه يراد المساس بامتيازاته . ولما طال اجتماع الوزراء قلق قناصل الدول واوجسوا خيفة من تفاقم الخلاف . وجاءوا أثناء الاجتماع وسألو عما اذا كان ثمة خطر يتهدد حياة الرعايا الأوروبيين ؟ فأجيبوا بالا شيء يتهددهم البتة ، وأبلغهم وزير الخارجية « مصطفى باشا فهمى » ، إنه بازاء استحالة الاتفاق مع الخديو .. ولأن

رئيس الوزارة لايمكن ان يستقبل فى هــــذا الظرف ، فان المجلس قرر دعوة مجلس النواب الى الانعقاد لينظر فى الخلاف القائم بين الخديو والوزراء .

وكان لهذا القرار خطورته .. لأن عرض الخلاف بين الخديو والوزارة على مجلس النواب مع اصرار الخديو على موقفه معناه التهديد بخلعه .. وهذا ما كان عرابى وصحبه يذكرونه فى احاديثهم .

ولما كانت الدعوة الى اجتماع مجلس النواب يجب ان تصدر من الخديو .. فقد اوفد الوزراء حسين باشا الدرهمللى وكيل الداخلية الى الخديو لابلاغه القرار ، ولكن الخديو رفض عقد المجلس ، فدعت الوزارة النواب الى الاجتماع بواسطة المديرين وهذا لا يعد اجتماعا قانونيا طبقا لأحكام الدستور « اللائحة الاساسية » .

ولقد لبى أكثر النواب الدعوة ، فجاءوا القاهرة .. وتعددت اجتماعاتهم الخاصة ، وكان الوزراء لا يفتأون يعقدون مجلسهم لتقرير خطتهم تجاه الخلاف المتفاقم بينهم وبين الخديو

وفى ظهر يوم ١٢ مايو سنة ١٨٨٢ اجتمعوا فى دار البارودى ومعهم بعض رؤساء الجيش .. ثم جاءهم محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب يصحبه عبد السلام بك المويلحى ، احــد النواب البارزين . ثم جاءهم بعض النواب ، وتحدثوا فى أمر الخلاف وتعددت الاجتماعات من النواب والوزراء ، وكان فريق من النواب يميل الى حسم الخلاف بالحسنى ، اذ رأوا أن استمرار الشقاق يهدد البلاد بأعظم الاخطار ..

ولم يوافق النواب عامة على عقد المجلس بصفة رسمية لعدم مشروعية الاجتماع غير العادى الا بأمر من الخديو ، كما تقضى بذلك المادة ٩ من الدستور .. وتعددت مع ذلك اجتماعاتهم غير الرسمية ، ووقف النواب من أمر هذا الخلاف موقف الاستقلال والاعتدال ، فلم يعتبروا انفسهم آلات صماء فى يد الحزب الغالب .

ولم يذعنوا لارادة المسيطرين على هذا الحزب ، بل تدبروا الأمر بوحى من ارادتهم فبرهنوا على استقلال يحمدون عليه ، وكانوا لخلفائهم مثلا صالحا فى الاضطلاع بأعباء النيابة وتقدير الامانة التى فى عهدتهم .

وقد سوى الخلاف مؤقتا بين الوزارة والخديو ببقاء الوزارة فى مركزها مع تعديل حكم المجلس العسكرى طبقا لما ارتآه الخديو .
وكان يجمل بعرابى وصحبه أن يقبلوا هذا التعديل من بادىء الأمر بغير حاجة الى ايجاد هذه الأزمة .. وكان الأنفع للبلاد ما داموا قد قبلوا التعديل فى النهاية الا يثيروا من أجله حربا بينهم وبين الخديو فى وقت كانت الأخطار تكتنف مصر فيه وتتهدد استقلالها . ولم يكن الخلاف الذى شجر بينهم وبين الخديو فى هذه الحادثة مما يستوجب عقد مجلس النواب ، لأن عقد المجلس بصفة مستعجلة ، وبغير الأوضاع القانونية ، معناه اعلان الثورة على الخديو . ولم يكن بقى من أوجه الخلاف بعد أن اتفقت وجهة نظر الفريقين على تعديل الحكم سوى تجريد الضباط المحكوم عليهم من الرتب العسكرية أو عدم تجريدهم .. والمجالس النيابية لا تعقد بصفة غير عادية من اجل خلاف صغير كهذا .

ومما يؤخذ على الزعماء أنهم خلال تلك الأزمة قد جاهروا فى اجتماعاتهم برغبتهم فى خلع الخديو وتعيين الأمير حليم باشا مكانه ، ولم يستمعوا الى نصائح المعتدلين الذين حذروهم عواقب هذا الطيش .. ولو كان على رأس الوزارة رجل أكثر حكمة وابعد نظرا فى الأمور من البارودى ، لما استفحل الخلاف بينها وبين الخديو الى هذا الحد . وهذا ما دعانا الى الاعتقاد بأن سقوط وزارة شريف باشا لم يكن من مصلحة البلاد فى شىء ، وانه بداية المرحلة الثانية للثورة العرابية ، مرحلة الخطل والشطط .

حضور الأسطولين الانجليزى والفرنسى

استفاضت الأنباء فى غضون الخلاف بين الوزارة والخديو عن اعتزام انجلترا وفرنسا ارسال أسطوليهما الى الاسكندرية ، وقد تحققت هذه الأنباء .. فقررت الدولتان على اثر ما بلغهما من اشتداد الخلاف بين الخديو والوزارة ودعوة مجلس النواب الى الاجتماع بدون أمره ، ارسال اسطوليهما الى مصر ، اذ عدتا هذه الحالة حالة ثورة تستدعى التدخل . وأفضى اللورد « جرانفيل » وزير خارجية انجلترا بهذه الفكرة يوم ١٢ مايو سنة ١٨٨٢ الى المسيو « تيسو » سفير فرنسا فى لندن ، قائلا ان الحاجة ماسة الى القيام بمظاهرة بحرية فى مياه الاسكندرية . وقد صادفت هذه الفكرة قبولا من الحكومة الفرنسية ، وسوغت الدولتان هذا العمل بأن الغرض منه حماية رعاياهما من الأخطار التى يستهدفون لها . ولم يكن ثمة خطر ولا خوف من هذه الناحية ، وانما هى حجة مصطنعة ووسيلة باطلة تستر الغرض الحقيقى ، وهو خلق الذرائع للتدخل المسلح فى شؤون مصر .

وتلك كانت المظاهرة البحرية الثانية التى قامت بها الدولتان خلال الحوادث العرابيـــة ، والأولى كانت فى شــهر أكتوبر سـنة ١٨٨١ لمناسبة حضور الوفد العثمانى الأول كما تقـدم بيانه ، والثانية كانت أشـــد خطرا من الأولى ، اذ أنها لم تكن مظاهرة فحـــسب ، بل كانت مقـــدمة لضرب الاســـكندرية وللاحتلال البريطانى .

اتفقت الدولتان على أن ترسل كلّ منهما ستة بوارج الى المياه المصرية . وجاءت الأنباء بأن الأسطولين على أهبة الحضور ، فقوبل الخبر فى مصر بالقلق والانزعاج .

كانت هذه الأنباء جديرة بتحذير العرابيين والخديو عواقب الخلاف بينهما ، لأن مجىء الأسطولين الانجليزى والفرنسى كان

تذيرا بالتدخل المسلح فى شؤون مصر .. ولكن لم يعتبر الفريقان بهذا النذير ، واستمر كل منهما يكيد للآخر ، وهكذا تغلبت الشهوات الشخصية ونزوات الرؤوس على مصالح الوطن العليا فى أشد الساعات خطرا .

أعلن زوال الخلاف ظاهرا يوم الاثنين ١٥ مايو سنة ١٨٨٢ ، فى الوقت الذى كانت البوارج الانجليزية والفرنسية تتاهب لتمخر العباب قاصدة الاسكندرية .

بدأت البوارج تصل الى مياه الاسكندرية يوم الجمعة ١٩ مايو سنة ١٨٨٢ .. ففى أصيل ذلك اليوم جاءت مدرعة انجليزية وفى صباح السبت ٢٠ منه دخلتها سفينتان أخريان ، وثلاث سفن فرنسية . وكانت السفن الانجليزية بقيادة الأميرال السير بوشان سيمور ، والفرنسية بقيادة الأميرال كونراد . ولما كان مجيئهما « بصفة ودية » فقد أطلقت المدافع تحية لقدومهما !

وبعد ظهر يوم السبت نزل الأميرالان الى البر مرتدين ملابسهما الرسمية وزارا محافظ الاسكندرية ، فرد لهما الزيارة تبعا للتقاليد المعتادة ..

وفى ٢١ مايو جاءت الاسكندرية أيضا سفينتان حربيتان يونانيتان « تأمل ! » وبارجة انجليزية أخرى قادمة من مالطة ، وفى يوم الاثنين جاءت بارجة انجليزية وتوجهت الى بورسعيد ، وفى أوائل يونيه وصلت ثلاث بوارج انجليزية أخرى الى الاسكندرية كما جاءت بارجة فرنسية وجاءت أيضا بارجة أمريكية .

مطالب انجلترا وفرنسا

لم يكد يحضر الأسطولان الانجليزى والفرنسى الى مياه الاسكندرية حتى أخذت الدولتان تخاطبان مصر بلغة التهديد والبلاغات الرسمية .. فبدأتا بطلب استقالة وزارة البارودى

وخروج عرابى من القطر المصرى . واخذ المسيو سنكفكس قنصل فرنسا العــام على عاتقه ان يسعى اول الامر الى هــذا الغرض « بطريقة ودية » ، فاتصل بزعماء العرابيين بواسطة سلطان باشا ليحملهم على قبول هذه المطالب ، من غير حاجة الى بلاغ نهائى . فعرض عليهم سلطان باشا هذه المطالب كأنها مقترحات من عنده ، فرفضوا قبولها . ومن ذلك الحين فقد سلطان باشا ثقة العرابيين، وبدأ انحيازه الى صف الخديو .

ولو ان عرابى قبل هــذه المقترحات وغادر البلاد لكان ذلك تضحية منه فى سبيل مفاداتها من التــدخل الاجنبى المسلح ، ولتركها على الأقل فى ظروف أسعد حالا واهون من رحيله منها بعد هزيمة التل الكبير .

وفى يوم الخميس ٢٥ مايو ســـنة ١٨٨٢ جاءت تعليمــات الحكومتين الى قنصليهما .. ومضمونها تقديم البلاغ النهائى الذى أعدتاه الى الوزارة المصرية ، وانتظار الجواب منها . وبعد ظهر ذلك اليوم قدم القنصلان الى البارودى بلاغ الدولتين فى شكل مذكرة « نوتة » طلبا فيها استقالة الوزارة ، وابعاد عرابى باشا من القطر المصرى مؤقتا مع حفظ رتبه ومرتباته ونياشـــينه ، واقامة عبد العال حلمى باشا وعلى فهمى باشا الديب فى الارياف بجهات لا يخرجان منها مع حفظ رتبهما ومرتباتهما ونياشينهما .

رد الوزارة

اجتمع الوزراء يوم ورود المذكرة ، وقرروا رفض مطـــالب الدولتين . ويقول البارودى انه نصح عرابى بقبولها فلم يقبل هو واخوانه ، وايد هذه الرواية احمد بك رفعت سكرتير مجلس الوزراء .. اذ قال ان البارودى أفضى اليه بانه مقتنع بقبول هذه المطالب « ولكن الجهادية لم تقتنع » فقال له احمد بك رفعت : « اقنعهم » فأجابه البارودى : « لا يمكننى ، فاننا متحالفون مع

بعض » ، وهذا يعطيك فكرة عن الحالة السياسية فى ذلك الوقت العصيب ، ويدلك على أن البارودى كان يأتمر بأوامر عرابى فى السياسة العامة ، ولو خالفت رأيه .. وليس هذا ما يجب على رئيس الوزارة أن يعمله فى ازمة خطيرة يرتبط بها كيان البلاد .

أما الخديو فقد أعلن قبول مطالب الدولتين . فاستقالت وزارة البارودى فى ٢٦ مايو سنة ١٨٨٢ احتجاجا على مطالب الدولتين وعلى قبول الخديو اياها ، فقبل الخديو استقالتها . وهاجت الخواطر وخاصة بين الضباط لأن قبول استقالة الوزارة معناه اقصاء عرابى باشا عن وزارة الحربية .

وبالرغم من استقالة الوزارة ، فان عرابى بقى على اتصال دائم بضباط الجيش لكى يضمن أن لا يقبل الجيش وزيرا للحربية سواه .. وهذا ظاهر من الخطاب الذى ارسله بتاريخ ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ الى انصاره من الضباط ، فقد أخبرهم فيه انه مع استقالته من وزارة الحربية فانه لم يستقل من رياسة الحزب الوطنى ، ويطلب اليهم أن يأتمروا بأوامره وأن يحافظوا على الأمن .

ويقول عرابى فى مذكراته انه أرسل هذه الرسالة تلغرافيا الى جميع مراكز العسكرية بعد أن قابله قناصل الدول وطلبوا اليه تأمين رعاياهم .

لم يكن من الميسور فى هذه الظروف تأليف وزارة جديدة تخالف الوزارة المستقيلة فى خطتها وتنال ثقة النواب والضباط .

ففى صباح يوم السبت ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ أى غداة استقالة الوزارة عقد الخديو فى سراى الاسماعيلية اجتماعا كبيرا برياسته ، حضره النواب والعلماء والأعيان واصحاب المناصب والرتب .. وكان من الحاضرين شريف باشا ، فكلفه الخديو تأليف وزارة جديدة ، فأبى واصر على الاباء .

اجتماع خطير

وفى غروب ذلك اليوم - ٢٧ مايو - اجتمع النواب فى دار محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، ووفد عليهم كبار العلماء .. فعقدوا اجتماعا حافلا ، ثم جاءهم عرابى وهو فى شدة الغضب ، فأخذ يخطب فيهم متهددا متوعدا كل من يناصر الخديو

وجاء جمع من كبار الضباط ، منهم عبد العال حلمى باشا وعلى فهمى باشا الديب ، ومحمد عبيد بك ، وبصحبتهم نفر غير قليل من صغار الضباط والجند فدخلوا مكان الاجتماع بشكل مظاهرة عسكرية يطلبون خلع الخديو علنا ، ويتهددون من يظهر له الولاء . وقد بلغ تهور العرابيين أشد ما يكون .. اذ ألقى عرابى خطبة ملأها طعنا فى الخديو وفى العائلة الخديوية ، ونادى بخلعه ، وختم خطبته بقوله : « من كان معنا فليقم ! » فحدثت ضجة كبيرة فى المكان ووقف الضباط .. ولكن معظم النواب والملكيين لم يقوموا ، فتهددهم الأميرالاى محمد بك عبيد بالسيف ، فظلوا جالسين . وتبين من ذلك الموقف أن النواب لا يوافقون عرابى على خلع الخديو .

ولم يكتف عرابى بذلك ، بل هدد بمحاصرة سراى الاسماعيلية التى كان الخديو مقيما بها ، وامر باحضار آلاى خليل بك كامل لهذا الغرض . وانتهى الاجتماع فى هرج ومرج دون أن يظفر بضم النواب الى صفه ، ولما رأى هو وحلبة ويعقوب سامى أن النواب لا يوافقونهم على اعلان خلع الخديو ، اكتفوا بالالحاح فى بقاء عرابى وزيرا للحربية ، فقبل سلطان باشا أن يقوم بهذه الوساطة لدى الخديو فى ذلك .. وقابل سلطان باشا الخديو فى ذلك اليوم بسراى الاسماعيلية ، وتحدث معه مليا فى شأن الخلاف وايجاد طريقة لتسويته ، ثم اجتمع بدار سلطان باشا جمع من النواب والعلماء وضباط الجيش ، وانتهوا الى الاتفاق على مقابلة الخديو

ورجاته ابقاء عرابى باشا وزيرا للحربية ، لكى لا يضطرب حبل النظام . فذهب وفد من النواب مؤلف من سلطان باشا ، وحسن باشا الشريعى ، وسليمان باشا اباظة ، الى سراى الاسماعيلية ، وقابلوا الخديو وعرضوا عليه رغبتهم فى بقاء عرابى « ناظرا للجهادية » ، وبعد اصراره على رفض طلبهم عاد فقبل رجاءهم واصدر أمرا الى عرابى باعادته الى وزارة الحربية ، هذا نصه :

« ولو انكم استعفيتم ضمن هيئة النظار التى استعفت ولكن مراعاة لحفظ الراحة والأمنية ، استصوبنا بقاءكم على نظارة الجهادية والبحرية . وأصدرنا أمرنا هذا لكم لتعلموه وتبادروا باجراء ما فيه انتظام احوال العسكرية بالطريقة الكاملة لحفظ الأمنية العمومية على الوجه المرغوب كما هو مقتضى ارادتنا » .

عاد اذن عرابى الى تقلد وزارة الحربية ورياسة الجيش والسيطرة على الحكومة . وظلت النفوس قلقة تترقب ما تتمخض عنه الحوادث ، وبقى عرابى وصحبه نافذى الكلمة فى شئون الحكومة كافة .

* * *

مذبحة الإسكندرية

موقف الدول

ظلت انجلترا مشتركة مع فرنسا فى موقفهما حيال مصر حتى حضور الأسطولين . وقد ظهر اشتراكهما فى العمل فيما وقع من الاحداث السابقة ، كوضع الرقابة الثنائية ، ثم المظاهرة البحرية الأولى التى وقعت فى اكتوبر سنة ١٨٨١ ، ثم تقديم مذكرة ٧ يناير سنة ١٨٨٢ التى ادت الى سقوط وزارة شريف ، وتقديم المذكرة الأخيرة التى ادت الى استقالة وزارة البارودى .. على أن انجلترا قد اعتزمت بعد أن قطعت هذه المرحلة التمهيدية أن تنفرد بالعمل تحقيقا لأغراضها الاستعمارية .. ولم يخف اللورد جرانفيل هذه النية عن الحكومة الفرنسية فقد أبلغ المسيو دى فريسينيه رئيس وزراء فرنسا بما يأتى : « اننا كنا سعداء بالأمس اذ شاطرنا حكومتكم رأيها حين كنا نأمل الوصول الى نتيجة مرضية ، ولكن مع الأسف ليست هذه هى الحالة الآن » .

وصرح السير ادوار مالت قنصل انجلترا العام فى مصر يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ « انه لا يعتبر نفسه مقيدا بالوسائل المنطوية على التساهل الواردة فى مذكرة ٢٥ مايو » .

وبدأت نية الانفراد بالعمل من الجانب الانجليزى بمظهر فعلى فيما بعث به اميرال الأسطول البريطانى الى حكومته يوم ٢٩ مايو سنة ١٨٨٢ ينبئها بأن المصريين ينشئون بطارية تجاه احدى بوارج الأسطول ويطلب ارسال بوارج اخرى ، فلبت الحكومة طلبه . ودل هذا العمل على نية انجلترا فى احتلال مصر .

ورأى مسيو دى فريسينيه انه يستطيع انقاذ الموقف بدعوة الدول الى عقد مؤتمر للنظر فى المسألة المصرية ، فعرض فى ٣٠ مايو سنة ١٨٨٢ على الدول الأوربية الكبرى عقد هذا المؤتمر .. فلم تتردد انجلترا فى قبول هذه الفكرة ، وبادر اللورد جرانفيل وزير خارجيتها باعلان قبولها اذ كان يعتقد أن السياسة لا يصعب عليها أن تبتدع الحوادث التى تسوغ تدخلها المنفرد فى مصر .

الوفد العثماني الثاني

في اثناء ازمة استقالة وزارة البارودي ارسل الخديو توفيق برقية الى السلطان ينبئه فيها عن هياج الضباط ، فجاءه الرد من « الباب العالي » بان السلطان باعث اليه بلجنة للنظر في المشكلة .. ففي اليوم الثاني من شهر يونيه سنة ١٨٨٢ عين مصطفى درويش باشا معتمدا عثمانيا ساميا للحضور الى مصر ، وعهد اليه برياسة وفد ارسله السلطان الى مصر لمعالجة الحالة فيها . وكان هذا جوابها على رسالة الخديو وعلى فكرة عقد مؤتمر دولي للنظر في المسالة المصرية ، فقد كان ظنها ان حضور « مندوب شاهاني » يغني عن عقد مثل هذا المؤتمر ، ويكفي لاعادة السلام والوئام في مصر . وكذلك كانت سياستها قائمة على الجهل وقصر النظر فبينما كانت انجلترا تعمل على التدخل الحربي وترسل اسطولها تمهيدا وتأييدا لهذا التدخل ، فان الحكومة التركية توهمت ان مجرد ايفادها مندوبا ساميا كدرويش باشا يعيد الامور الى نصابها في مصر ، ويحول دون تدخل انجلترا . وتوهمت ان عدم اشتراكها في المؤتمر يمنع الدول من ان تتدخل او تبرم امرا في المسالة المصرية .

كان هذا هو الوفد العثماني الثاني الذي جاء مصر في اثناء الحوادث العرابية ، والوفد الاول هو الذي حضر في شهر اكتوبر سنة ١٨٨١ برياسة علي نظامي باشا كما تقدم بيانه .

ويهمنا ان نقرر ان كلا الوفدين لم يحضر بنية خالصة نحو مصر ، بل حضر للمظاهرة وللاعلان عن سلطة تركيا في القطر المصري دون ان يعمل كلاهما اي عمل نافع في فض الخلاف بين الخديو والجيش او في انقاذ مصر من مطامع انجلترا .

جاء الوفد العثماني الثاني برياسة درويش باشا في الوقت الذي اكتمل فيه عدد البوارج الانجليزية والفرنسية في مياه

الاسكندرية .. وقد كانت رؤية هذه البوارج كافية لافهامه أن الموقف جد عصيب ، وأن حضوره بصفته مندوبا عن السلطان لا يمكن أن يؤثر فى الموقف شيئا بازاء تلك المدافع الضخمة الفاغرة افواهها ، وتلك المعدات الحربية التى تنذر بالشر والدمار ، وأن هذا الموقف لا يحله حضور مندوب عثمانى عدته المظاهر الفارغة التى يحاط بها ، ولا يهمه قبل كل شيء الا الرشا والأموال التى يتطلع اليها .

* * *

كل ما فعلته تركيا اذن تجاه حضور الاسطولين الانجليزى والفرنسي أن اوفدت درويش باشا المذكور ، ثم ارسلت قبل وصوله الى مصر تلغرافا فى ٥ يونيه بأن وزارة الخارجية البريطانية أبلغت السفارة التركية فى لندن بأن الجنود المصرية تجرى التجهيزات والترميمات فى حصون الاسكندرية على نية تهديد الأسطولين الانجليزى والفرنسى ، وان الباب العالى يطلب منعها اذا كانت جارية . ثم أردف ذلك بتلغراف آخر فى اليوم التالى يستعجل الرد .

وكان هذا البلاغ من وزارة الخارجية البريطانية بداية التحرش بالسلطات المصرية ، اذ بنى ما زعمه الأميرال سيمور من أن السلطات المصرية تحصن القلاع المواجهة للأسطول . فكان ذلك السبب المنتحل باعثا لتركيا على طلب الكف عن هذه التجهيزات . ورأى عرابى ازاء هذا الالحاح أن يأمر بالكف عنها ، وارسل الى الخديو كتابا بذلك فى ٥ يونيه سنة ١٨٨٢ خلاصته أن هذه التجهيزات انما هى ترميمات اعتيادية لا يمكن الاستغناء عنها فى أى وقت وانها لم تكن لقصد سيىء ، بل هى ضرورية لبقاء الاستحكامات الواجب حفظها وتعهدها بدوام الترميم والاصلاح .

ونوه فى النهاية الى أن استمرار وجود تلك الترميمات هو السبب الوحيد لتسكين روع الأمة المصرية وازالة القلق

والاضطراب المستولى على القلوب من وجود الاسطول الانجليزى فى المياه المصرية واجرائه حركات ومناورات حربية داخل الميناء وخارجه واخذه مقاسات اعماق المياه واقتراب السفن الانجليزية من الشواطىء امام الاستحكامات ، وان هذه الاجراءات هى التى تعتبر تهديدات حقيقية ، وهى التى هيجت افكار الامة المصرية واحدثت الاضطراب ، ومع ذلك فانه حرر بوقف الترميمات المذكورة « رجاء عودة الدونانمة الانجليزية » وقد وقفت فعلا اعمال الترميم من ذلك الحين .

وانك لترى فى موقف تركيا حيال مصر احراجا ظاهرا لها ، فان كل الدلائل تدل على نية التحرش من جانب الانجليز ، ومع ذلك فان الحكومة التركية لم تتحرك الا لتطلب من السلطات المصرية الكف عن اجراء الترميمات بالحصون . وكان هذا الطلب تأييدا ظاهرا للسياسة الانجليزية ، ولم يكن ايفاد درويش باشا فى هذا الموقف العصيب الا عملا عقيما لم تفد مصر منه شيئا .

وصل درويش باشا الى الاسكندرية يوم ٧ يونيه سنة ١٨٨٢، على ظهر اليخت السلطانى « عز الدين » يصحبه ابنه ومعه الشيخ احمد اسعد أحد المقربين الى السلطان عبد الحميد ووكيل الفراشة بالمدينة المنورة ، وبعض الضباط والمامورين .. وبلغ عدد الوفد وحاشيته ٥٨ شخصا . وقد كان كلا الفريقين يعمل على اجتذابه الى ناحيته ، وبدأ هذا التزاحم منذ وصل الوفد الى الاسكندرية ، فقد أوفد الخديو على ذو الفقار باشا السر تشريفاتى يصحبه حسن حلمى باشا من أعضاء مجلس الاحكام وطه لطفى باشا من الياوران لاستقباله على ظهر اليخت .

وارسل عرابى من ناحيته يعقوب سامى باشا وكيل وزارة الحربية ، ووقع الخلاف بين الرسولين فى اثناء المقابلة . ولكن درويش باشا استقبل كليهما بالبشاشة ، ونزل وصحبه بسراى

رأس التين . وفى اليوم التالى ركبوا قطارا خاصا اقلهم الى العاصمة ، وقد عرجوا فى الطريق على مدينة طنطا حيث زاروا مقام السيد أحمد البدوى ، يتبركون بزيارته .. ثم استأنفوا السفر الى أن بلغوا العاصمة ، ونزلوا بسراى الجزيرة التى اعدت لاقامتهم حتى تنتهى مهمتهم ، وبعد ان أخذوا راحتهم ذهبوا الى سراى الاسماعيلية فقابلهم الخديو بالترحات ورد الزيارة للمندوب العثمانى بسراى الجزيرة ، على أن الخديو لم يكتم عن درويش باشا استياءه من حسن مقابلته لمندوب عرابى ومن لهجة الخطاب حين قابله بسراى الاسماعيلية .. فتظاهر درويش باشا بأنه جاء لتثبيت سلطة الخديو .

وكانت خطة الوفد ان يتظاهر لكلا الفريقين المتخاصمين (الخديو والعرابيين) أنه معه .. فمن مظاهر تأييده للعرابيين انه طلب نحو مائتى نيشان لضباط الجيش مكافأة لهم على ولائهم واخلاصهم « للذات الشاهانية » ، وطلب لعرابى باشا النيشان المجيدى من الطبقة الأولى . فكان هذا علامة على رضاء الاستانة عنه وعن مسلكه ، على ان درويش باشا قد انتهى الى الانضمام علانية للخديو .. !

وظهر تحول درويش باشا الى جانب الخديو من نصحه لعرابى بالذهاب الى الاستانة ليقابل السلطان ، وأكد له أنه سيلقى منه كل رعاية واكرام . وقد فطن عرابى الى عواقب هذه النصيحة ، وأنه قد لا يعود من الاستانة اذا هو ذهب اليها ، فاعتذر للمشير العثمانى بان الأمة لا تسمح له بمغادرة البلاد . والنصيحة وان كانت فى ذاتها ليست صادرة عن نية حسنة ، ولكننا نعتقد أن رحيل عرابى فى تلك الآونة كان خيرا من بقائه فى مصر . ومهما تكن عواقب رحيله عنها فانها تهون الى جانب ما حل بمصر وبعرابى ذاته من الكوارث بعد ذلك .

ولكى نقدر مبلغ ما كان لحضور درويش باشا من الاثر ومبلغ عجزه من معالجة الموقف ، يكفى ان نذكر انه لم يكد يمضى على حضوره بضعة أيام حتى وقعت مذبحة الاسكندرية المشئومة وذلك فى ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ ، فكانت اعلانا رهيبا باخفاق مهمة المندوب العثمانى ، وقد حضر ضرب الاسكندرية يوم ١١ يوليه ثم انقلب الى الاستانة فى ١٩ يوليه سنة ١٨٨٢ دون ان يعمل اى عمل لمنع وقوع هذه الكوارث .

بعد استقالة البارودى

كانت الحالة فى أشد الاضطراب بعد استقالة وزارة البارودى، فالوطنيون من جهة توقعوا شرا مستطيرا من مجىء الأسطولين الانجليزى والفرنسى ، واخذوا يترقبون الحرب والقتال من ساعة الى اخرى ، والاجانب من جهة اخرى علموا ان البلاد قادمة على حرب .. فكانوا يخشون على حياتهم أن تستهدف للخطر اذا قامت الحرب المنتظرة ، فمصدر الاضطراب هو فى مجىء الاسطولين لا فى استقالة وزارة البارودى ذاتها ، لأن هذه الاستقالة ما كانت لتحدث فى البلاد حدثا لو وقعت فى ظروف عادية .

فلو انها استقالت دون ان يكون الأسطولان مرابطين فى الاسكندرية لأمكن حل الأزمة الوزارية بغير عناء كبير ، اما باعادة وزارة البارودى ذاتها ، او بتاليف وزارة اخرى تضطلع باعباء الحكم وتعمل على تهدئة الخواطر . ولكن وجود الأسطولين قد أوجد حالة غير طبيعية ، اذ كان مجيئهما مظهرا للتهديد والوعيد . فبقيت مناصب الوزارة شاغرة منذ ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ ، وتولى الخديو سلطة الحكم مؤقتا ، ثم اضطر ان يعيد عرابى باشا الى وزارة الحربية خوفا من انتفاض الجيش على الحكومة ، وبقيت الوزارات الأخرى شاغرة .

واخذ الأجانب يهاجرون من القاهرة والأقاليم الى الاسكندرية

ليكونوا تحت رعاية الأسطولين وعلى مقربة منهمـا ، فغصـت مدينة الاسكندرية بالأجانب من سكانها ومن القادمين اليهـا من الاقاليم . وكان احتشادهم فيها من الاسباب الباعثة على تفاقم الهياج ، لأن أحاديثهم كانت تدور حول اقتراب وقـوع القتـال وما يستهدفون له من غضب الأهلين اذا نشبت الحرب بل قبل نشوبها ، لأن مجرد وجود الأسطولين فى مياه الاسكندرية وتقديم بلاغ الدولتين الى الحكومة المصرية واصرارهما على اجابة مطالبهما .. كل ذلك كان رمزا لاعتداء الدولتين الاوربيتين على البـلاد واهاجة الخواطر .

مذبحة الاسكندرية

فى هذا الجو من اضطراب الخواطر وقعت الحادثة المعـروفة بمذبحة الاسكندرية .. ففى يوم الأحد ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ ، فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، وقع شجار بين أحد المالطيين من رعايا الانجليز وأحد الأهلين يدعى « السيد العجان » .. كان المالطى هو البادىء فيه بالعدوان ، فقد كان الوطنى صاحب حمار ركبه المالطى واخذ يطوف به من صبيحة النهار متنقلا من قهوة الى أخرى ، وانتهى طوافة الى حانة « خمارة » قريبة من قهـوة القزاز بالقرب من مخفر اللبان بآخر شارع « السبع بنات » .. فطالبه الوطنى بأجرة ركوبه فلم يدفع له سوى قرش صاغ واحد ، فجادله فى قلة الأجر . فما كان من المالطى الا أن أشهر سكينا طعنه بها عدة طعنات دامية مات على أثرها .

وقع هذا الحادث فى الزقاق الكائن خلف « قهوة القزاز » ، فهرع رفاق القتيل الى ذلك المكان ، يريدون أن يمسكوا بالقاتل ، ولكنه فر الى أحد المنازل المجاورة . وأخذ المالطيون واليونانيون الساكنون بالقرب من مكان الحادث يطلقون النار على الأهلين من الأبواب والنوافذ ، فسقط كثير منهم بين قتيل وجريح .. فثارت نفوس الجماهير تطلب الانتقام لمواطنيهم ، وتحركت طبقة الدهماء

للاعتداء على الاوربيين عامة ، فاخذوا يهجمون على كل من يلقونه منهم فى الطرقات او فى الدكاكين ويوسعونهم ضربا .. وكان سلاحهم فى هذه المعركة العصى والهراوات ليس غير .

والبث الدهماء فى المدينة يستنفرون الناس للقتال ، ويقتلون من يلقونه من الافرنج ضربا بالعصى والهراوات ، ونهبوا دكاكين شارع السبع بنات . وامتد الهياج من هذا الشارع الى الشارع الابراهيمى والى شارع الهماميل وشارع المحمودية وجهة الجمرك والمنشية وشارع الضبطية « راس التين » وغيرها من الشوارع التى يقطنها الأوربيون أو يمرون منها ، وقد قتل كثير منهم امام الضبطية اذ كانوا قادمين من الترسانة عائدين من زيارتهم للبوارج الانجليزية والفرنسية ، وكان الأوربيون من ناحيتهم يطلقون الرصاص من النوافذ على الأهلين ، فقتل من الجانبين خلق كثير .

***

واذ كان البادىء بالعدوان احد الرعايا « المالطيين » وقد شاهده بعض الحاضرين يلوذ بالفرار الى منزل يسكنه مواطنوه ، فقد أرسل قسم اللبان الى المستر كوكسن قنصل انجلترا لايفاد احد موظفى القنصلية لكى يخرج المعتدى من ذلك المنزل . فحضر المستر كوكسن بنفسه اثناء اشتداد الهياج ، فاصيب بضربة حجر وعصا جرح بسببها جرحا بليغا . وجرح أيضا فى ذلك اليوم قنصل اليونان وقنصل ايطاليا ، فكانت اصابة القناصل من مظاهر خطورة الحالة .

وكان عمر باشا لطفى محافظ المدينة حين بدات الحادثة يتولى رياسة قومسيون تحقيق الجمرك بدار المحافظة ، فابلغه احد موظفى الضبطية نبأ الشجار الذى وقع بين الوطنى والمالطى . وكان ذلك فى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر ، فأوفد حسين بك فهمى وكيل المحافظة الى مكان الواقعة لفض الخلاف ، ثم جاء بعد ربع ساعة

نبأ باستفحال الفتنة وتجسمها ، وأن السيد بك قنديل مأمور الضبطية مريض فى منزله . فذهب بنفسه الى جهة الواقعة بشارع السبع بنات .

وهناك ادرك خطورة الفتنة ورأى ازدحام الشارع بالمتجمهرين فطلب من اسماعيل باشا كامل قومندان الجنود بالاسكندرية ارسال المدد من الجند لوقف الهياج .. فتباطأ الاميرالاى مصطفى بك عبد الرحيم قائد الآلاى الخامس الذى كان مرابطا براس التين والقائمقام سليمان سامى داود قائد الآلاى السادس الذى كان بباب شرقى فى ارسالهما الجند ، ولم يحضروا الا فى الساعةالخامسة مساء قبل المغرب بساعة ، وحين جاء الجند فرقوا المتجمهرين بغير صعوبة ، وانتهت الفتنة فى مغرب الشمس ، فساد المدينة سكون رهيب ، اذ لزم الناس بيوتهم ، وخلت الطرقات من المارة ، وانقضى الليل والناس فى وجل وفزع .

وبلغ عدد القتلى فى هذه الحادثة ٤٩ منهم ٣٨ من الاجانب والباقون من الأهلين .

اجتماع القناصل بالاسكندرية

اجتمع القناصل مساء يوم الحادثة ، وكان من بينهم الكابتن مولينو من ضباط المدرعة الانجليزية « انفنسبل » وقد عهد اليه الأميرال سيمور ان ينوب عن المستر كوكسن فى ادارة القنصلية عقب اصابته فى الحادثة . وحضر الاجتماع محافظ المدينة ، وتداولوا فيما يجب اتخاذه لاعادة النظام وتهدئة الخواطر ، فصرح كبار ضباط الجيش بالاسكندرية انهم مكلفون بحفظ الأمن .. على الا يتدخل الأسطولان فى الامر ، فطلب القناصل من قائدى الاسطولين ان لا يتخذا تدابير ظاهرة ، ولكن بعض الزوارق الانجليزية شوهدت فى منتصف الليل قادمة من احدى بوارج الاسطول ترسو على شاطىء الميناء الشرقى .

وكان مجيئها تنفيذا لتعليمات الاميرال سيمور الذى اصدر أمره بان تخرج البارجة « سوبرب » من الميناء الغربى وترسو خارج الميناء الشرقى ، وان ترسل بعض الزوارق الى البر لنقل النساء والأطفال الى البارجة ، فاعترض الضباط على هذه الوسيلة اذ راوا فى حضور الزوارق الانجليزية الى البر ما يدعو الى هياج الجمهور والجند ، فوعد نائب القنصل البريطانى بابعاد الزوارق عن البر ، وانفض الاجتماع الأول على ذلك .

وقع النبـا فى العاصـمة

كان عرابى بالقاهرة حين وقعت الحادثة ، وقد علم بها تلغرافيا قبل الساعة الخامسة مساء ، فأسف لها اسفا عظيما .. ولما ذاعت اخبارها فى العاصمة مساء ١١ يونيه قوبلت بالاستياء والاستنكار فى الدوائر الوطنية ، لما توقعه العارفون من عواقبها الوخيمة . وكانت ضربة موجهة الى العرابيين ، لأن اقل ما تدل عليه ان زمام الأمن قد افلت من ايديهم ، وانها تتخذ حجة ضدهم على انهم غير قادرين على ضبط الأمن وصيانة الأرواح ، وبخاصة بعد أن أعيد عرابى الى وزارة الحربية وتعهد بكفالة الأمن والنظام .

وكانت هذه المذبحة نذيرا للعرابيين بأن البلاد قادمة على خطر كبير ، اذ لم يكن خافيا ان السياسة الانجليزية قد دبرت الوسائل لوقوعها تحقيقا لأغراضها فى مصر . ولكن العرابيين لم يقدروا العواقب حق قدرها . وقد اتخذ القناصل هذه الحادثة ذريعة لمخاطبة ولاة الأمور فى العاصمة بلهجة شديدة طالبين حماية الأجانب وأموالهم فى البلاد . وقررت الحكومة مساء ١١ يونيه ايفاد لجنة الى الاسكندرية للنظر فى أمر تلك الحادثة والكشف عن اسبابها والتحقيق مع المتهمين فيها .

وعقد الخديو اجتماعا فى سراى عابدين صبيحة يوم الاثنين ١٢ يونيه ،حضره محمد شريف باشا ودرويش باشا المندوب

العثمانى وقناصل فرنسا وانجلترا والنمسا والمانيا وايطاليا والروسيا الذين جاءوا يطلبون تأمين رعاياهم على ارواحهم واموالهم .. فجرت المباحثة فى هذا الاجتماع فيما يجب اتخاذه حيال حوادث الاسكندرية ، فاستقر الرأى على اعطاء وكلاء الدول السياسيين الضمانات الوثيقة التى تكفل اعادة الأمن الى نصابه ، وصيانة ارواح الاجانب وأموالهم .

ومن اهم هذه الضمانات امتثال عرابى باشا لاوامر الخديو ، فدعى عرابى الى حضور الاجتماع ، وخوطب فى الأمر فأجاب بالقبول ، وزاد أن تعهد للمجتمعين بمنع ما من شأنه اثارة الخواطر، كالاجتماعات العامة وانعقاد الجمعيات والقاء الخطب ونشر المقالات المهيجة ، وأبان ان فى مقدوره بمساعدة جنوده تأييد الأمن واقرار الراحة والطمانينة ، وتعهد الخديو باصدار الأوامر الكفيلة بتهدئة الخواطر . وقال درويش باشا انه يأخذ على عاتقه تنفيذ الأوامر الخديوية بأن يشترك مع عرابى فى انفاذها ويشاركه المسئولية فى هذا الصدد ، فاكتفى وكلاء الدول ظاهرا بهذه العهود ، وانفض الاجتماع .

وانفاذا لهذه العهود أصدر الخديو امرا الى عرابى باشا بالتنبيه على قواد الجيش وضباطه بالقاهرة والاسكندرية والاقاليم بزيادة الدقة والسهر على الأمن العام .

واصدر الخديو أمرا بهذا المعنى الى المحافظين والمديرين ، ونشر عرابى فى ذلك اليوم اعلانا بدعوة الجمهور الى الاخلاد الى السكينة والطمانينة . واذاع امرا آخر وجهه الى قواد الجيش وضباطه وغيرهم يدعوهم الى بذل أقصى جهودهم لاقرار الأمن والراحة والنظام . وزادت الحكومة قوات الجيش فى الاسكندرية لتكون كافية لقمع كل فتنة تحصل بين الاجانب والاهليين ، فانفذت اليها الالاى الثانى والالاى الرابع وعهدت بقيادتهما الى طلبة باشا

عصمت الذى صار منذ ذلك الحين قومندانا عاما لقوات الجيش فى الثغر .

نزوح الاجانب عن البلاد

وكانت الانباء التى يتناقلها الأجانب مجمعة على ان الحرب لا محالة ناشبة فى مصر .. وكانوا يتوقعون من آن لآخر أن تطلق البوارج الانجليزية والفرنسية قنابلها على المدينة ، وان قوات الدولتين لا تلبث ان تهاجم البلاد ، وفى هذه الحالة لا يامنون على انفسهم اذا نشبت الحرب ان يستهدفوا لانتقام الاهلين .. ومن هنا جاءت فكرة نزوح الاجانب عن البلاد ، فأخذ القاطنون منهم بالاسكندرية يهاجرون منها بحرا ، والأجانب فى القاهرة والأقاليم يفدون الى الاسكندرية للاقلاع منها الى الخارج ، وبدأ رحيل الأوربيين عن البلاد فى اليوم التالى لمذبحة الاسكندرية ، وكثرت جموعهم النازحة فى الايام التالية . ونزل المهاجرون منهم الى السفن التى كانت راسية فى الميناء ينتظرون أن تقلع بهم .

وبلغ عدد الراحلين منهم يوم ١٢ يونيه سنة ١٨٨٢ أكثر من عشرة آلاف مهاجر نزلوا الى البحر متفرقين فى البواخر والسفن الشراعية ، ولم تعارض ادارة جوازات السفر ولا الجمارك احدا منهم فى النزول الى البحر، فكثرت جموع المهاجرين يحملون اموالهم وأمتعتهم ، وامتلأ الميناء بالسفن المقلة لهم ، وظلت الهجرة مستمرة فى الأيام التالية حتى بلغ عدد الراحلين لغاية يوم ١٨ يونيه ٣٢,٠٠٠ مهاجر وبلغ عددهم ستين الفا قبيل ضرب الاسكندرية ، فكان هذا السيل المتدفق نذيرا بما يتمخض عنه الجو من الأحداث الجسيمة .

ومما ساعد على تعاظم سيل الهجرة ان قناصل الدول رغبوا الى رعاياهم الرحيل عن البلاد ، وافضوا اليهم بانهم يتوقعون حوادث أشد هولا من مذبحة ١١ يونيه ، وأن الحرب وشيكة الوقوع ، فسارعوا الى الهجرة . واعدت كل دولة سفنا لنقل

رعاياها ، فهرع الفقراء والمعوزون الى النزول اليها ، واخذ الموسرون منهم اماكنهم فى البواخر المعتادة ، وتسلل الاوربيون من كل ناحية فى القطر المصرى قاصدين الميناء ، حتى خيل لمن يرى جموعهم الراحلة أنه لم يبق منهم فى البلاد الا نفر قليل .

وزاد الناس شعورا بخطر الموقف انتقال الخديو فجاة من العاصمة الى الاسكندرية ، فقد اعتزم السفر اليها عقب حادثة ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ ، وحجته تهدئة الخواطر فيها ، وسافر اليها يوم الثلاثاء ١٣ يونيه ، وودعه على المحطة عرابى باشا وزير الحربية ، وقبل ان يتحرك القطار عهد الى عرابى مراقبة احوال القاهرة والسهر على الأمن العام فيها واتخاذ الاحتياطات الكفيلة بمنع وقوع اى حادث ، وصحبه فى سفره درويش باشا المندوب العثمانى .

من المسئول عن المذبحة ؟

لا شك ان حضور الأسطولين الانجليزى والفرنسى هو السبب الاول لحوادث ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ ، فقد هاج حضورهما الخواطر واوغر صدور المصريين على الاوربيين عامة لما فى مجيئهما من معنى التحدى والعدوان ، كما انه اغرى الأوربيين بالوطنيين لشعورهم بان الأسطولين انما جاءا لحمايتهم ولاذلال المصريين .

كتب الشيخ محمد عبده (الاستاذ الأمام) فى هذا الصدد يقول :

« ان الحكومة الانجليزية على عادتها فى اختلاق العلل وارتجال المساءات قلبت وجوه المسائل ، واستدبرت طالع الحق ،واستقبلت وجه مطمعها ، واتخذت مجرد التغيير فى بعض نظامات الحكومة الخديوية سببا للمناواة ، واندفعت لتسيير مراكبها الى مياه الاسكندرية تهديدا لحكومة الخديو وعدوانا عليه ، ثم نفخ بعض

رجالها فى انوف ضعفة العقول من الاجانب المقيمين بالثغر حتى أوقدوا فتنة هلك فيها المساكين قضاء لشهوة انجليزية ، واقامت منها حكومة انجلترا حجة فى العدوان على الأراضى الخديوية ، ولو أن بصيرا نظر الى احوال القطر المصرى بعين صحيحة من مرض الغرض لعلم ان بداءة الخلل فى ذلك القطر من يوم ورود المراكب الانجليزية لثغر الاسكندرية ، ولا نسبة بين ما كان من قبل ذلك من عموم الأمن ورواج الاعمال وانتظام المصالح وبين ما كان بعده » .

فالمسئولية العامة تقع على كاهل السياسية البريطانية والفرنسية . اما المسئولية الخاصة فى وقوع المذبحة بالذات فتستطيع أن تتبينها من ان أول من اشعل الفتنة مالطى من رعايا بريطانيا وأخ لخادم القنصل البريطانى ، ولا يمكن ان يكون هذا من قبيل المصادفات ، والسياسة البريطانية هى التى استغلت الحادثة وهولت فيها وجسمتها لتتذرع بها الى التدخل المسلح فى شئون البلاد ، وقد وصفها المسيو فريسينيه رئيس وزارة فرنسا فى ذلك الحين وصفا لا مبالغة فيه ولا تهويل ، اذ قال بأنها من الحوادث العارضة التى تقع أحيانا فى الثغور التى يسكنها مدة اجناس ، وشبهها بالفتنة التى حصلت قبل عام فى مرسيليا بين العمال الايطاليين والفرنسيين .

وزارة اسماعيل راغب باشا

بقيت البلاد بلا وزارة منذ استقالة البارودى اى من ٢٧ مايو .. فلما وقعت حوادث ١١ يونيه اتجهت الأنظار الى وجوب تاليف وزارة تضطلع بأعباء الحكم وتضع حدا للفوضى التى استهدفت لها البلاد .

وكان الخديو قد بارح القاهرة ووصل الى الاسكندرية عقب مذبحة ١١ يونيه كما أسلفنا ، فسعى قنصلا المانيا والنمسا لديه باتفاقهما مع مندوب تركيا للتقريب بين الخديو وعرابى وترغيبه فى تاليف وزارة جديدة يبقى فيها عرابى وزيرا للحربية . فاخذ

الخديو يستشير بعض رجال الدولة فى أمر تأليف الوزارة الجديدة. فاستدعى شريف باشا ثم مصطفى فهمى باشا ثم عمر لطفى باشا وغيرهم ، وكلف كلا منهم بتأليف الوزارة . فأبوا جميعا لما كان بينهم وبين عرابى من الجفاء . وتدخل قنصلا المانيا والنمسا ومندوب تركيا من جديد ، واتصلوا بعرابى وتفاوضوا معه فى هذا الشأن ، واستقر رأيهم بعد استطلاع رأيه على النصح للخديو باختيار اسماعيل راغب باشا لتشكيل الوزارة . وعلى ذلك الف راغب باشا الوزارة وفيها عرابى وزيرا للحربية كما كان .

ولو حسنت نيات انجلترا لأمكن لوزارة راغب باشا ان تعيد الأمور الى نصابها وتزيل الآثار السيئة التى نجمت عن حوادث ١١ يونيه ، فان هذه الحوادث قد وقع مثلها فى بعض ثغور البلاد الأوربية دون أن يترتب عليه سلب استقلالها وانتهاك حقوقها . ولكن انجلترا دبرت مذبحة الاسكندرية.ابت الا أن تستغلها دون نزاهةو لا هوادة حتى تصل الى احتلال مصر . وكان من تدابيرها الا تمكن وزارة راغب باشا من تهدئة الخواطر واقرار الأمن فى نصابه ..

واغلب الظن انها لم تكن تبغى تأليف الوزارة لكى تبدو البلاد فى حالة غير عادية وتتخذ من ذلك ذريعة الى التدخل فى شؤون البلاد .. فلما تألفت قابلتها السياسة الانجليزية بالجفاء وعدم الثقة والغض من قدرتها على اعادة الأمن الى نصابه ، واخذت تخلق لها العقبات والعراقيل . وبارح السير أدوار ماليت قنصل بريطانيا العام الاسكندرية يوم ٢٧ يونيه وأناب عنه المستر كارترايت الذى شهد ضرب الاسكندرية . وغادر المدينة أيضا المستر كوكسن القنصل البريطانى . واوعزت الحكومة البريطانية الى السير أوكلن كولفن الرقيب المالى الانجليزى بالامتناع عن حضور جلسات مجلس الوزراء . وهذه علائم ونذر تنبىء عما كانت تبيته السياسة الانجليزية من اثارة الحرب والقتال .

ميثاق النزاهة

مؤتمر الآستانة

دعا المسيو دى فريسينيه رئيس الوزارة الفرنسية الدول الأوربية الكبرى الى عقد مؤتمر للنظر فى المسالة المصرية ، فلبى هذه الدعوة كل من انجلترا والمانيا والروسيا وايطاليا والنمسا .. اما تركيا فانها رفضت الفكرة بحجة أن ايفاد مندوبها درويش باشا الى مصر كاف لحل مشكلتها ! وقد اعتزمت ايفاده الى مصر فى الوقت الذى علمت فيه باقتراح عقد المؤتمر ، اى انها عارضت المؤتمر بارسال مندوب سام الى مصر واتخذت من ارساله وسيلة لرفض عقد المؤتمر ، واحتجت أيضا بأن الأحوال فى مصر لا تستدعى عقد مؤتمر بعد تاليف وزارة راغب باشا واضطلاعها باعباء الحكم واعادتها الأمن الى نصابه ، فلم يبق شىء يمكن أن يتفاوض فيه المؤتمر .

وقد ابلغ وزير خارجية تركيا سفراء الدول الأوربية بالاستانة هـذا القرار ، ولكن الدول لم تعبـأ به واعتزمت عقـد المؤتمر . وبقيت تركيا على امتناعها ورفضت الاشـتراك فيـه حتى ضرب الاسكندرية ، فكان من المهازل السياسية ان يجتمع مؤتمر دولى فى الاستانة للنظر فى المسالة المصرية دون أن تشترك فيه حكومة الاستانة ذاتها ، ودون أن تشترك فيه مصر ، وكان واجبا على كلتيهما أن تشترك فيه .

وليس هذا المظهر وحده هو الذى يدل على اضطراب السياسة العثمانية فى المسالة المصرية ، بل أن مسلكهـا كله كان مجموعة متناقضات واضطرابات .. فبينما كانت تتظاهر بتأييد سلطة الخديو اذا بالسلطان عبد الحميد يعلن عطفه على عرابى ويمنحه نيشانا رفيع الشان ، ثم اذا جد الجد ونشبت الحرب بينه وبين الانجليز طعنه فى الصميم باعلانه عصيانه . فكان هذا الاعلان من أكبر أسباب هزيمته وخذلانه . فهذا التناقض والاضطراب . مضافا

اليه قصر نظر تركيا وسوء نيتها نحو مصر . ورغبتها فى انقاص استقلالها . ثم ما جلبت عليه من الدس والوقيعة ، وتأثر وزرائها بالمال والرشا . جعل من السياسة التركية عامل فساد استخدمته بريطانيا لتحقيق اطماعها فى مصر .

اجتمع المؤتمر بدار السفارة الايطالية فى « ترابيا » بضواحى الاستانة على شاطىء البوسفور يوم ٢٣ يونيه سنة ١٨٨٢ وكان اعضاؤه سفراء الدول العظمى الست بريطانيا وفرنسا والمانيا والنمسا والروسيا وايطاليا ، والسفير البريطانى هو اللورد دفرين .

ميثـــاق النزاهة

ثم اجتمع للمرة الثانية يوم ٢٥ يونيه ، وقبل البدء فى مداولاته ابرام العهد المشهور بميثاق النزاهة ،

Protocole de Désinteressement

وقد وضعه المسيو دى فريسينيه فى ١٦ يوليه وعرضه على اللورد جرانفيل فقبله ، وهذا نصه :

« تتعهد الحكومات التى يوقع مندوبوها على هذا القرار بانها فى كل اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث عن احتلال اى جزء من اراضى مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها ولا على نيل امتياز تجارى لرعاياها لا يخول لرعايا الحكومات الأخرى » .

وقد وقع عليه اعضاء المؤتمر جميعا ..

هذا هو العهد الذى ارتبطت به الدول وفى مقدمتها انجلترا فى مؤتمر الاستانة .. ولكن انجلترا حين ابرمته كانت تنوى نقضه ، كما نقضت سائر عهودها فى المسألة المصرية . والدليل القاطع على ذلك انها فى الوقت الذى ابرمته ـ ٢٥ يونيه سنة ١٨٨٢ ـ كانت تعد معدات الحرب والقتال وتجهز جيشها لاحتلال

مصر . ولم يمض على هذا العهد ستة عشر يوما حتى ضرب اسطولها مدينة الاسكندرية بمدافعه يوم ١١ يوليه .

واجتمع المؤتمر فى جلسته الثالثة يوم ٢٧ يونيه ، وأخذ أعضاؤه يتداولون فى المسألة المصرية ، وأخذ اللورد دفرين يلقى بيانه عن الحالة فى مصر ، ذهب فيه الى ان الفوضى قد تمكنت من مصر من جراء ثورة الجيش وانتقاضه على الخديو ، وان هذه الفوضى قد ادت الى اختلال الادارة وارتباك الاحوال ووقوف حركة التجارة وفقدان الثقة وعجز الاهلين عن سداد الضرائب وعجز الحكومة عن الوفاء بتعهداتها المالية حيال الدائنين الأجانب ، ثم تعريض حياة الأوربيين للخطر .

ويؤخذ من بيان اللورد دفرين أن انجلترا كانت تقصد من الاشتراك فى المؤتمر اعلان أن الحالة فى مصر تستدعى التدخل فى شؤونها ، وأن هذا التدخل يجب أن يكون حربيا لقمع الثورة واعادة سلطة الخديو . وكانت ترمى الى أن يكون هذا التدخل انجليزيا .. ولكنها تظاهرت على لسان اللورد دفرين بأنها تبغى ان يكون تركيا ، وهى عالمة بأن الحكومة التركية بلغت من الضعف والتردد بحيث لا تقدم على هذه المهمة . ولو انها تدخلت بجيشها لكان من المحتمل ان يكون ذلك انقاذا للموقف وتفاديا من الاحتلال ، لأن الدول الأوربية ما كانت لتقبل بقاء جيش عثمانى فى مصر الى ما شاء الله . وفى الحق أن الحالة لم تكن تستدعى أرسال جيش عثمانى أو غير عثمانى ، فان وزارة راغب باشا كانت تستطيع اعادة الامن والنظام الى نصابه لو لم تبادرها السياسة الانجليزية بالعقبات والعراقيل .

كانت انجلترا واثقة من جمود السياسة التركية وضعفها ، مطمئنة الى انقسام الدول الأوربية فى الرأى وعدم اتخاذها قرارا معينا فى المسألة المصرية .. فانتهزت هذه الفرصة واخذت قبل

انعقاد المؤتمر وخلال انعقاده تعد معدات الحرب والقتال لتنتهك بأسطولها وجيشها حرمة العهود والمواثيق ، وتحتل مصر تحت سمع المؤتمر وبصره .

وقد بدت منها نية الخداع جلية فى مفاوضاتها بالمؤتمر ، فقد اقترح السفير الايطالى على الأعضاء بجلسة ٢٧ يونيه أن تقرر الدول الامتناع عن التدخل المنفرد فى مصر ما دام المؤتمر منعقدا ، ولو كانت انجلترا حسنة النية لوافق مندوبها على هذا القرار ، ولكن الواقع كما اسلفنا انها كانت تجهز معدات لاحتلال مصر ، فأخذ اللورد دفرين يلح فى ضرورة وضع تحفظ لهذا القرار حتى قرر المؤتمر اضافته وهو « فيما عدا الأحوال القهرية » ، فنم بذلك على ما كانت تضمره انجلترا من مخادعة المؤتمر ، وما كانت تبيته من نيه الشر والعدوان ، ونقض العهد والميثاق ، وقد اطمأنت بعد وضع هذا التحفظ ، وتركت المؤتمر يجتمع ويقرر ما يشاء ، اذ كانت هذه الكلمة كافية لتجعل قراراته عديمة القيمة .

* * *

ومن الغريب أن المركيز دى نواى سفير فرنسا قد ايد اللورد دفرين فى اقتراحه اضافة هذه الحاشية ، فدل بذلك على مبلغ تخبط السياسة الفرنسية فى ذلك الحين . وقد اغتبط اللورد دفرين لهذه الاضافة وأرسل فى اليوم التالى الى اللورد جرانفيل رسالة يقول فيها : « اننا فى الواقع منذ أن تم تعديل اقتراح السفير الايطالى هذا التعديل الهام لم نعد نعتبر للاقتراح قيمة كبيرة » .

قرر المؤتمر فى جلسته الثالثة وجوب التدخل فى مصر لاخماد الثورة ، وان يعهد الى تركيا بهذه المهمة بأن ترسل الى مصر قوة كافية من الجند لاعادة الأمن والنظام اليها ! واخذ يتداول فى الجلسات التالية فى شروط هذا التدخل وحدوده ، واستفادت انجلترا من هذا البطء لاتمام تدابيرها وانفاذ خطتها فى تدخلها

المنفرد » ووضع المؤتمر في جلسته السابعة - يوم ٦ يوليه سنة ١٨٨٢ - قواعد هذا التدخل وهى : ان يحترم الجيش الذى ترسله تركيا مركز مصر وامتيازاتها التى نالتها بموجب الفرمانات والمعاهدات ، وان يخمد الثورة العسكرية ويعيد الى الخديو سلطته ، وان يشرع في اصلاح النظم العسكرية في مصر ، وان تكون مدة بقائه في مصر ثلاثة اشهر الا اذا طلب الخديو مدها الى المدة التى تتفق عليها الحكومة المصرية مع تركيا والدول الاوربية العظمى ، ويعين قواد هذا الجيش بالاتفاق مع الخديو ، وتكون نفقاته على حساب مصر ويعين مقدارها بالاتفاق مع مصر وتركيا والدول الست العظمى الأوربية .

وقد صدر هذا القرار على أن يعرض على الحكومة التركية والحكومات الأوربية الست التى لها ممثلون فى المؤتمر ، وارسل نص القرار الى هذه الدول فاقرته ، ووافقت على تقديمه الى الحكومة التركية . فارسل اليها ولكنها لم تقره ، ووقفت موقف الاحجام والتردد ، شأن السياسة التركية فى ذلك العهد . واعتمدت فى رفضها التدخل على تقارير دوريش باشا الذى يقول فيها انه ليس فى مصر ما يوجب تدخلها . وقد وافقت انجلترا على دعوة تركيا الى التدخل فى هذا الوقت الذى كانت تعد فيه معدات القتال لتتدخل هى بمفردها ، ذلك لأنها كانت مطمئنة الى بطء السياسة التركية وترددها ، وانها تستطيع خلق (الحالة القهرية) التى نوه اليها اللورد دفرين ، فتتذرع بها الى التدخل الحربى من جانبها ، ضاربة صفحا عن قرار المؤتمر . وقد انفذت خطتها ، اذ ضرب الأسطول الانجليزى مدينة الاسكندرية يوم ١١ يوليه قبل أن تتقدم الدول الى تركيا بقرار المؤتمر وقبل أن يتبين موقف تركيا حيال هذا القرار .

اما التدخل فى ذاته فلم يكن ثمة موجب له لأن الحالة فى مصر كانت طبيعية بعد تاليف وزارة راغب باشا .. ومن الوقائع الثابتة

ان انجلترا اخذت تجهز معدات القتال قبل انعقاد المؤتمر ، فقد اصدرت وزارة البحرية الانجليزية فى ١٥ يونيه تعليماتها الى بواخر النقل بالاستعداد للسفر الى مصر مقلة كتائب الجنود فى ذلك الحين لارسالها الى الديار المصرية .

وقد كانت آخر جلسة عقدها المؤتمر قبل ضرب الاسكندرية وهى الجلسة السابعة — يوم ٦ يوليه ، فلما وقع الضرب ظهر أن المؤتمر لم يكن الا مهزلة اتخذتها انجلترا وسيلة لشغل الناس مما تضمره من نياتها العدائية ، واجتمع المؤتمر مع ذلك بعد الضرب يوم ١٥ يوليه ، واخذ يستأنف النظر فى تدخل تركيا الحربى !

عرابى والمؤتمر

استمر المؤتمر كما اسلفنا يعقد جلســاته على غير طائل ، وانجلترا تعد المعدات للقتال .. وقد كان انعقاده مدعاة الى اعتقاد عرابى وصحبه ان المسالة المصرية ستحل بطريق المفاوضات بين الدول ، وان انعقاد المؤتمر مانع من انفراد انجلترا أو غيرها من الدول من التدخل الحربى فى مصر . وكان هذا افراقا منهم فى حسن الظن أو الجهل بما تنويه انجلترا ..

وفى الحق أن العرابيين كان ينقصهم الحصافة فى الراى وبعد النظر الســياسى ، واغلب الظن انهــم كانوا لا يعرفون الموقف السياسى على حقيقته ، وكانوا يعتمدون على ما يتلقونه من بعض الافراد الأوربيين من الأوهام والأخبار الملفقة . ولم يكن لديهم قلم اخبار فى مصر ولا فى الخارج يطلعهم على حقيقة الأحوال السياسية وتطوراتها .

هذا فضلا عما اشتهروا به من الغرور والخيلاء ، اذ كانوا يتوهمون انهم قادرون على دفع اعتداء الانجليز او أية دولة اخرى دون اى استعداد حدى للحرب . ولم يكونوا يقدرون قوة أعدائهم،

ولا قوتهم هم أنفسهم ، فبينما كان الانجليز يستعدون للحرب والقتال ويحشدون جنودهم في انجلترا ومالطة والهند ويستطلعون قوة العرابيين ويقفون على حقيقة معداتهم ، كان العرابيون لايعرفون شيئا عن معدات الانجليز .. بل كانوا يتوهمون انهم لا يجرؤون على اعلان الحرب والقتال أو النزول الى البر . وكذلك كان شان وزارة راغب باشا عامة فانها كانت لا تزيد كثيرا عن مستوى العرابيين فى العلم والمعرفة ، وكان عرابى هو الآمر المتسلط عليها اذ كان وزير الحربية والبحرية فيها .

***

ومما ساعد العرابيين على التمادى فى غرورهم رؤيتهم الأسطول الانجليزى راسيا فى مياه الاسكندرية دون أن تنشب الحرب أو يتحفز للضرب ، فخيل الوهم لهم أن مجيئه لم يكن الا من قبيل التهديد والوعيد ، وانه لا يجرؤ على انزال الجنود الى البر ، واتخذوا من موقف السكوت الذى لزمه يوم مذبحة الاسكندرية دليلا على انه لا قبل له بالحرب والقتال ..

ولكن الواقع أن الانجليز كانوا ينتظرون أن يهيئوا الجو فى أوربا لقبول تدخلهم الحربى .. فدبروا مذبحة الاسكندرية حتى يظهروا الحالة فى مصر بأنها حالة فوضى واضطراب ونهب وقتل لا يؤمن معها على حياة الأجانب ، وانها تستدعى تدخل الدول لوضع حد لهذه الفوضى ، ثم اشتركوا والدول فى عقد مؤتمر الاستانة للمفاوضة فى ايجاد علاج لهذه الحالة الخطير .. وهيأوا الأفكار فى أوربا لضرورة التدخل لقمع الثورة فى مصر ..

فلم يكن انتظارهم هذه المدة ــ ولم تكن فى ذاتها طويلة ــ الا لاحكام خطتهم واتمام تجهيزاتهم الحربية ، ثم لتمكين الجاليات الأوربية من الهجرة قبل أن تضرب انجلترا ضربتها فى مصر، لكى يكون عدوانها مقرونا بعطف الأوربيين المهاجرين .. وتكون فى احتلالها كأنها نائبة عنهم وعن الدول الأوربية جميعا . كل ذلك والعرابيون

غارقون فى أحلامهم معتقدون أن الحرب بعيدة الوقوع ، ولذلك لم يبد منهم اى عمل يدل على الاستعداد لخوض غمار القتال .

وكانت أحاديث العرابيين دائرة حول ما يتسقطونه من أخبار المؤتمر ، وما تلوكه السنتهم من أن الأزمة ستحل قريبا بطريق السلم ، وانها ستنتهى بخلع الخديو توفيق وتعيين الأمير حليم باشا مكانه .. وهذا كل ما كان يشغل بالهم ويستحوذ على أفكارهم فى ذلك الوقت العصيب ، أما الاستعداد للحرب والتهيؤ للقتال فلم يفكروا فيه تفكيرا جديا الا فى اللحظة الأخيرة بعد أن ضاع الوقت وسبق السيف العذل .

* * *

ضرب الإسكندرية

ضرب الاسكندرية

كانت انجلترا تستعد للحرب قبل انعقاد مؤتمر الاستانة وخلال اجتماعه وقبل أن يقر قراره بدعوة تركيا الى ارسال جيش لها الى مصر .. واخـــذت تدبر الأســـباب والذرائع للتعجيل بضرب الاسكندرية ، لكي تضع المؤتمر امام الأمر الواقع .

فاوعزت الى الاميرال سيمور قائد الأسطول البريطاني أن يخلق اية وسيلة للتحرش بمصر لاثارة الحرب عليها ، اى انها اخذت تخلق « الحالة القهرية » التى أشار اليها اللورد دفرين فى مؤتمر الاستانة واشترط اضافتها الى قرار الامتناع عن التدخل المنفرد فى مصر ، فاخـذ الاميرال يتأهب للعـدوان ، وكان يستعين برأى الجاليـة البريطانية فى خلق أســـبابه ، ووجد على الأخص من السير أوكلن كولفن الرقيب المالى الانجليزى عونا كبيرا له فى ذلك .. اذ كان من أشد غلاة الاستعمار ومن الداعين الى احتلال مصر . وكان بعـد رحيل السير ادوار مالت الممثل الفعلى لبريطانيا فى مصر ، فلا غرو ان كان على اتصال دائم بالأسطول .

ولم يكن أسهل على القوة الغشوم من أن تخترع الوسيلة لاثارة القتال .. فقد ارسل الاميرال سيمور فى أول يوليه سنة ١٨٨٢ الى مجلس الاميرالية الامبراطورية ينبئها انه اكتشف بعض ترميمات يقوم بها المصريون فى حصون الاسكندرية ، وانهم يركبون بطاريات جديدة تجاه بوارجه ، وان الاستعدادات الحربية قائمة فى البلاد ، وان عرابى معتزم سد بوغاز الاسكندرية لحصر البوارج الانجليزية التى كانت راسية فى الميناء .

وبديهى ان هذا الاكتشاف انما كان وسيلة مختلقة لتسويغ الشر والاعتداء ، فان اية ترميمات تجرى فى الحصون لا يمكن أن تكون وسيلة مشروعة لاثارة الحرب والقتال ، اذ كل دولة حرة فى أن تقوى معدات الدفاع فى بلادها ، بل واجب عليها أن تفعل ذلك فى كل وقت .. وخاصـــة فى مثل تلك الظروف العصيبة التى كانت

تجتازها مصر ، فان مجرد حضور الاسطول البريطانى فيه معنى التهديد بالتدخل المسلح ، على أنه لم يكن ثمة ترميمات جدية تخيف الأسطول الانجليزى وتشغل باله .

وقد أجابت الاميرالية الانجليزية فى ٣ يوليه على برقية الاميرال سيمور بأن يمنع كل محاولة لسد بوغاز الاسكندرية ، ورخصت له بأن يطلب وقف الأعمال الجارية فى الحصون ، وفى حالة الرفض فليدمرها بمدافعه .

وتدل الدلائل والبينات على أن الحكومة البريطانية كانت مبيتة نيتها على ضرب الاسكندرية واحتلال البلاد مهما كانت الأسباب والملابسات ، وذلك قبل اختلاق حكايتهم ترميم الحصون ، وانا ذاكرون هذه الشواهد فيما يلى :

أولا — فى ٢٢ يونيه سنة ١٨٨٢ عرض سفير انجلترا فى باريس على الحكومة الفرنسية الاشتراك فى اتخاذ وسائل عاجلة بقصد حماية قناة السويس ، فأجابه المسيو دى فريسينيه رئيس وزارة فرنسا أن لا خطر مطلقا يتهدد القناة وأن شركة القناة ذاتها لا تخشى من شىء سوى تلك الحماية التى يراد فرضها عليها لأن احتلال القناة قد يؤدى الى قطع ترعة الاسماعيلية واستهداف القناة البحرية ذاتها لأعمال عدائية ، وختم دى فريسينيه جوابه بأن احتلالها عمل لا مسوغ له .

ثانيا — يقول المستر بلنت أن وزارتى الحربية والبحرية فى انجلترا عقدتا النية منذ أوائل سنة ١٨٨٢ على مهاجمة مصر من ناحية قناة السويس وشاهد بنفسه الاستعدادات الحربية فى انجلترا فى شهر يونيه سنة ١٨٨٢ ، وكان يعتقد أن الغرض منها تقوية مركز انجلترا فى مؤتمر الاستانة ، ولكن تبين له فيما بعد أن الغرض منها مهاجمة مصر .

ثالثا — موقف انجلترا فى مؤتمر الاستانة واصرار اللورد دفرين على وجوب التدخل الحربى فى شؤون مصر لقمع الثورة ، واضافته

كلملة « الحالة القهرية » الى قرار الامتناع عن التدخل المنفرد كما تقدم بيانه ، كل ذلك يدل على ما كانت تضمره من التدخل بمفردها.

رابعا ــ منذ أن جاء الأسطول البريطانى فى مايو تعاقد مع تجار الأطعمة على توريد المؤونة اللازمة للأسطول لمدة ثلاثة أشهر .. وليس هذا عمل أسطول جاء لوقت محدود بقصد حماية ارواح الأجانب كما قال الانجليز عند حضوره ..

خامسا ــ أرسل المسيو سنكفكس قنصل فرنسا العام الى المسيو دى فريسينيه رئيس وزارة فرنسا برقية من الاسكندرية فى ٢٨ يونيه سنة ١٨٨٢ يقول فيها : « ان هجرة الأوربيين مستمرة والشعور العام هنا ان التدخل الانجليزى أصبح وشيك الوقوع ولم يبق فى القنصلية الانجليزية الا كاتبان يسجلان أسماء الانجليز الذين يرغبون البقاء فى مصر » .

سادسا ــ ارسل المسيو دى فورج De Forges قنصل فرنسا العام الى المسيو دى فريسينيه برقية من الاسكندرية يوم ٤ يوليه يقول فيها : « كل الدلائل تدل على انه سيقع عمل حربى عاجل من الانجليز سواء باشتراكنا او بدونه » .

سابعا ــ اعترف الاميرال سيمور فى يوم ٦ يوليه سنة ١٨٨٢ بأن اعمال الترميم التى زعم انها كانت جارية بها لغاية يوم ٥ يوليه اوقفت ومع ذلك أصر على الضرب .

ثامنا ــ تدبير مذبحة الاسكندرية من الأدلة على تبييت انجلترا النية على الاحتلال .

تاسعا ــ عهدت وزارة الحربية البريطانية الى المستشرق الأستاذ بالمر Palmer بالمجيء الى مصر وارتياد صحراء سينا لرشوة القبائل البدوية بين قناة السويس وغزة قبل نشوب الحرب ، وقد حضر ، وقابله المسيو جون نينيه فى الاسكندرية عرضا فقال له الأستاذ بالمر : « انصحك بمغادرة القطر المصرى لأن الاسكندرية ستضرب بالقنابل عما قريب وستكون عرضة لأن يقتلك الأهلون » ..

وقد قام الأستاذ بالمر بمهمته ، ولكن قتله البدو هو وصحبه . وحوكم قتلتهم عقب الاحتلال فحكم عليهم بالاعدام !

كل هذه الشواهد والنيات تدل على سبق اصرار انجلترا على ضرب الاسكندرية واحتلالهـــا مهما كانت الأحـــوال ، أو اختلفت الأســـباب .

التحفز للضرب

فى ٦ يوليه ارسل الاميرال سيمور الى طلبة عصمت قومنـــدان موقع الاسكندرية بلاغا اول بالكف عن اعمال التحصين الجارية فى الحصون . فأجابه طلبة فى اليوم ذاته بأنه لم يوضع اى مدفع جديد فى الحصون ولم يجر فيها اى عمل جـــديد ، وقد ذاع بلاغ الاميرال سيمور فى المدينة وتناقله الناس ، فايقن العارفون بحقائق الأمور انه نذير الشر ، وان الحرب واقعة لا محالة . وأوعز قنصلا انجلترا وفرنسا الى رعاياهما الباقين بالمدينة بالمبادرة الى الرحيل عنهـــا ، فتسابقوا الى الهجرة والنزول الى السفن التى بالميناء . وبلغ عدد المهاجرين الأوربيين منذ حوادث يونيه الى ما قبل الضرب نحو ٩٩ فى المائة من عددهم الأصلى ، وهاجر كثير من سراة المدينة الى داخل البلاد ، على أن معظم الأهلين بقوا بها .

لم يقتنع الاميرال سيمور بجواب طلبة باشا .. وهيهات أن يقتنع ، لأنه انما يبغى من جوابه أن يختلق سببا مكذوبا ليتذرع به الى الضرب .

وامعانا فى التحرش بعث الاميرال الى طلبة باشا عصمت بلاغـــا آخر يمهد به الى الانذار النهائى ، هذه ترجمته :

« البارجة انفنسبل فى ٦ يوليه سنة ١٨٨٢ » .

« صاحب السعادة ... اتشرف باخباركم انى علمت من طريق رسمى انه قد صار البارحـــة تركيب مدفعين جديدين أو أكثر فى خطوط الدفاع القائمـــة على البحر وان بعض استعدادات حربيـــة قد عملت فى واجهة الاسكندرية الشمالية تحديا للأســـطول الذى

تحت قيادتى ، فيجب على والحالة هذه أن أنبه عليكم بوقف هــذه الاعمال فان لم تقف وتجددت يكون واجبا على تدمير المعدات الجارى العمل فيها » .

فرد عليه طلبة باشا عصمت بالجواب الآتى :

« عزيزى الاميرال الانجليزى » ..

« اتشرف بأن انبئــكم بوصول خطابكم المؤرخ ٦ يوليــه الذى تخبروننى فيه انه اتصل بكم تركيب مدفعين وان اعمالا اخرى جارية على شاطىء البحر .. فردا على ذلك أود ان أؤكد لكم ان الأخبــار المذكورة لا حقيقة لها ، وان هذه الأخبار مثل خبر التهديد بســد مدخل البوغاز الذى اتصل بكم وتحققتم كذبه » .

« هذا وانى لمعتمــد على عواطفكم المتشبعة بروح الانسانيــة وارجو قبول احتراماتى » .

ولم يكتف الاميرال سيمور بطلب منع التحصين ، بل طلب أن تسلم له الحصون التى يزعم انها تهدد الأسطول !

وفى صبيحة ١٠ يوليه ارســل الى طلبــة باشا عصمت انذارا نهائيــا يطلب فيه تسليم البطاريات المنصوبة فى الحصون القائمــة بشبه جزيرة راس التين وعلى ساحل ميناء الاسكندرية الجنوبى والا ضرب الحصون فى صبيحة الغد ــ ١١ يوليه ــ ومعنى ذلك تسليم الحصون ذاتها .

وهذا نص الإنذار النهائى :

« اتشرف باخبار سعادتكم انه نظرا لأن الاستمدادات العدائية الموجهة ضد الاسطول الذى اتولى قيادته آخذة فى الازدياد طول يوم امس فى طوابى صالح وقايتباى والسلسلة فقد عقــدت العزم على ان انفذ غدا ــ ١١ الجــارى ــ عنــد شروق الشمس العمل الذى اعربت لكم عنه فى خطــابى المؤرخ يوم ٦ الجارى ان لم تسلموا الى حالا قبل هذه الساعة البطاريات المنصوبة فى شــبه جزيرة راس التين وعلى شــاطىء مينــاء الاسكندرية الجنوبى لتجريدها من السلاح » .

وعقد الخديو بسراى راس التين مجلسا عاما دعا اليه الوزراء وكبار رجال الدولة ليستشيرهم فى الموقف وفيما يجب ان يكون عليه جواب الحكومة على الانذار النهائى . فاستقر راى المجلس على رفض مطالب الاميرال ..

وفى المساء حرر الوزراء الرد على الانذار النهائى طبقا لقرار المجلس وهذا نصه : « لم تعمل مصر شيئا يقضى بارسال هذه الأساطيل المتجمعة ، ولم تعمل السلطة المدنية ولا السلطة العسكرية اى عمل يسوغ مطالب الاميرال الا بعض اصلاحات اضطرارية فى ابنية قديمة ، والطوابى الآن على الحالة التى كانت عليها عند وصول الأساطيل . ونحن هنا فى وطننا وبيتنا ، فمن حقنا بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع أسباب الصلات السلمية التى تقول الحكومة الانجليزية انها باقية بيننا . ومصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم اى مدفع ولا أى طابية دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح .. فهى لذلك تحتج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم وتوقع مسئوليات جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التى تنجم اما عن هجوم الأساطيل أو عن اطلاق المدافع ، على الأمة التى تقذف فى وسط السلام القنبلة الأولى على الاسكندرية المدينة الهادئة مخالفة بذلك لأحكام حقوق الانسان ولقوانين الحرب » .

يتضح من البيانات والمراسلات المتقدمة أن الانجليز كانوا مصممين على احتلال الاسكندرية سواء ضربوها أو لم يضربوها وسواء قبلت طلباتهم فى الانذار النهائى أو لم تقبل . ولم تكن الوسائل السلمية كافية مجدية فى منعهم عن تنفيذ ما عزموا عليه .. فالمجلس العام الذى اجتمع برياسة الخديو وقرر رفض الانذار كان على حق فى قراره . ولو انه قرر التسليم بمطالب الاميرال سيمور لما كان تسليمه ليحول بين الانجليز واحتلالهم المدينة . وكل ما كان يؤدى اليه التسليم أن يقع الاحتلال دون مقاومة من جانب مصر ، ولم يكن هذا موقفا مشرفا ، فليس الخطأ فى رفض مطالب الاميرال ،

بل الخطأ فى الانقسام الذى كان واقعا بين الخديو والعرابيين ، وكان عليهم أن يتلافوا ذلك الانقسام الذى أضعف الجبهة المصرية فى ساعة الخطر ، ولكن كلا الفريقين لم يبذل سعيا جديا فى تلافيه ، وكلاهما مخطىء من هذه الناحية .

الحصون والاسطول

يجمل بنا قبل أن نتكلم عن وقائع الضرب أن نقابل بين القوتين المتحاربتين ، لأن من هذا البيان يتضح من كان مقدرا له الفوز والنصر

كان بالاسكندرية فى ذلك الحين عدة حصون تسمى « طوابى » جمع طابية ، وهذا الاسم متداول حتى اليوم بين سكان الثغر ، ولا يزال بعض هذه الحصون « الطوابى » قائما حتى اليوم تبدو عليه آثار الخراب ، وبعضها لم يبق له وجود .

وهذه الحصون كانت تمتد على شاطىء البحر من ناحية العجمى غربا الى ابو قير شرقا .. فأولها من الغرب طابية « العجمى » ، وهى قائمة فى جزيرة العجمى التى يسميها الافرنج جزيرة المرابط — أو مارابوت كما يكتبونها — ولذلك يسمونها قلعة المرابط واسمها الصحيح قلعة أو طابية العجمى وتسمى أيضا طابية العجمى البحرية تمييزا لها عن طابية العجمى القبلية التى سيرد الكلام عنها .

وكانت طابية العجمى البحرية من أمنع حصون الاسكندرية ، ويوجد تجاهها على اليابسة طابية اخرى تسمى طابية العجمى القبلية ، وتعرف أيضا بطابية « العيانة » ، وهذه التسمية معروفة بين اهل هذه الجهة وواردة كذلك فى خريطة مصلحة المساحة .. ولم تكن لها أهمية حربية ، بل لم تشترك فى الضرب اذ لم يكن انشاؤها . ويلى هذه الطابية شرقا طابية « الدخيلة » ، ثم قلعة « المكس » وكانت من أمنع القلاع ، ومهمتها الدفاع عن مدخل الميناء « البوغاز » .

ويلى قلعة « المكس » على طول الشاطىء الجنوبى للميناء

عدة حصون واستحكامات ، وهى البرج نمرة ١٥ ، فطابية « القمرية » ، فطابية « أم قبيبة » ، ثم برج مستدير فيه مدفعان ، ثم طابية « صالح » .

وعند « باب العرب » طابية تسمى طابية باب العرب تعادل طابية المكس فى تسليحها ، وتقفل لسان الأرض الواقع بين البحر وبحيرة مريوط ، وهى واقعة الى ما وراء المقطع القديم الذى خرقه الانجليز عام ١٨١٠ قبل خروجهم من مصر ليدخلوا به مياه البحر الى بحيرة مريوط فأغرقت يومئذ قرى كثيرة وتحولت به صحراء واسعة يابسة الى مستنقع ردىء .

وفى شبه جزيرة رأس التين عدة حصون تحمى الميناء من الجهة الشمالية ، وهى طابية « الفنار » التى تحيط بفنار الاسكندرية وتشرف على الميناء ، فطابية « رأس التين » الواقعة شمالى سراى راس التين ، فطابية الاسبتالية .

وتلى هذه الحصون شرقا طابية « الأطة » وهى كلمة تركية تنطق اضه وتعنى الجزيرة ، وتسمى فى الاسكندرية طابية القضاء — الواقعة شرقى حمام الأنفوشي — ثم طابية « الهلالية » ثم طابية « قايتباى » التى يسميها الأوربيون حصن « فاروس » ومهمتها حماية المدينة من الجهة الشمالية الشرقية ، وحماية الميناء الشرقى، يقابلها من الطرف الشرقى لهذا الميناء طابية « السلسلة » .

ويلى طابية « السلسلة » شرقا قلاع أبو قير ، وهذه لم تشترك فى القتال لبعدها عن ميدانه ، وبداخل المدينة طابية « كوم الناضورة » وطابية « كوم الدكة » وتعرف أيضا بكوم الدماس .

وكان يحيط بالمدينة من جهة اليابسة سور قديم يسمى السور العربى الذى كان باقيا منه الى عهد قريب بعض آثاره بجهة باب رشيد « باب شرقى » ، وهو سور حصين به ابراج للمدافع (٠)

وهذه الحصون منشأة من عهد محمد على ، ما عدا كوم

الناضورة وكوم الدكة فانهما منشآن من عهد الحملة الفرنسية وقلعة « قايتباى » المنشاة فى القرن الخـامس عشر ، وكا الحصون سنة ١٨٨٢ بحالتها التى كانت عليها فى عهد محمد على وابراهيم وعباس . وقد اجرى فيها اسماعيل بعض الترميم وجلب لبعضها المدافع الضخمة من طراز ارمسترنج ، وهى التى كانت تضاهى مدافع الأسطول البريطانى ، وكان عددها ٤٩ مدفعا ، والمدافع الاخرى فلم يكن يعتمد عليها فى الضرب لقدمها وضعفها وقرب مرماها ، ولم تكن لها اية قيمة حربية فى سنة ١٨٨٢ ، وهى معظم مدافع الحصون اذ كان عددها ٢٢٩ مدفعا والأهوان وعددها اربعون .

وكانت حامية الحصون مؤلفة من آلاى طوبجية السواحل ومجموع قوته الرسمية ١٧٦٢ مقاتلا بين جنود وضباط وصف ضباط بقيادة الأميرالاى اسماعيل بك صبرى ، ولكن عددهم الحقيقى كان دون ذلك . ويقول عرابى فى مذكراته لم يرد عن سبعمائة يوم الضرب ، ويقول المسيو جون نينيه الذى شهد ضرب الاسكندرية ان نصف رماة القنابل « الطوبجية » كانوا متغيبين فى قراهم بحجة الاقتصاد والتوفير ، وهذا يفسر نقصان عددهم يوم الضرب . وقال ان الأميرال سيمور كان موقنا قبل الضرب انه لن يلقى فى ميدان القتال سوى هيكل محارب قديم كان شاكى السلاح بالأمس ثم صار شبحا لاحراك فيه ، وقال فى موضع آخر يصف اهمال حالة الحصون : « ان معظم المدافع القصيرة المرمى لم تتحرك من موضعها منذ نحو ثمان وثلاثين سنة حين ركبها لأول مرة جاليس بك Galice Bey مفتش الاستحكامات فى عهد محمد على .. اما المائة مدفع وواحد من مدافع ارمسترنج من عيار تسع الى عشر بوصات ، فكان منها ٦٤ نقط مركبة فى مواضعها ؛ والسبعة والثلاثون الأخرى كانت ملقاة خارج مواضعها ، واما ذخائرها فانها لم تنقل من مخازنها بالترسانة » .

يخلص مما تقدم بيانه ان الدفاع عن المدينة كان ضعيفا متخاذلا ،وان القوة التى واجهت الضرب لم تتجاوز ٧٠٠ مقاتل أما حامية المدينة فلم تشترك فى القتال ، وكانت مؤلفة من اربعة آلايات : اثنان منها كانا مرابطين اصلا فى المدينة ، وهما الآلاى الخامس من المشاة بقيادة الأميرالاى مصطفى بك عبد الرحيم براس التين ، والآلاى السادس بقيادة الأميرالاى سليمان بك سامى داود ، ويتالف من هذين الآلايين اللواء الثالث بقيادة خورشيد باشا طاهر ، والجميع بقيادة الفريق اسماعيل باشا كامل . وقد زيد عليهما الايان بعد مذبحة الاسكندرية ، وهما الالاى الثانى بقيادة خليل بك كامل . والرابع بقيادة عيد بك محمد ، ويتالف من هذين الآلالين اللواء الثانى بقيادة طلبة باشا عصمت الذى جعله عرابى قائدا لموقع الاسكندرية وحاميتها .

ويقول عرابى ان كل آلاى من المشاة كان مؤلفا من ٣٠٠٠ مقاتل فيكون مجموع الجند يوم ضرب الاسكندرية ١٢٫٠٠٠ من البيادة « المشاة » و ٧٠٠ من الطوبجية .

اما الأسطول البريطانى فكان مؤلفه من ثمانى مدرعات كبيرة وخمس سفن مدفعية وسفينة للطربيد وأخرى كشافة .

ومعظم مدافع هذا الأسطول من طراز ارمسترنج وعددها ٧٧ مدفعا ، والأسطول من هذه الناحية كان أقوى سلاحا من الحصون، وكان يفوقها فى سرعة تحركه وابتعاده عن الهدف ، على حين أن الحصون كانت مستقرة يسهل على الأسطول رميها بمدافعه فيصيبها . وكانت خطته فى الضرب أن تجتمع عدة بوارج فتصوب نيرانها نحو حصن واحد ، فتدمره أو تسكته ، ثم تتحول الى الحصن الذى يليه .. وهكذا تستطيع أن تدمر الحصون حصنا بعد حصن ، بينما الحصون لا تستطيع أن ينجد بعضها بعضا ، فهذه المقابلة وحدها تنبىء مبدئيا بمصير الضرب وتدل على أن كفة الأسطول البريطانى كانت أرجح بكثير من كفة الحصون المصرية .

اصدر الاميرال سيمور يوم ١٠ يولية سنة ١٨٨٢ تعليماته الى بوارجه لكى تاخذ مواقفها يوم الضرب على الترتيب الذى وضعه .

واتخذت البوارج موقفها على هذا النحو ليلة الضرب .. اما من الاستعداد للضرب من ناحية الحصون ، فقد استدعى عرابى فى تلك الليلة الاميرالاى اسماعيل بك صبرى قومندان حصون الاسكندرية . وكان عرابى وقتئذ « بالترسانة » يصحبه محمود باشا فهمى وطلبة باشا عصمت ومحمد باشا كامل وكيل نظارة البحرية ، واصدر اليه تعليماته ، فانصرف اسماعيل بك صبرى والتقى بضباط الحصون ووزع كلا منهم فى مركز عمله .

واصدر ايضا تعليماته بتوزيع جنود الحامية على خطوط الاستحكامات من برج السلسلة شرقا الى قلعة العجمى غربا .

وفى ليلة ١١ يولية كانت البوارج الانجليزية على اهبة القتال ، اما الاسطول الفرنسى فقد انسحب الى بورسعيد تنفيذا لتعليمات حكومته ، ولم يترك سوى سفينتين لم تعملا عملا ما .. وهكذا ترك الفرنسيون الانجليز وحدهم ينفردون بالضرب والقتال ، ولو اشتركوا معهم لتغير وجه المسالة المصرية ولما استطاع الاحتلال الانجليزى ان يثبت اقدامه فى البلاد .

ماساة الضرب

فى الساعة السابعة من صبيحة يوم الثلاثاء ١١ يولية سنة ١٨٨٢ اعطى الاميرال سيمور اشارة الضرب .. فاطلقت البارجة « الكسندرا » اول قنبلة على طابية الاسبتالية ، وتلتها البوارج الاخرى . فاخذت تطلق قنابلها المدمرة على حصون المدينة وعلى المدينة ذاتها . اما القلاع فلم تجب على الضرب الا بعد الطلقة الثالثة، بعد خمس دقائق . وكان الضرب من جانب الاسطول الانجليزى شديدا مروعا ، فكانت قنابله محكمة الرمى شديدة الفتك ، اما القلاع فكانت ضعيفة متراخية ، وسقط كثير منها فى البحر دون ان تصل الى البوارج الانجليزية .

وكانت البوارج اثناء الضرب تتحرك فى سيرها ، يحجبها عن الاعين دخان كثيف فلا يستطيع الرماة المصريون احكام المرمى واصابة الهدف منها ، وكل بارجة بها شبكة من الفولاذ اذا اصابتها قنبلة من قنابل الحصون صدت قوتها بحيث تضعف اذا نفذت الى البارجة ذاتها . وقد ســاعد على احكام المرمى من جانب الأسطول أن الاستعداد الحربى من ناحية الانجليز اقوى واعظم منه من جانب القلاع المصرية اذ كانوا مطلعين على دقائق الاستحكامات ومبلغ ما بها من المدافع والميرة والذخيرة ومخازن القنابل فيها ، بخلاف العرابيين فان معلوماتهم عن قوات الانجليز كانت مشوشة ضئيلة ، وكانوا يظنون أن البوارج الانجليزية لا تقوى على هدم القلاع ولا تقف أمام مرمى قنابلها . وقد اتضح عكس ما يظنون ، فان البوارج قد دكت الحصون وعطلت مدافعها ، فى حين أن الأسطول الانجليزى لم يصب بضرر يذكر .

استمر الضرب من الساعة السابعة الى الساعة الحادية عشرة على أقصى ما يكون من الهول والشدة ، وقنابل الأسطول تقذف الخراب وتحصد الأرواح .. ثم سكتت قليلا واستؤنف الضرب بعد هنيهة حتى الساعة الثانية بعد الظهر ، ثم وقف هنيهة أخرى ، ثم استؤنف بعد ذلك الى منتصف الساعة السادسة مساء قبل الغروب بساعة .

وقد تهدمت حصــون الفنار وراس التين والاسبتالية فى منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر ، حيث اجتمعت عليها المدرعات الكسندرا وسلطان وسوبرب ، ولما أسكتتها صوبت قنابلها الى قلعة « الأطة » وعاونتها فى ضربها المدرعتان انفلكسيبل وتمرير فقذفت المدرعات الخمس نيرانها على تلك القلعة فدمرتها بعد أن نسفت مستودع البارود فيها ، ثم تحولت الى قلعة « قايتباى » وظلت تقذفها بقنابلها الى الساعة الخامسة مساء فخربتها .

وفى المنطقة الجنوبية من الساحل ضربت المدرعات انفنسبل وبنلوب ومونارك وانفلكسيبل وتمرير حصون المكس وأم قبيبة

والدخيلة فاسكتتها فى منتصف الساعة الثانية عشرة ، واتجهت السفينة كوندور الى قلعة العجمى فضربتها بالقنابل حتى اسكتتها .

وفى نحو الساعة الأولى بعد الظهر شاهد الأميرال سيمور ان هذه الحصون قد اخلاها الجنود فارسل عشرين بحارا الى البر دخلوا قلعة « المكس » واتلفوا مدافعها ثم عادوا الى سفنهم آمنين .

وفى منتصف الساعة الرابعة شوهدت مدافع طابية « القمرية » تتاهب للضرب .. وعاد الجنود الى قلعة « المكس » فصوبت البارجتان « بنلوب » و « مونارك » مدافعهما الى الحصن المذكور واخذتا فى ضربه حتى منتصف الساعة السادسة مساء حيث أمر الأميرال سيمور بالكف عن القتال ، فوقف الضرب بعد أن استمر عشر ساعات متوالية .

وقد دافعت الحاميات عن الحصون دفاع المستميت ، وقام رجالها بواجبهم قدر ما استطاعوا .. ولكن قوة الأسطول ومدافعه كانت لها الغلبة فى هذا اليوم المشئوم ، فتهدم معظم الحصون ، واصابت قنابل الأسطول كثيرا من مساكن الاهلين فدمرتها واحرقتها ، كما احرقت جناح الحرم بسراى راس التين .

وتفانى الأهلون فى الدفاع عن المدينة ، على رغم ان الحرب كانت حرب مدافع وحصون وبوارج . فبذلوا كل ما فى استطاعتهم من تضحية واقدام .

وقتل من المصريين خلال هذه الفظائع نحو الفين ، ولم تزد خسائر الانجليز على خمسة من القتلى وتسعة عشر جريحا .. !

وقد استيقن العرابيون يوم ١٢ يوليه أن الانجليز لا بد محتلون الاسكندرية بعد أن دكوا حصونها ، فاستقر عزمهم على الانسحاب من المدينة ليستعدوا للمقاومة فى الداخل . وكان الأحكم أن يقاوموا نزول الجنود الانجليزية الى البر بأن يوزعوا جزءا من قواتهم

للمرابطة على الشواطىء ومنع رسو القوارب المقلة للجنود الانجليزية .. فانهم بذلك يعطلون نزولها مدة طويلة ، وبخاصة لأن الأسطول الانجليزى لم يكن قد تلقى المدد من جنود البر . وكانت قوته مقصورة الى ذلك الحين على جنود البحارة ولم يكن عددهم يزيد على ٥٧٠٠ مقاتل ، وهؤلاء لم يكن فى استطاعتهم أن يتغلبوا على حامية الاسكندرية .

حريق الاسكندرية

وكان فى مقدور الحامية أن تصدهم عن النزول الى البر وتدافعهم لو حاولوا النزول .. ولكن العرابيين لم يفعلوا شيئا من ذلك لأنهم لم تكن لديهم قيادة صالحة تدبر الخطط المحكمة للقتال ، فآثروا الانسحاب من الاسكندرية ، ورأوا أن يتذرعوا بكل وسيلة لتعطيل احتلال الانجليز للمدينة واستقرارهم فيها ، فأمر سليمان سامى داود قائد الآلاى السادس جنوده باضرام النار فى المدينة لكى يحول الحريق دون نزول الانجليز بها واتخاذها قاعدة حربية لزحفهم، فشبت الحرائق الهائلة يوم الأربعاء ١٢ يوليه سنة ١٨٨٢ وبدأ اضرام النار فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، واخذ يمتد حتى صارت الاسكندرية شعلة من النار مساء ذلك اليوم ، واستمرت النار تضطرم فيها الى اليوم التالى .

كان هذا الحريق من الوجهة العسكرية عملا عقيما لأنه لم يعطل نزول الجنود الانجليزية الى البر فقد نزلوا فى صبيحة اليوم التالى ، واشترك فى الحريق بعض الأوربيين وبخاصة من الأروام والمالطيين الذين بقوا فى المدينة بعد هجرة معظمهم ، وكانوا يقصدون من ذلك المطالبة بالتعويضات بعد انتهاء الحرب ، كما اشتركوا أيضا فى النهب .

ويقول جون نينيه عميد الجالية السويسرية وكان شاهد عيان لهذه الحوادث ان الحرائق الأولى شبت فى الأحياء الاهلية من قنابل الأسطول الانجليزى يوم الضرب . وكان الحريق الذى

أمر به سليمان سامى داود على غير رأى عرابى والوزراء ، فانفرد باحداثه سليمان داود قائد الآلاى السادس الذى كان مشهورا بالتهور والحمق ، وكان يعتبر نفسه عرابى آخر بالاسكندرية ، وقد صمم على الا ينسحب الجيش من الاسكندرية الا بعد أن يجعلها خرابا . وهذا يدلك على تشعب آراء العرابيين وعدم وجود وحدة فى قيادتهم ، لأن عملا خطيرا كحريق الاسكندرية ما كان يجب أن يحدث الا اذا صدرت به الأوامر مجمعة من قيادة الجيش . ولكن الواقع ان عرابى لم يكن له دخل فيه ولما وقع لم يستطع أن يمنعه .

واستقر رأى عرابى وصحبه على الانسحاب من الاسكندرية ثانى يوم الضرب ، فاخذ الجيش يخليها يوم الأربعاء ١٢ يوليه . وفى مساء ذلك اليوم غادرها عرابى ووصل الى « حجر النواتية » على ترعة المحمودية بعد الغروب . وقضى الليلة هناك . وفى الصباح ركب رفاصا سار به فى الترعة حتى وصل الى « عزبة خورشيد » ومنها الى « كنج عثمان » بالقرب من كفر الدوار . وهناك أمر بانشاء الاستحكامات وهى التى اتخذها الجيش المصرى معسكرا له ، وعرفت بمعسكر كفر الدوار . واتخذ عرابى عـزبة « كنج عثمان » مقرا لقيادة الجيش .. وفى صباح يوم ١٣ يوليه تحقق الاميرال سيمور من انسحاب العرابيين وانه لم يبق منهم احد فى المدينة فانزل كتيبة من جنوده البحارة ، واحتلوا سراى راس التين وشبه جزيرة راس التين .

اوربا وضرب الاسكندرية

انسحبت فرنسا من الميدان ، وامرت أميرال اسطولها بمغادرة الاسكندرية قبل الضرب .. فبارحها مساء ١٠ يوليه سنة ١٨٨٢ . ومعنى ذلك ان الحكومة الفرنسية تركت انجلترا تفعل ما تشاء وتعتدى ذلك الاعتداء الفشوم على المدينة فتدك حصونها وتهدم مبانيها وتحصد ارواح أهلها دون أن تبدى حراكا .. قابلت فرنسا

هذا الاعتداء الوحشى بالجمود ، ولو أرادت منعه لكان لها من مركزها الممتاز فى المسألة المصرية ما يحول دون وقوعه .. وكذلك فعلت دول أوربا العظمى فانها ظلت جامدة لا تحرك ساكنا أمام هذه المأساة .. ولو وقع مثل هذا الاعتداء على أمة أوربية كاليونان أو الجبل الأسود أو بلغاريا لاهتزت الحكومات الأوربية وتوعدت وأنذرت المعتدى بالضرب على يده ..

ولعلك تذكر موقفها حيال مصر ذاتها حين لبت نداء تركيا فى محاربة الثوار اليونانيين وما فعلته أوربا اذ ائتمرت بأسطولها فاحرقته غدرا وخيانة فى « نافارين » سنة ١٨٢٧ .. ولا تنس ما فعلته مع مصر فقد حرمتها ثمرة انتصاراتها على الترك فى عهد محمد على وائتمرت بها وانقضت المزايا التى نالتها بحد السيف . اما فى سنة ١٨٨٢ فقد تركتها لبطش الانجليز دون ان تحرك ساكنا !

وليس من العسير علينا ان نفهم سبب هذا التباين فى المعاملة .. فأوربا لا تنظر الى مصر بالعين التى تنظر بها الى الأمم الغربية ، ولا تراها جديرة بالعطف الذى حبت به اليونان وبلغاريا. ومما يدلك على مشاركة أوربا لانجلترا فى مسئولية حوادث سنة ١٨٨٢ انه لم يكد الجيش الانجليزى ينتصر على العرابيين فى واقعة التل الكبير حتى بادر المسيو تيسو سفير فرنسا بلندن الى مقابلة اللورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا وهنأه باسم الحكومة الفرنسية على هذا الانتصار . وكان جواب جرانفيل على تهنئته : « ان واقعة التل الكبير هى انتصار أوربى ، ولو انهزم الجيش الانجليزى لكان ذلك كارثة على كل الدول التى تحسب حسابا للتعصب الاسلامى » !

وقد هنأ المسيو دكلرك رئيس وزارة فرنسا السفير البريطانى فى باريس بهذه الواقعة قائلا : « ان انتصار الانجليز على العرب فى مصر ينتج ثمرة طيبة لفرنسا فى تونس والجزائر ! »

وقوبل نبأ الضرب فى « مؤتمر الاستانة » بالفتور والجمود ، ولم يكن المؤتمر قد انفض بعد .. ولو كانت الدول الأوربية حريصة على الدفاع عن حقوق مصر بل عن الحقوق عامة ، لكان لضرب الاسكندرية صـــدى عاجل فى المؤتمر يحفزه الى وضـــع حد لهـــذا الاعتداء . ولكنه على العكس قابله بالصمت والبرود ، ولم يبد اى اعتراض على انجلترا فى نقضها عهودها ، وخاصة عهودها فى ذلك المؤتمر بالذات .. لم يكن لهذا الاعتداء اى اثر فعلى فى نفوس المؤتمرين وهم سفراء الدول الأوربية الكبرى فى الاستانة ، وكل ما فعله مندوب روسيا ان نفض يده من المؤتمر وامتنع مؤقتا عن حضور جلساته ، وهو عمل سلبى لا يمنع الاعتداء ولا يحول دون استمراره .

وفى ١٥ يوليه سنة ١٨٨٢ اجتمع المؤتمر لاول مرة عقب ضرب الاسكندرية ، وتحرك الى دعوة تركيا لارسال جيش عثمانى الى مصر تنفيذا لقراره الذى أصدره فى جلسته السابقة – ٦ يوليه – ولم يكن قد ابلغه اليها من قبل ، ورضى السلطان – أخيرا أيضا – بالاشتراك فى المؤتمر للمباحثة فى اقرار الوسائل الكفيلة باعادة الامور الى نصابها .. بدات اذن تركيا تشترك فى المؤتمر بعد ان أصبح لا عمل له ، وأرسلت وزارة الخارجية العثمانية فى ١٩ يوليه تبلغه انها تقبل الاشتراك فيه ، وعينت مندوبيها به وهما سـعيد باشا وزير الخارجية وعاصم باشا وزير الأوقاف ، فحضرا جلسة ٢٤ يوليه – الجلسة العاشرة – وتولى سعيد باشا رياسة المؤتمر بصفته وزير خارجية الدولة التى انعقد المؤتمر فى عاصمتها ، وصرح بان الحكومة العثمانية قبلت مبدا ارسال جنود الى مصر ، وبجلسة ٧ اغسطس اعلن أن حكومته قبلت شروط التدخل التى قررها المؤتمر فى ١٥ يوليه ..

وكانت هذه الاقوال مهزلة اخرى – اذ لم تكن تركيا قد اعدت جيشا ما .. وابطات فى انفاذ عزمها حتى انتهت الحرب بهزيمـة

العرابيين ودخول الانجليز القاهرة قبل أن يتحرك الجيش العثمانى الى مصر !

قناة السويس

وكل ما عنى به المؤتمر أنه بحث بجلسته التاسعة يوم ١٩ يوليه سنة ١٨٨٢ فى حماية قناة السويس من أن تصيبها الحرب بسوء ، وذلك بناء على ما تظاهرت به انجلترا من الخوف على القناة أن يسدها العرابيون بعد ضرب الاسكندرية ، وكان هذا الخوف مع الأسف لا محل له ، لأن عرابى لم يفكر جديا فى سد القناة ، الا بعد احتلال الانجليز الاسماعيلية أى فى ٢٠ اغسطس ، ولكن انجلترا بادرت بمبادلة الدول تخوفها من هذه الناحية لكى تنتحل لنفسها حق حماية القناة اذا لم تتفق الدول على حمايتها دوليا ..

وقد عرض سفيرا انجلترا وفرنسا فى المؤتمر بجلسة ١٩ يوليه رأى حكومتيهما فى أن يكل المؤتمر الى من يختار من الدول حماية القناة اذا أصابها اعتداء ، ولم يلق هذا الاقتراح قبولا من المؤتمر ، فاتفقت انجلترا وفرنسا على أن يصرح سفيراهما فى المؤتمر بانهما مستعدتان عند الحاجة الى حماية القناة ، وقد صرح السفيران بذلك فى جلسة المؤتمر الحادية عشرة التى انعقدت يوم ٢٦ يوليه ، فلم يعترض المؤتمر ولم يبد احتجاجا .

وابلغ الباب العالى أعضاء المؤتمر فى ٢٤ يوليه ثم فى ٢٧ منه أن جنوده على أهبة السفر الى مصر وانه مستعد للتدخل فيها ، ولكن بلاغه لم يقترن بأى عمل ، وعرضت وزارة المسـيو دى فريسينيه على البرلمان الفرنسى فتح اعتماد لاعداد القوات الكفيلة بجعل القناة فى مأمن من كل اعتداء وحماية السفن المارة فيها ، ولكن البرلمان قرر فى ٢٩ يوليه رفض الاعتماد المطلوب .. مما أدى الى استقالة وزارة فريسينيه واضطرار الوزارة التى خلفتها ـ وزارة دكلرك ـ الى أن تنفض يدها من المسألة المصرية نزولا على قرار البرلمان .. فكان هذا القرار من فرنسا اعلانا بنفض يدها

بل بافلاس سياستها فى المسألة المصرية ، والسبب الذى حدا بالبرلمان الفرنسى الى رفض الاعتماد هو الخوف من توزيع قوات فرنسا فى وقت كانت تخشى فيه على كيانها فى القارة الأوربية من تحفز المانيا ، فهو نفس السبب الذى حدا بالوزارة الفرنسية الى الاحجام عن مشاركة بريطانيا فى تدخلها الحربى حين عرضت عليها ذلك فى يوليه ١٨٨٢ قبل ضرب الاسكندرية .

وفى الوقت الذى أصدر البرلمان الفرنسى هذا القرار قرر البرلمان البريطانى فى ٢٧ يوليه الاعتماد المطلوب من الحكومة الانجليزية للحملة على مصر ، وذلك باغلبية ٢٧٧ ضد ٢١ صوتا أى بأغلبية تشبه الاجماع ، وبلغ الاعتماد الذى قرره ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ جنيه .

يتضح مما تقدم أن المؤتمر لم يكن يعنيه رد الاعتداء عن مصر بل كل ما همه وشغل باله امر قناة السويس .. وقد انتهى من مباحثاته العقيمة الى ترك الانجليز يتصرفون كما تهوى أطماعهم الاستعمارية .

اجتمع المؤتمر للمرة الأخيرة يوم ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٢ ، وكانت الجنود البريطانية قد زحفت فى داخل البلاد وظهرت بوادر انتصارها على العرابيين .. فلم يجد المؤتمر عملا يشغله سوى تأجيل انعقاده الى أجل غير مسمى ، ولم يجتمع بعدها اذ كانت قوات الانجليز قد تغلبت على العرابيين ، وبذلك انطوت صفحة المؤتمر بدون أن يعمل عملا ما فى صون حقوق مصر ، ورد عادية الانجليز عنها ، واخفق اخفاقا جعله مضرب الأمثال فى المهازل السياسية الخالية من روح النزاهة والصراحة والاخلاص .

الحرب
بين عرابى والإنجليز

بين الخديو وعرابي

تربص الانجليز فى الاسكندرية حتى يعدوا العدة للزحف ، ويتلقوا الامداد التى جاءتهم بعد ذلك من انجلترا .. واخذوا فى الأيام الأولى ينظمون الاحتلال مستعينين بالخديو ونفوذه الشرعى . واذاع الاميرال سيمور يوم ١٧ يوليه منشورا بالمحافظة على الامن علق فى شوارع المدينة ، وهو اول منشور اعلن الانجليز فيه انهم مكلفون من جانب الخديو بالمحافظة على النظام .

واستكتب الاميرال سيمور راغب باشا رئيس مجلس الوزراء خطابا بتاريخ ١٧ يوليه سنة ١٨٨٢ يبلغ فيه الاميرال مخالفة عرابى لأوامر الخديو فيما يقوم به من وسائل الدفاع ، وعزم الخديو على عزله من منصبه .. وهذا الخطاب يبدو غريبا من راغب باشا الذى كان حتى ضرب الاسكندرية يعضد العرابيين ويؤيدهم ، ويقاوم التدخل البريطانى . والخطاب يناقض ايضا قرار مجلس الوزراء الذى اشترك راغب باشا فى وضعه بوصفه رئيسا للنظار والذى رد فيه على انذار الاميرال سيمور قبيل ضرب الاسكندرية وارسل الخديو من سراى راس التين يوم ١٧ يوليه تلغرافا الى عرابى بكفر الدوار يأمره فيه بالكف عن الاستعدادات الحربية ويحمله تبعة ضرب الاسكندرية . ويدافع فيه عن حسن مقاصد الانجليز ويأمره بالحضور الى سراى راس التين ليتلقى منه تعليماته .

فأجاب عرابى على هذه الرسالة ببرقية شرح فيها وجهة نظره، وأبان الأسباب التى توجب استمرار الدفاع ، وهى طلبات الاميرال سيمور ، وقرار مجلس الوزراء برياسة الخديو برفضها ولو أدى ذلك الى القتال . واعتذر عن الحضور الى الاسكندرية لأن الانجليز يحتلونها ، وطلب الى الخديو ان يوفد اليه الوزراء أو رئيسهم فى مركز الجيش بكفر الدوار للمداولة فى الموقف . ولما تحقق عرابى

انحياز الخديو الى جانب الانجليز خشى ان يصـدر من الأوامـر ما يشل حركة الاستعدادات الحربيـة ، فأرسل عرابى الى جميع المديريات والمحافظات تلغرافات شديدة اللهجة اتهم فيها الخديو بممالأة الانجليز وحذر الجميع من اتباع اوامره التى تخالف حـالة الحرب .

وارسل الى يعقوب سامى باشا وكيل وزارة الحربية بالقاهرة كتابا بتاريخ ١٧ يوليه سنة ١٨٨٢ ، دعا الى وجوب عقـد جمعية عمومية من الذوات والأعيان والعلماء يعـرض عليها الموقف ويطلب منها اصدار قرار فى شان الخديو وفيما يجب عمله لصالح الأمـة « وصلاحية مثل هذا الوالى عليهـا » ، وختم كتابه بالمثـابرة على التجهيزات الحربية وانه تحرر منه بذلك الى جميع حكام البلاد .

واذاع منشورا أرسـله الى المديريات والدواوين كافة باعـلان انضمام الخديو الى جانب الانجليز وخلع طاعته .

كان يعقوب سامى باشا من الموالين لعرابى ، كما كان فى خاصة نفسه يرى بحق وجوب الدفاع عن البلاد ازاء عدوان الانجليز .. فلما جاء تلغراف عرابى اجتمع يوم وروده مع خاصته المناصرين له فى وزارة الحربية « قصر النيل » واستقر رأيهم على عقد مجلس بديوان الداخلية فى مساء ذلك اليوم مؤلف من وكلاء الوزارات وبعض كبار الضباط والموظفين .

فاجتمع المجلس المذكور وقرر دعوة العلماء والأعيان والرؤساء الروحانيين والوجهاء وكبار موظفى الحكومة بديوان الداخلية ليـلا فى هيئة جمعية عمومية لاتخاذ ما يلزم من القرارات بالنيـابة عن الأمة . واخذ هذا المجلس يتولى سلطة الحكم .. وظل كذلك خلال الحرب ، وقد سمى فى الوقائع المصرية « المجلس العرفى » وسنجرى على هذه التسمية الاخيرة فى سياق الحديث .

وفى مساء يوم الاثنين ١٧ يوليـه سنة ١٨٨٢ اجتمع المدعوون الى حضور الجمعية العموميـة بوزارة الداخليـة ، وبلغ عددهم أربعمائة عضو ، منهم الأمراء الموجودون بالعاصمة وشيخ الاسلام

وقاضى قضاة مصر ومفتى الديار المصرية وكبار العلماء والرؤساء الروحانيون والنواب ووكلاء الدواوين والمديرون والقضاة والتجار والأعيـــان .

وعرضت عليهم الرسائل التى تبودلت بين الخـــديو وعرابى ، وبين هذا الاخير ووكيل الحربية ، وتداولوا فى الموقف .. فاجمعوا على وجوب مداومة الاستعدادات الحربية ما دامت بوارج الانجليز فى السواحل وجنودهم فى الاسكندرية ، وعلى استدعاء الوزراء من الاسكندرية للاستفهام منهم عن حقيقـــة الأمر ، واصدروا قرارا بهذا المعنى ..

وعلى اثر اطلاع الخديو على قرار الجمعية العمومية أصدر امرا فى ٢٠ يوليه سنة ١٨٨٢ بعزل عرابى من وزارة الحربية ، وعين عمر باشا لطفى محافظ الاســكندرية بدلا عنه . وبنى أمر العــزل على مخالفة عرابى لأوامره ومداومته على الاستعدادات الحربية ، وقد صدر هذا الأمر بنــاء على قرار من مجلس الوزراء ، وكان بعضهم مخالفا لفكرة العزل ، ولكن الخديو أصر عليها ، وابلغه هذا الأمر فى كتاب بعث به اليه .

واذاع الخـــديو فى الوقت نفســـه منشورا علق فى شوارع الاسكندرية فصل فيه الأســـباب التى دعت الى عزل عرابى من منصبه ، واخذ فيه على عرابى اخلاء الاسكندرية دون مقاومة ، ثم دافع عن نيات الانجليز واحتلالهم الاسكندرية وسوغه بأن الغرض منه المحافظة على الأمن !

وكان عرابى مرابطا فى معسكره بكفر الدوار حين اصدر الخديو امره بعزله من منصـــبه ، فلم يكترث له واستمر يعـــد عدة الدفاع ليصد تقدم الانجليز ، وارسل الى يعقوب ســـامى باشا يدعوه الى عقد الجمعية العمومية ثانيـــة للنظر فى أمر العزل .. فقرر المجلس العرفى دعوة الجمعية العموميـــة الى الانعقـــاد ، واجتمعت بوزارة الداخلية يوم السبت ٢٣ يوليه سنة ١٨٨٢ ، وهذه هى المرة الثانية لاجتماعها ، ولم تجتمع بعد ذلك ، وكان الحاضرون فى المرة الثانيـــة

أكثر عددا من المرة الأولى اذ حضرها نحو خمسمائة من الأعضاء ، منهم ثلاثة من الأمراء ، وشيخ الأزهر وقاضى قضاة مصر ومفتيها ونقيب الاشراف وبطريرك الاقباط الارثوذكس ، وحاخام اليهود ، والنواب والقضاة والمفتشون ومديرو المديريات والأعيان وكثير من العمد ومشايخ البلاد ، فلما اجتمعت الجمعية تليت عليها الأوامر الصادرة من الخديو ، والمنشورات التىاصدرها عرابى،وتولى هذه التلاوة الشيخ محمد عبده (الأستاذ الامام) بناء على أمر حسين باشا الدرمللى وكيل الداخلية ، وألقى على باشا الروبى خطبة تناول فيها الخديو بالطعن والقدح ، وتليت فتوى شرعية من الشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوى والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى بمروق الخديو من الدين لانحيازه الى الجيش المحارب للبلاد . وتداول الأعضاء فى الموقف الحربى وفيما يجب عمله . فاتفقت آراؤهم على عدم قبول عزل عرابى ، وبعد أن صدر هذا القرار قال يعقوب سامى باشا وكيل وزارة الحربية : « حيث قرر هذا المجلس المحترم عدم عزل عرابى باشا من نظارة الجهادية والبحرية ورأى لزوم بقائه فى الوظيفة .. فأرجو من المجلس أن يرى رأيه فى أوامر الخديو التى تصدر الى من جنابه ، وكذلك ما يصدر من حضرات نظاره المقيمين معه هل يلزمنى قبولها وتنفيذها أم لا ؟ » فتداولت الجمعية العمومية فى هذه المسألة واصدرت قرارها بوقف اوامر الخديو ونظاره وعدم تنفيذها .

الحرب بين العرابيين والانجليز

عسكر عرابى بجيشه فى كفر الدوار واقام بها الاستحكامات المنيعة ، واخذت طلائع العرابيين تناوش الانجليز فى ضواحى الاسكندرية .. ولم يكن الجيش الانجليزى قد أمن بعد على مركزه فى الثغر ، بل كان يتوقع أن يهاجمه العرابيون بعد أن يلموا شعثهم عقب الهزيمة الأولى ، فاخذ الانجليز يحصنون استحكامات المدينة ووضعوا الحراس على مداخلها .

وكانت طلائع المصريين ترابط فى الرمل وتستعد لمناوشة

الأعداء .. واستمر الانجليز يلزمون خطة الدفاع فى الاسكندرية وينتظرون وصول الامداد . وفى ١٧ يوليه جاءهم مدد من ٢٧٠٠ مقاتل ، وجاء الاسكندرية الجنرال اليزون Alison فتولى قيادة الجيش البريطانى فى المدينة حتى يحضر القائد العام الجنرال ولسلى . وكان عدد الجيش البريطانى فى الاسكندرية ٣٦٨٦ مقاتلا ـ عدا جنود الأسطول ـ ثم جاءهم مدد آخر عدده ١١٠٨ من مالطة وجبل طارق .. فاحتل الانجليز الرمل فى ٢٣ يوليه ، ثم اخـذ المدد الأكبر يتحرك من ميناء ولوتش Wolluich بانجلترا فى أواخر يوليه قاصدا مصر . واصدرت الملكة فيكتوريا أمرا فى ٢١ يوليه بتعيين الجنرال السير جارنت ولسلى Sir Garent Wolsley قائدا عاما لجيش الحملة على مصر ولم يصل الى الاسكندرية الا فى منتصف اغسطس .

وكان المظنون لدى عرابى وصحبه ان لا يتخذ الانجليز قناة السويس ميدانا للزحف أو للحركات الحربية ، احتراما لحيـدة القناه .. ولكن العارفين بالحقائق كانوا على يقين من انهم لا يرعون للقناة حرمة ، كما لم يرعوا حرمة المعاهدات فى ضربهم الاسكندرية، فكانت خطتهم ان يهاجموا مصر من ناحية الاسماعيلية متجهين من طريق الزقازيق الى القاهرة .

خطة العرابيين فى القتال

عين عرابى محمود باشا فهمى رئيسا لأركان حرب الجيش المصرى عقب ضرب الاسكندرية ، فوضع خطة سديدة للدفاع عن البلاد لو اتبعت باحكام لصدت تقدم الانجليز وانقذت مصر من غارتهم .. وكان محمود فهمى من أكفأ المهندسـين الحـربيين ، وخلاصة خطته انه عين خمسة مواقع رئيسية للدفاع : الأول فى كفر الدوار ، والثانى فى رشيد ، والثالث بين رشيد وبحيرة البرلس والرابع فى دمياط ، والخامس فى الصالحية والتل الكبير لصـد الهجوم من ناحية قناة السويس . وقد اشار فى بداية الحرب بسد ترعة الاسماعيلية لمنع وصـول المياه العـذبة الى بور سـعيد

والاسماعيلية والسويس وسد قناة السويس ذاتها لمنع الانجليز من اتخاذها قاعدة عسكرية .

ولو سدت قناة السويس فى بداية القتال لامتنع الاتصال بين القوات الانجليزية الآتية من البحر الأبيض المتوسط والقوات الآتية من الهند . واستحال عليها الوصول الى الاسماعيلية من طريق القناة ، وفى هذه الحالة يضطر الجنرال واسلى الى المغامرة بجيشه فى الصحراء الشرقية حيث لا ماء ولا كلأ ، أو يهاجم مصر عن طريق الدلتا فتعوق الترع والجسور زحفه وخاصة فى أيام الفيضان (أغسطس ــ سبتمبر) ولكن عرابى لم يستمع لنصيحة محمود فهمى وخشى عواقبها . وظن أن الانجليز يحترمون حياد القناة فلا يتخذونها قاعدة للزحف ، فكان هذا الخطأ أكبر عامل فى اخفاق خطة الدفاع التى وضعها محمود فهمى . واكتفى عرابى باقامة معسكر فى التل الكبير على بعد نحو خمسين كيلومترا من الاسماعيلية و ١١٠ كيلومترات من القاهرة حشد فيها جانبا من الجيش ، ولكنه وزع معظم قواته فى كفر الدوار وعلى سواحل البحر الأبيض المتوسط .. فكان الجنود السودانيون وهم من خيرة الجنود مرابطين فى دمياط بقيادة عبد العال حلمى . ورابط فى رشيد فيلق كبير ، واستقر معظم الجيش بقيادة طلبة عصمت فى كفرالدوار . ومع أن الانجليز استعجلوا الحركات العدائية فى قناة السويس وكانت هذه الحركات نذيرا كافيا لعرابى بما اعتزموه من خرق حياد القناة ، فان عرابى جبن عن العمل بنصيحة محمود فهمى فى سدها .

* * *

ولقد بكر الانجليز فى خرق حرمة قناة السويس واتخاذها ميدانا للحركات العدائية .. وتدل الظروف والملابسات على أنهم كانوا مصرين على اختلاق الذرائع لاحتلالها ، كما اختلقوها لضرب الاسكندرية . فقد تعللوا بأن ثمة ترميمات تجرى فى طابية «الجميل» على مدخل بحيرة المنزلة غربى بور سعيد . وأصدرت الحكومة

البريطانية فى ٢٢ يوليه سنة ١٨٨٢ تعليماتها الى الاميرال سيمور باحتلال بور سعيد والاسماعيلية . وفى ٢٦ يوليه سنة ١٨٨٢ اقتحمت السفينة الحربية الانجليزية « أوريون » بقيادة الكابتن « فتزورى » القناة عند بور سعيد ، والقت مراسيها يوم ٢٧ منه فى بحيرة التمساح على بعد ثمانمائة متر من الاسماعيلية . ولم يكد يمضى على دخولها القناة يومان حتى وصل الاميرال « هويت » الى السويس والاميرال « هوبكنس » الى بور سعيد ، واستقر كل منهما فى موقفه ينتظر التعليمات الخاصة باحتلال القناة .

* * *

وهذه الحركات الحربية المبكرة فى ناحية القناة كانت تنم عما اعتزمه الانجليز فى بداية القتال من الزحف من طريق قناة السويس .. ولكن عرابى مع ذلك ظل غافلا عن هذه النية !

واحتل الانجليز مدينة السويس فى ٢ اغسطس ، وظل عرابى برغم احتلالها يعتقد حرمة قناة السويس بحجة أن القناة انما تبتدىء من « بور توفيق » ضاحية السويس ـ والتى لا تبعد عنها الا بثلاثة كيلومترات ـ وكان احتلال السويس نذيرا آخر باتخاذ الانجليز لها قاعدة للزحف على العاصمة ، وقد تحرك المدد من الهند بعد سبعة ايام من احتلالها .

وقائع الميدان الغربى

نقصد بالميدان الغربى ما بين الاسكندرية وكفر الدوار .. تمييزا له عن الميدان الشرقى من الاسماعيلية الى التل الكبير ..

لقد وجه عرابى كل عنايته الى تحصين مواقعه فى الميدان الغربى ، واهمل الميدان الشرقى اهمالا تاما ، مما كان السبب الاكبر فى الهزيمة .. فانشأ الاستحكامات المنيعة فى مواقع الدفاع مما يلى الرمل جنوبا الى كفر الدوار بين بحيرة أبو قير وملاحة مريوط . ووضع محمود فهمى تصميم هذه المواقع بمعاونة الاميرالاى محمد بك شكرى وهو من اكفأ ضباط أركان حرب الجيش المصرى .. فكانت مؤلفة من ثلاثة خطوط للدفاع يبعد

كل واحد عما يليه باربعة او خمسة كيلو مترات ، وامام كل خط خندق عمقه خمس عشرة قدما ، واقيمت المعاقل على جميع المرتفعات والآكام ، وركبت فيها المدافع وعددها خمسون مدفعا .

واقعة الرمل

تحرك الانجليز يوم السبت ٥ اغسطس سنة ١٨٨٢ يريدون التقدم من جهة « الرمل » باورطتين من المشاة واورطتين من الفرسان .. فلما صاروا على بعد الف وخمسمائة متر من موقع المصريين التقى بهم البكباشى احمد افندى البيار والبكباشى مصطفى افندى حسان ومعهما اورطتان من المشاة واورطتان من الفرسان ، وصدوهم عن التقدم .. ثم جاء خورشيد باشا طاهر قومندان خط الدفاع فى ابو قير ومعه ثلاث بلوكات من الفرسان ، فهجم المصريون على الانجليز هجوما شديدا واضطروهم الى التقهقر اذ ولوا الادبار منهزمين بعد أن دام القتال ثلاث ساعات ونصفا ..

ويقول الكولونيل « سبتان » عن هذه المعركة ان الجنرال « اليزون » كان يقود الانجليز فيها وان عددهم كان الفى مقاتل وان الجنرال « اليزون » كان لا يفتأ يناوش العرابيين حول الاسكندرية كل يوم لكى يوهمهم أن الجيش البريطانى قد اتخذ الاسكندرية قاعدة للزحف ، فى حين ان خطته الحقيقية هى الزحف من ناحية الاسماعيلية . وبذلك يشغلهم عن تحصين التل الكبير ومواقع الدفاع فى الشرق .

واقعة عزبة خورشيد

وهاجم الانجليز مقدمة الجيش المصرى فى كفر الدوار يوم ٧ اغسطس اذ تقدم جناحهم الأيسر من الرمل على جسر ترعة المحمودية وتقدم الجناح الأيمن بطريق السكة الحديد من القبارى .. وجاء القلب من طريق كوبرى المحمودية ، فلما التقوا بالمصريين صمد هؤلاء لقتالهم ودافعوهم دفاعا مجيدا ، اذ انبرى للميسرة البكباشى محروس افنــــدى يقود اورطته وأبلى فى قتالهم بلاء حسنا ، وجرح أثناء المعركة . وصمد للقلب والميسرة البكباشى

محمد أفندى فودة ومعه أورطة أخرى من الجنود ، واشتد القتال فى هذه الناحية واستمرت المعركة نحو اربع ساعات انتهت بتقهقر الانجليز منهزمين ، وسار المصريون على اثرهم حتى حجبهم الظلام منهم .. وقتل من المصريين فى هــذه الواقعة تسعة من الجنود وصف الضباط وضابط واحد وجرح منهم اثنا عشر جنــديا وضابطان .. أما خسائر الانجليز فكانت اكثر عددا من خسائر المصريين .

الاستعداد للمعارك الكبرى

وبعد وقوع معركتى ٥ و ٧ أغسطس ســنة ١٨٨٢ المتقــدم ذكرهما ، استمر ورود الامداد الى الانجليز فى الاسكندرية آتية من مالطة وقبرص وجبل طارق وانجلترا .. فاجتمع حوالى ٩ أغسطس سنة ١٨٨٢ فى المدينة وضواحيها نحو أربعة عشر الفا من المشاة وثلاث فصائل من الفرسان و ٩٤٠ جنديا من المدفعية و ٥٤٠ من المهندسين وكثير من القائمين على خــدمة الجسور والتلغراف والسكك الحديدية . وظل المدد يرد على الاسكندرية والسويس حتى بلغ عدد الجيش البريطانى قبيل معركة التل الكبير ٥٠٫٦٠٠ مقاتل .

أما الجيش المصرى النظامى فلم يكن يزيد على ١٩٫٠٠٠ مقاتل موزعين بين مختلف المواقع ، منهم ٨٠٠٠ فى كفر الدوار ، و ٣٥٠٠ بأبو قير ، و ٢٥٠٠ فى رشيد ، و ٥٠٠٠ فى دمياط ، وقد انضم الى هذا الجيش عدد من المتطوعين والعربان ، ولكن الوقت لم يكن يسمح بتدريبهم على الحركات النظامية ، فلم تكن منهم فائدة ، ويقول جون نينيه الذى شهد هذه الحوادث : « ان وجود العربان من مشاة وركبان فى كفر الدوار لم تكن له فائدة ما للجيش بل كان ضررهم أكثر من نفعهم لعدم اعتيــادهم حركات الجيوش النظامية » . وقال المستر بلنت : « ان الجيش المصرى باكمله لم يكن يزيد على ١٣٫٠٠٠ جندى نظامى منهم ٨٠٠٠ فى كفر الدوار ، اما المجندون الجدد فلم يكونوا بعد اكفاء للقتال » .

ويقول جون نينيه ايضا : « ان الصحف الانجليزية كانت تبالغ فى عدد الجيش المصرى بكفر الدوار وتبلغه الى ٤٧٫٠٠٠ مقاتل على حين انه دون هذا العدد بكثير » .

فالاحصاء الصحيح هو ما ذكره جون نينيه ، وفى الحق أن الوقت لم يكن يتسع لزيادة عدد الجيش الى أكثر من هذا العدد ، فقد كان سنة ١٨٨١ لا يزيد على ١١٫٣٠٠ جندى (عدا الجنود المرابطة فى السودان) ثم زيد نظريا فى سنة ١٨٨٢ الى ١٧٫٧٠٠ ، لكن عدده الحقيقى كان أقل من ذلك كثيرا .

ويقول عرابى فى مذكراته : « ان الجيش المصرى عند ابتداء القتال كان مؤلفا من ثمانية الايات من المشاة ، وثلاثة الايات من الفرسان ، وآلايين من الطوبجية البرية ، وثلاث آلايات من طوبجية السواحل — المنوط بهم حماية الثغور — وفرقة من رجال الهندسة ، وان مجموع ذلك فى حالة استكمال الفرق والالايات ٣٦٫٠٠٠ » وهو احصاء نظرى لا يمكن التعويل عليه لأن المعروف أن الفرق والآلايات لم تستكمل قط عددها ، بل كان بعضها لا يبلغ نصف عدده الرسمى .

والظاهر أن عرابى كان يميل بعد هزيمة التل الكبير وفى خلال محاكمته الى المبالغة فى عدد الجيش المصرى لكى يتخذ الدفاع عنه من ذلك دليلا على رغبته فى حقن الدماء مع وجود العدد الوافر لديه من الجند لاستمرار القتال . وسجل عرابى فى مذكراته أنه كان بالقاهرة قبل ابتداء القتال مصنع للأسلحة ، ومعمل للبارود ، وآخر فى بولاق لصب المدافع ، ودار صناعة عظيمة لعمل البنادق والمدافع أنشئت فى طرة .. ولكنها لم تكمل قبل نشوب الحرب .

يتضح لك من هذا البيان أن عدد الجيش الانجليزى كان يزيد على ضعف عدد الجيش المصرى .. وهذا وحده كان نذيرا بسوء العاقبة . وقد جعل الفريق راشد باشا حسنى قائدا لخطوط الدفاع فى الشرق ، وخورشيد باشا طاهر على رشيد

وابو قير ، وعلى باشا الروبى على مريوط ، وعبد العال باشا حلمى على دمياط ، ومحمود سامى باشا البارودى قائدا لمواقع الصالحية ، وطلبة باشا عصمت قائدا لفرقة كفر الدوار تحت امرة عرابى .

واعتزم عرابى زيادة عدد الجيش ، فرأى ان اقرب الوسائل الى هذه الزيادة تجنيد الخفراء فى سائر المديريات لمرانهم على الحركات العسكرية من قبل ، فاصدر منشورا فى ١٢ اغسطس سنة ١٨٨٢ بتجنيد ٢٥ الفا يؤخذون من الخفراء ويحل محلهم غيرهم فى المحافظة على الأمن ، ووزع هذا العدد على المديريات كافة، وارسل الى المديرين يستحثهم على سرعة تجنيد هذا العدد ، وبين حاجة الدفاع الى ذلك .

ولا شك فى أنه لو كان لدى مصر الوقت الكافى لجندت هذا العدد واكثر منه .. ولكن الوقت لم يكن يتسع لتجنيد الخمسة والعشرين الفا ولا غيرهم ، ويقول نينيه : « انه كان يمكن لعرابى بعد ثمانية اشهر أو عشرة حشد خمسين الف مقاتل أو ستين الفا ، فقد كان يشرف على حركة التجنيد يعقوب سامى باشا وكيل وزارة الحربية وكان كفؤا فى الادارة ، ولكن الوقت لم يتسع لهذا العمل » .

ولما شبت الحرب لم يكن فى خزانة الحكومة مال ، لأن السير كلفن المراقب المالى الانجليزى اخذ الأموال الموجودة فى خزانة المالية وانزلها بالأسطول الانجليزى ، قبل اعلان الحرب بأيام . وكذلك الاموال الموجودة بصندوق الدين حملها أعضاء القومسيون الى السفن الحربية بالاسكندرية ، فارسل عرابى الى المديرين يدعوهم الى جمع الأموال والاعانات من مدرياتهم للجيش ، وحرر من المجلس العرفى للمديريات بتحصيل الأموال من الأهالى بنسبة عشرة قروش عن كل فدان على أن تحسب الأموال لمن يدفعونها من ضرائب الاطيان التى تستحق عليهم فى المستقبل .

وتطوع الكثيرون فى الجيش جنودا مقاتلين يجودون بارواحهم

فى سبيل الدفاع عن الوطن . وبدأت حركة التطوع فى القاهرة والاقاليم عقب ضرب الاسكندرية .

والحق أن الأهلين قد تطوعوا لامداد الجيش بكل ما يستطيعون من نفس ومال وغلال وعتاد ومؤونة وميرة وخيول وماشية ، وجادوا بكل ما فى مقدورهم معتقدين بحق أن هذا واجب تفرضه عليهم الوطنية والدين .

قلنا ان الحكومة البريطانية عهدت بقيادة جيش الحملة على مصر الى الجنرال السير « جارنت ولسلى » أحد القواد الارلنديين فى الجيش البريطانى ، فوصل الى الاسكندرية يوم ١٥ أغسطس سنة ١٨٨٢ .

لم يكن الجنرال ولسلى من القواد الذين اشتهروا بالكفاية العالية فى القيادة ، ولا ممن امتازوا فى معارك سابقة بالنبوغ فى الفنون الحربية .. بل كان ما عرف عنه أنه اشترك من قبل فى حرب القرم وفى بعض الحملات الاستعمارية الانجليزية . وكان لم يزل برتبة قائم مقام جنرال حين تولى قيادة الحملة على مصر سنة ١٨٨٢ ، فلما انتهت بهزيمة العرابيين فى التل الكبير واحتلال العاصمة انهالت عليه ألقاب الشرف والتكريم ، فنال لقب لورد « فيكونت » ولسلى أوف كيرو « القاهرة » ورتبة جنرال وغير ذلك من دلائل التقدير ، على أنه تولى فيما بعد ـ سنة ١٨٨٤ ـ قيادة الحملة على قوات المهدى فى دنقلة ، فانتهت باخفاقها ومقتل غردون باشا ، وتولى سنة ١٩٠٣ قيادة الجيش الانجليزى فى حرب البوير بالترنسفال ، فباء بالهزيمة والخسران .. وعدته حكومته مسئولا عن النكبة التى حلت بالجيش الانجليزى ، فنحته عن قيادته وعينت بدله الجنرال اللورد روبرتس .

من هذا البيان يتضح لك أن قيادة الجيش الانجليزى وذات الجيش الانجليزى الذى هاجم مصر سنة ١٨٨٢ لم يكونا كافيين للظفر بها واحتلالها ، لولا الانقسام الذى اضعف قوة الدفاع عنها .. فانسل الانجليز فى أرض ممهدة ، ولم يلقوا المقاومة التى لقيها

الجنرال « فريزر » حين نزل الاسكندرية سنة ١٨٠٧ على راس جيش بريطانى اراد احتلال مصر فباء بالخيبة والخسران ..

ولم يكد يستقر بالجنرال ولسلى المقام فى الاسكندرية حتى اذاع الاعلان الآتى فى المدينة :

« بامر الحضرة الخديوية ــ اعلان للمصريين ــ يعلن الجنرال قائد الجيوش الانجليزية بان مقاصد الدولة البريطانية فى ارسالها تجريده عسكرية الى القطر المصرى ليست الا لتأييد سلطة الحضرة الخديوية ، وعساكرنا يحاربون فقط حاملى السلاح ضد سموه .. فعموم الأهالى الذين فى سلم وسكينة تصير معاملتهم بكل تودد وانسانية ولا يحصل لهم أدنى ضرر بل يحترم دينهم وجوامعهم وعائلاتهم ، والأشياء التى تلزم الجيش يصير دفع ثمنها ، وعليه ندعو الأهالى لتقديم ذلك ، وان الجنرال قائد الجيش يسر جدا من زيارة مشايخ البلاد وخلافهم الذين يودون المساعدة لردع العصيان الذى هو ضد الحضرة الخديوية الحاكم والوالى الشرعى على القطر المصرى المعين من لدن الذات الشاهانية » .

تجدد القتال

بدات الحركات الحربية بين الاسكندرية وكفر الدوار عقب احتلال الاسكندرية كما تقدم بيانه ، ثم تجددت عقب حضور الجنرال ولسلى .. ففى يوم السبت ١٩ اغسطس سنة ١٨٨٢ تحركت قوة كبيرة من الانجليز جاء جانب منهم بالقطارات المسلحة من جهة القبارى وجانب آخر من جهة الرمل ومحطة السيوف وحجر النواتية . فلما وصلت القطارات الى مقدمة الجيش المصرى اطلق اليوزباشى احمد افندى فضلى مدفعا فكان ذلك ايذانا ببدء القتال .

ودارت معركة شديدة بينهم وبين المصريين ، فصدهم المصريون عن التقدم بعد أن كبدوهم خسائر جمة . ودام القتال ثلاث ساعات حتى غروب الشمس . وكان يتولى قيادة الجيش فى هذه

المعركة طلبة باشا عصمت قومندان فرقة كفر الدوار ومعه رضا باشا ومصطفى بك عبد الرحيم وعيد بك محمد وأحمـــد بك عبد الغفار والقائمقام احمد بك عفت والقائمقام سليمان سامى داود وبدوى بك حكمدار المدفعيـــة ، وانتهت المعركة بارتداد الانجليز الى الاسكندرية .

وفى أيام ٢٠ و ٢١ و ٢٢ اغسطس هاجم الانجليز مواقع الجيش المصرى فى كفر الدوار ، فدافع عنها المصريون خير دفاع ، وانجلت هذه المعارك عن ارتداد الجيش الانجليزى .

وتعتبر معارك الميدان الغربى فى جملتها فوزا للعرابيين ، لأن الانجليز ارتدوا عن خطوط الدفاع فى كفر الدوار .

فى الميـــدان الشرقى

تقـــدم القول بأن عرابى أهمل الدفاع عن البـــلاد من ناحية الشرق ، فلما جاء الجنرال ولسلى الاسكنـــدرية كان أول عمل حربى له هو تدبير الزحف على العاصمة من ناحية قناة السويس .. ولو أن عرابى بادر عندما نشبت الحرب الى سد القناة لعجز الجنرال ولسلى عن الوصول بجيشه الى الاسماعيلية واتخاذها قاعدة للزحف ، ولكنه لم يفعل .. فكان احجامه وبالا على مصر ، وقد لعب فرديناند دلسبس فى هذه المسألة دور الخداع والتغرير لكى يفوت على العرابيين سد القناة .

فقد عقد عرابى مجلسا عسكريا فى أواخر يولية للنظر فى أمر القناة ، فاجمع رأى المجلس على وجوب تعطيلها بحيث لا يستطيع الجيش الانجليزى اجتيازها والوصول الى الشاطىء الغربى منها ، وخاصة الاسماعيلية . فلما علم بذلك دلسبس أرسل الى عرابى أن يمتنع عن قطع القناة .. وأكد له كذبا فى تلغرافه « ان الانجليز يستحيل أن يدخلوا القناة .. يستحيل » ، فانخدع عرابى بهذا التلغراف رغم تحذير اخوانه اياه ونصحهم له بأن لا يصغى الى نصيحة دلسبس اذ ليس فى امكانه أن يمنع دخول الانجليز القناة أو يبر بوعده ، ولا هو صادق فى نصحه ، وانما كان غرضه صيانة

القناة من التعطيل ، ولو ضحيت فى سبيل ذلك مصالح مصر وسلامتها .

وقد استمر على خداعه حتى وصلت البوارج الانجليزية الى بور سعيد لاحتلال القناة ، فأرسل الى عرابى تلغرافا آخر يقول فيه : « لا تعمل عملا ما لسد قنالى .. فانى هنا ولا تخش شيئا من هذه الناحية اذ لا ينزل جندى انجليزى واحد الا بصحبة جندى فرنسى ، وأنا المسئول عن كل ذلك » ، وهنالك فقط شرع عرابى فى سد القناة ، ومع ذلك كان أمره فى هذا الصدد منطويا على التردد والابهام ، فقد قال فيه : « وما فعله الانجليز يبيح لنا سد الترعة الحلوة عن السويس واذا تهدد القنال زيادة على ذلك بأعمال حربية داخلية أبيح لنا ردمه وسده لتعدى الانجليز على حيادته فباتحاد سعادتكم مع سعادة رئيس عموم أركان حرب يجرى ما فيه صالحنا » .

ولم يكد يصل هذا الأمر المبهم الى راشد باشا حسنى قومندان خط الشرق حتى كان الانجليز قد اقتحموا القناة .. وكان الحزم والحكمة يقتضيان بأن يبادر عرابى الى سد القناة قبل أن تبدأ حركات الانجليز العدائية من ناحية الشرق ، لأن الانجليز الذين خرقوا حرمة المعاهدات الدولية ونقضوا عهودهم فى مؤتمر الاستانة منذ ابتداء القتال بضربهم الاسكندرية ثم احتلالهم اياها لم يكن من المنتظر أن يحترموا حياد القناة فى قتالهم . أما اعتماد عرابى على وعد دلسبس فى حماية القناة فأمر يدل على قصر النظر ، وقد كان من عيوب عرابى فى ساعة الخطر التردد والاحجام ، فكان خطؤه فى مسألة القناة العامل الأكبر ان لم يكن العامل الوحيد لانتصار الانجليز فى معارك الميدان الشرقى واحتلالهم العاصمة .

ومن عجب أن يصر عرابى على رأيه الخاطىء مع أنه كما يقول جون نينيه كان مقتنعا كل الاقتناع قبل نشوب الحرب بضرورة منع المرور من القناة وانه قطع برأيه فى هذا الصدد اذ صرح للمستر كامرون مراسل جريدة الستاندارد بحضور المسيو نينيه

قبل ضرب الاسكندرية بقوله : «اننا سنحترم القناة ما دام العدو يحترم استقلال بلادنا .. ولكن اذا نشبت الحرب فاننا عند اول طلقة مدفع سنهدم القناة مؤقتا ، وسأفعل ذلك آسفا لأنى عالم بأن القناة طريق تجارى محايد » .

وقد كان هــــذا هو الوقت المناسب لسد القناة .. فليت شعرى ما الذى جعله يعدل عن هذا الرأى الصواب ويمتنع عن سدها حتى احتلها الانجليز ؟

احتلال بور سعيد والاسماعيلية

كان اول عمــل حــــربى للجنرال ولسلى عند وصوله الى الاسكندرية هو تدبير الزحف على العاصمة من طريق قنـــاة السويس .. ففى ظهر يوم ١٩ اغسطس اقلع الأسطول البريطانى من الاسكندرية بقيادة الأميرال سيمور ، وكان مؤلفا من ثمانى مدرعات وثمانى عشرة باخرة من بواخر النقل تقل معظم الجيش الانجليزى بقيادة الجنرال ولسلى قاصدا بور سعيد ، فبلغهـا صباح ٢٠ اغسطس . واخذت السفن الحربية تقتحم القنــاة ، ونزلت كتيبة من جنود الأسطول الى بور سعيد واحتلوا المدينة دون مقاومة من الحاميـــة : وكذلك احتل الانجليز القنطـــــرة والاسماعيلية فى هذا اليوم . ومنعت البوارج الانجليزية مرور البواخر التجارية فى القناة ، ومنع الأميرال هوايت من ناحيـة السويس دخول اية سفينة الى القناة ابتداء من ١٩ اغسطس ، ووضع فى مدخل القناة بارجة حربية تنفيذا لهذا المنع . وقـد احتجت شركة القناة على خرق حرمة القناة فذهب احتجاجها سدى . وفى ٢٠ اغسطس احتل الأميرال هوايت « شلوفة » شمال السويس على القناة .

وكانت طلائع العرابيين وعددهم نحو الفين ترابط فى «نفيشة» غربى الاسماعيلية وعلى بعد نحو ثلاثة كيلو مترات منها ، فاطلقت البوارج البريطانية قنابلها عليهم ، وكان هذا الضرب نذيرا بزحف الانجليز من هذه الناحية ..

ووصل الجنرال ولسلى الى الاسماعيلية يوم ٢١ أغسطس لتدبير حركات القتال فى الميدان الشرقى . وكان يصحبه الأميرال سيمور والاميرال هوبكنس . ووصلت على أثره بقية البواخر المقلة للجيش البريطانى ، فنزلوا الاسماعيلية ، كما وصل المدد من الهند الى السويس . وبذلك انكشفت الجبهة المصرية من ناحية القناة ، فى حين انه لو سدت القناة فى بداية القتال لما استطاع الجنرال ولسلى أن يصل بجنوده الى الاسماعيلية ويتخذها قاعدة للزحف ، ولقضى عدة أشهر قبل أن يهاجم خطوط الدفاع فى الدلتا .

وفى يوم ٢٢ أغسطس وضع الانجليز أيديهم على سكة الحديد بين الاسماعيلية والسويس وعلى ترعة المياه العذبة بين المدينتين .

ولما تم للانجليز احتلال القناة رخصوا لشركة القناة بادارة أعمالها السابقة وعادت السفن التجارية تجتاز القناة . ويتبين من ذلك ان اعتراض الشركة على خرق الانجليز حيدة القناة لم يكن سوى اعتراض شكلى كان الفرض منه منع العرابيين من سد القناة حتى لا يتعطل انتفاع الشركة منها .

وهكذا جعل الانجليز من القناة قاعدة حربية سهلت لهم مهمة الزحف على مصر ، ولولاها لما استطاعوا أن يصلوا الى الاسماعيلية بحرا وأن يزحفوا منها على العاصمة من طريق التل الكبير والزقازيق ، فوصول البوارج الانجليزية الى الاسماعيلية واتخاذهم اياها قاعدة زحفهم ما كان ليحدث لو لم تكن قناة السويس موجودة ، وكذلك كانت القناة شؤما على مصر فى جميع أدوارها الغابرة ..

احتلال نفيشة

واحتل الانجليز نفيشة بعد احتلالهم الاسماعيلية .. ولهذا الاحتلال أهميته لأن نفيشة هى أول محطة غربى الاسماعيلية ومنها تتفرع ترعة الاسماعيلية الى فرعين : أحدهما الذاهب الى بور سعيد والثانى الى السويس .

وقد سد العرابيون ترعة الإسماعيلية فى نقطة « المجفر »

غربى الاسماعيلية ليمنعوا ورود المياه العذبة الى الجيش البريطانى، فهاجم الجنرال ولسلى « المجفر » يوم ٢٤ اغسطس واحتلها بجنوده .

وتابع الانجليز زحفهم فاستولوا على « المسخوطة » يوم ٢٥ اغسطس بعد معركة عنيفة دارت بينهم وبين العرابيين ، وكان يقود الجيش المصرى فيها الفريق راشد باشا حسنى .

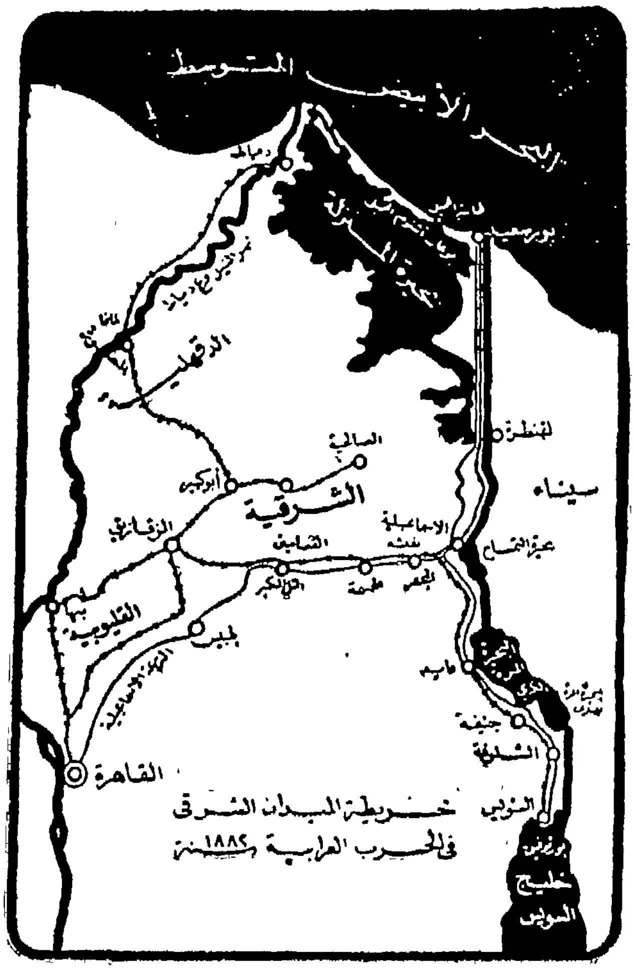
ووقع محمود باشا فهمى رئيس اركان حرب الجيش المصرى اسيرا فى يد الانجليز فكان أسره أكبر ضربة اصابت الدفاع الوطنى .

واستولى الانجليز على « المحسمة » يوم ٢٥ اغسطس ، وهى محطة تبعد عن نفيشة غربا باثنين وعشرين كيلو مترا ، وصارت المسافة بينهم وبين التل الكبير لا تتجاوز أربعة وعشرين كيلو مترا، وقد استولوا فى « المحسمة » على سبعة مدافع كروب وكمية كبيرة من البنادق وعلى قطار من الذخيرة .

وكان الاستيلاء على « المحسمة » عملا حربيا على جانب كبير من الخطر ، لأنه الخطوة الأولى التى اتخذها الانجليز للوصول الى معسكر العرابيين فى التل الكبير .. ثم احتل الانجليز القصاصين يوم ٢٦ اغسطس دون مقاومة تذكر ، فصاروا على مسافة خمسة عشر كيلو مترا من التل الكبير .

عرابى فى الميدان الشرقى

كان لأسر محمود باشا فهمى واحتلال « المحسمة » وانكشاف نية الانجليز فى الزحف على العاصمة من ناحية الشرق وقع شديد فى صفوف العرابيين .. فبادر عرابى الى الانتقال الى معسكر التل الكبير . وسار بالقطار من كفر الدوار ومعه جماعة من الضباط وطائفة من الحرس ، وكان يصحبه عبد الله نديم خطيب الثورة العرابية . فلما وصل القطار الى الزقازيق خف للقائه جمع حاشد من العمد والأعيان وأرباب الطرق والموظفين ، ونزل هنيهة بالمحطة ، وجلس بكشك هناك ، فاحتشد الناس للهتاف



الميدان الشرقي في الحرب العرابية

له وصاروا ينادون : « الله ينصرك يا عرابى . يا مولانا يا عزيز . اهلك عسكر الانجليز . يا سيمور ياوش القملة من قال لك تعمل دى العملة ؟ » . وبعد أن جلس هنيهة غادر الكشك وركب القطار وصار ينادى ويقول : « أنا لها أنا لها » .

وسار القطار الى التل الكبير بين هتاف المجتمعين وصياحهم .. ولما وصل الى التل الكبير اعد عرابى لنفسه بالمعسكر خيمة سعيد باشا والى مصر السابق وكانت من أفخم الخيام . وأقام بها يحوطه الحرس والخدم ، وتشاور وأصحابه فيما يجب عمله ، وجاء على فهمى من القاهرة يقود الالاى الأول من المشاة مددا للجيش ، ووضعوا خطة القتال التى استدعاها تبدل الموقف . فاتفقوا على مهاجمة مواقع الانجليز فى القصاصين ، وأرسلوا الى طلبة باشا عصمت فى كفر الدوار لكى يرسل لهم المدد من الرجال والعتاد . فجاءهم عيد بك محمد بالايه ، واحمد بك عبد الغفار وعبد الرحمن بك حسن بالايات الفرسان . وجاءهم من دمياط خضر بك ومعه أورطتان من العساكر السودانية ، فاستعد الجيش المصرى لاتخاذ خطة الهجوم ، وكانت قوات الانجليز موزعة كالآتى : الجنرال جراهام فى القصاصين ، والجنرال درورى لو قائد الفرسان فى المحسمة ، والجنرال ويليس فى المسخوطة .

واقعة القصاصين الأولى

هاجم المصريون مواقع الانجليز فى القصاصين يوم ٢٨ اغسطس سنة ١٨٨٢ بقيادة الفريق راشد باشا حسنى ، وكان هجوما شديدا .. فاستولوا على المواقع الأمامية للانجليز . ولكن الفرسان البريطانيين بقيادة الجنرال « درورى لو » ما لبثوا أن كروا على المصريين فأجلوهم عن هذه المواقع . وخسر الانجليز فى هذه الموقعة ٨ قتلى ، منهم ضابط و ٦١ جريحا ، منهم عشرة من الضباط وامتد فيها القتال الى الليل .

موقف تركيا

قدمنا أن موقف تركيا منذ شبت الثورة العرابية كان منطويا

على سوء النية والخطل فى الرأى ، فقد ارادت أن تتخذ من هذه الثورة فرصة لاسترداد امتيازات الاستقلال الذى نالته مصر .. فأخذت تغرى الفريقين المتخاصمين أحدهما بالآخر ، فتتظاهر تارة بتأييد الخديو ، وطورا بتأييد العرابيين ، لتكسب من وراء هذا الاغراء نفوذا وسلطانا ، ولكنها فى الواقع لم تكسب شيئا وانما استفادت انجلترا من هذه السياسة الخرقاء .

وبينما كان الانجليز يتقدمون فى داخل البلاد كانت المفاوضات ما زالت مستمرة بين اللورد دفرين سفير انجلترا فى الاستانة والباب العالى للاتفاق على خطة ارسال الجيش العثمانى الى مصر، وكانت انجلترا تقصد من هذه المفاوضات اطالة الوقت وتعطيل ارسال جيش من تركيا حتى تقمع الثورة بجيشها فلا يبقى محل لمجيء ذلك الجيش ، وقد تذرعت الى اطالة المفاوضات باشتراطها عدة شروط وهى :

(١) تحديد عدد الجيش العثمانى المزمع ارساله الى مصر بحيث لا يتجاوز خمسة او ستة آلاف جندى .

(٢) منعه من دخول مصر بطريق البر او النزول الى الاسكندرية .

(٣) عرض خططه الحربية على القيادة الانجليزية .

(٤) التعهد بسحب هذا الجيش حين جلاء الجيش الانجليزى عن مصر .

وقد رفضت الحكومة التركية هذه الشروط ، فكان ذلك سببا فى تعطيل ارسال جيشها ، ولو رضيت باى شروط تضعها انجلترا وبادرت بارسال جيشها لكان ذلك خيرا واخف ضررا من احجامها عن انفاذه ، لأن مجرد وجود جيش تركى أو اى جيش آخر بجوار الجيش الانجليزى يحول دون استقرار الأخير فى البلاد ويؤدى لا محالة الى اجلاء الجيشين معا كما حدث حين ارسلت كل من انجلترا وتركيا جيشا لاجلاء الفرنسيين عن مصر سنة

١٨٠١ ، فان وجودهما معا أدى الى جلائهما عن البلاد فى ذلك الحين .

وقد اعنلت انجلترا على لسان اللورد دفرين انها لا تقبل اشتراك الجيش العثمانى المتضمنة شروط هذا الاشتراك .

وفى غضون مهزلة المفاوضات التى جرت فى هذا الصدد طلب اللورد دفرين من سعيد باشا الصدر الأعظم ان يعلن السلطان عصيان عرابى وأن يقترن هذا الاعلان بالاتفاق على اشتراك الجيشين فى مصر ، واخيرا وقع الطرفان على هذا الاتفاق فى ٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وهو يقضى بارسال ثلاثة آلاف جندى عثمانى الى بور سعيد ، وفى الوقت نفسه أعلن السلطان عصيان عرابى فى منشور طويل نشرته صحف الاستانة يوم ٦ سبتمبر .

لم تكن انجلترا تقصد بهذا الاتفاق احترامه وتنفيذه ، فانها عجلت باخماد الثورة قبل ان تتحرك تركيا الى ارسال جيشها .. بل كان غرضها اذاعة اعلان السلطان عصيان عرابى اثناء زحفها ، لتتخذ منه وسيلة لاضعاف قوة الجيش المصرى وايقاع الفرقة والانحلال فى صفوفه ، وصرف القلوب عن تأييد عرابى فى القتال . ولو ترك السلطان وشأنه لما فكر فى هذا الاعلان لأنه فى خاصة نفسه لم يكن يعطف على الخديو توفيق ، ولا كان يميل الى تثبيت سلطته . ولكن السياسة الانجليزية الحت وتهددت واستخدمت كل الوسائط ومنها الرشوة لدى رجال المابين حتى أصدر السلطان اعلانه المشئوم ..

ولما هزم عرابى فى واقعة التل الكبير بادر اللورد « دفرين » الى ابلاغ الباب العالى انه بهزيمة العرابيين لم يعد ثمة موجب لارسال جيش عثمانى لأن الجيش الانجليزى قد انتهى من مهمة اخماد الثورة !

فاعلان عصيان عرابى والحرب قائمة هو تدبير منطو على المكر والخبث ، وضعته انجلترا لاضعاف قوة المقاومة فى مصر وتمكين

جيشها من احتلال البلاد ، وهى التى طلبت من السلطان ذلك الاعلان كما تقدم بيانه .

وقد ابتهج به الخديو وعهد الى سلطان باشا توزيع نسخ من جريدة « الجوائب » التى نشرته ، والاتصال بضباط الجيش المصرى لاطلاعهم عليه ، ووزع عليهم منشورات بهذا المعنى ، وتنقل سلطان باشا فى البلاد لدعوة العمد والأعيان الى مساعدة الانجليز ، ولا جرم أحدثت المنشورات تأثيرا كبيرا فى حالة الضباط المعنوية .

واقعة القصاصين الثانية

فى صبيحة يوم السبت ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وقعت معركة كبيرة بين المصريين والانجليز ، تعد أكبر وقائع الحرب العرابية .. هجم فيها المصريون بقيادة الفريق راشد باشا حسنى - المعروف بأبى شنب فضة - على مواقع الانجليز فى القصاصين يريدون استردادها للمرة الثانية ، واحتدم القتال نحو ثلاث ساعات ولكن المعركة انتهت بتراجع المصريين بعد أن كادوا يوقعون بالجيش الانجليزى .

وكان القائد العام لجيش المصريين هو الفريق راشد حسنى ، وتقرر أن يتحرك محمود سامى البارودى من الصالحية ليلا فيصل الى خط القتال عند مطلع الفجر للاحداق بميمنة العدو وقد عمل بترتيب الهجوم رسم سلمت منه نسخة لكل أمير من القواد ، وفى الثلث الأخير من ليلة ٩ سبتمبر قام الجيش على هذا الترتيب ، فلما وصل قريبا من العدو أخذ كل مكانه على خط النار ، ولكن العدو كان عالما بما استقر عليه الرأى اذ أطلعهم عليه الأميرالاى على يوسف خنفس (الخائن) فبادر الجيش المصرى باطلاق المدافع واحتدم القتال بين الجيشين ، أما جيش الصالحية بقيادة البارودى فانه تأخر عن الميعاد المحدد له ، ولما قرب من مكان الواقعة كان العدو متأهبا لقتاله ، فاطلق عليه مدافعه قبل أن يصل الى مكانه ، فتشتت وولى الأدبار ، فمنهم من عاد الى الصالحية

ومنهم من ذهب الى معسكر راس إلوادى ، واما راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى ومن معهما من الجيش فقد ثبتوا ثبات الأبطال حتى آخر النهار وجرح راشد باشا حسنى برصاصة فى قدمه .. وجرح على باشا فهمى فى ساقه ، وخسر كل من الجيشين خسارة كبرى من ضرب المدافع والبنادق التى كانت مقذوفاتها كالمطر فى الميدان . وكانت هذه الواقعة أشد حرب نشبت بين العرابيين والانجليز اذ كانت قوة الجيشين عظيمة وثباتهما نادر المثيل ..

ويقول جون نينيه عن هذه الوقعة : « ان اصابة القائدين الباسلين راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى فيها كانت خسارة كبرى منى بها الجيش المصرى لا تقل فى فداحتها عن أسر محمود باشا فهمى » .

ويذكر المستر بلنت نقلا عن رواية المصريين له عن المعركة ان الانجليز فوجئوا بهجوم الجيش المصرى ، وكاد الدوق أوف كنوت يقع اسيرا ، ولكن حدث نقص فى تنفيذ خطة الهجوم ، وذلك انه كان على محمود باشا سامى البارودى أن يتحرك من الصالحية فى الفى مقاتل ليلا ويهاجم فى الصباح ميمنة الانجليز ، ولكنه ضل الطريق ، فلم يصل فى الميعاد ولم يشترك فى المعركة ، وثمة نقص آخر ذكره المستر بلنت وهو أن عرابى كان واجبا عليه ان يشترك فى هذه المعركة ولو فى مؤخرة الجيش ان لم يكن فى المقدمة ، ولكنه جمد فى التل الكبير ، ولم تظهر فى الميدان جميع قوة الجيش التى كان يجب استخدامها ، وكان من عوامل الهزيمة خيانة الضابط على يوسف خنفس .

كانت هزيمة الجيش المصرى فى واقعة القصاصين الثانية ضربة شديدة كشفت الموقف الحربى ودلت على ضعف الجبهة المصرية امام الهجوم الانجليزى .. وقد ظهر الاضطراب على زعماء العرابيين وبخاصة عرابى ومحمود سامى البارودى ، وبدا اليأس يتسرب الى قلوبهم . وأدرك عرابى بعد فوات الفرصة انه لو سد قناة السويس

منذ ابتداء الحركات العدائية لما بلغ الانجليز الاسماعيلية بهـــذه السرعة ، وما تقدموا فى داخل البلاد بهذه السهولة .. فاخذ يعالج الموقف فى كثير من التردد والياس ، وبدا بعد وقعة القصاصين فى ارسال الجرحى الى العاصمة اذ اقلتهم القطر الخاصة الى العباسية ومنهم القائدان الباسلان راشد باشا حسنى ، وعلى باشا فهمى . واستدعى على باشا الروبى قومندان موقع مريوط ليتولى قيادة جيش راس الوادى . فحضر عصر يوم الثلاثاء ١٢ ستتابر سنة ١٨٨٢ ، واخذ يتفقد مواقع الجيش فى التل الكبير الذى أصبح بعد وقعة القصاصين هدف الانجليز فى هجومهم .

معركة التل الكبير

تقع شرقى محطة التل الكبير على الضفة اليسرى لترعة الاسماعيلية هضبة تعلو السكة الحديدية بثلاثين مترا وتمتـد بانحدار خفيف نحو الصالحية ونحو « القصاصين » ، وكانت خطوط الدفاع المصرية فى « التل الكبير » تبتدىء من الســـكة الحديدية ، وتمتد بطول ستة كيلو مترات متجهة من الجنوب الى الشمال . ويحمى معاقل الجند خنادق جافة عرضها من مترين الى ثلاثة وعمقها متر أو متران . ووراء الخطوط الأمامية خطوط أخرى تمتد الى معسكر التل الكبير الواقع على السكة الحديدية . ولم يكن عرابى قد اتم خطوط الدفاع قبل نشوب المعركة ، ولم تكن هى ذاتها محكمة الوضع ، لانها اقيمت على عجل ، وليس بها العدد الكافى من الجند لصد هجمات الأعداء .

وكان الجيش المصرى فى التل الكبير كما قدره الجنرال ولسلى مؤلفا من ٢٤ طابورا وثلاثة آلايات من الفرسان وســتة آلاف من البدو . وكان عرابى يشرف على حركات القتال .. ولكنه لم يتول القيادة الفعلية التى عهد بها إليه على باشا الروبى ، وبلغت مدافع هذا الجيش من ٦٠ الى ٧٠ مدفعا ويقول المستر بلنت : « أن جيش عرابى بالتل الكبير لم يكن يزيد على عشرة آلاف أو اثنى عشر ألف جنـدى ، والباقون كانوا من المجندين الاحداث الذين لم يسبق

لهم اطلاق بندقية واحدة . اضف الى ذلك ان خيرة الجنود لم يكونوا بالتل الكبير بل كانوا فى كفر الدوار بقيادة طلبة باشا عصمت، أو فى دمياط بقيادة عبد العال باشا حلمى ، وهؤلاء لم يشتركوا قط فى المعركة » .

وكان من حسن التدبير ان يستدعى عرابى على الأقل الآلاى المرابط فى دمياط لأنه كان يحتوى على خيرة الجند المدربين ، ولكنه لم يفعل .. ولم يأت من هذا الآلاى سوى اورطتين مع مسيس الحاجة اليه . وعهد عرابى بالقيادة فى معركة التل الكبير الى على باشا الروبى ، ولم يكن على حظ ما من الكفاية الحربية .. اضف الى ذلك انه كان الى ما قبل المعركة قائدا لفرقة مريوط واستدعاه عرابى الى التل الكبير بعد اصابة راشد باشا حسنى فى القصاصين ، فحضر قبل الواقعة بيوم واحد ، وهو وقت لا يكفى لتعرف مواقع القتال فى تلك الناحية ووضع الخطط الصالحة للدفاع .

وزحف الجنرال ولسلى على التل الكبير فى احد عشر الفا من المشاة و ٢٠٠٠ من الفرسان ومعه ستون مدفعا ، وكان الهجوم من الناحية الشمالية للتل الكبير اذ كانت اصلح للزحف من الجهة الجنوبية المكونة من اراض زراعية تخترقها الترع والأقنية وتعوق سير الجنود . واعتزم الزحف ليلا لكى يوفر على جنوده عناء المسير فى شمس النهار المحرقة وسط رمال الصحراء وفى أرض مكشوفة . وقد رجح عنده الزحف فى الظلام ما لاحظه حين كان يستطلع مواقع المصريين فى التل الكبير من أنهم لا يضعون الطلائع أمام الاستحكامات الا من الساعة الخامسة صباحا ، وهذا نقص كبير فى الدفاع . فاراح ولسلى جيشه يوم ٢١ سبتمبر ..

وفى مساء هذا اليوم تأهب للزحف ، ولما جن الليل بدأ الجيش الانجليزى يتحرك من القصاصين فى منتصف الساعة الثانية صباحا، وكان الظلام حالكا . واصدر الجنرال ولسلى تعليماته بأن تطفأ

كل الأنوار أثناء السير ، حتى لا يشعر العرابيون بزحفه . وكان يتقدم الجيش بعض ضباط الأسطول الذين لهم دراية بالاسترشاد بالنجوم لمعرفة خط السير فى الصحراء . ولكن هؤلاء لم يكن فى استطاعتهم الاهتداء الى مسالك الصحراء ، بل كان المرشدون الحقيقيون بعض عربان الهنادى ممن اشترى الانجليز ذممهم واتخذوهم عيونا لهم وجواسيسا .

ومن العجيب أن يقطع الجيش الانجليزى المسافة بين القصاصين والتل الكبير ـ وهى تبلغ خمسة عشر كيلومترا ـ دون أن تصادفهم طلائع المصريين ، ولو كان الدفاع محكما لما فات عرابى أن يجعل لجيشه طلائع على مسافات بعيدة ينبئونه بحركات الجيش الانجليزى ، واستمر الانجليز فى زحفهم حتى مطلع الفجر وعندئذ صارت كتائبهم على مسافة ١٥٠ ياردة من التل الكبير . وقد فوجىء المصريون بالهجوم اذ كانوا نائمين بعد أن سهروا فى سماع ذكر أرباب الطرق ، فاستيقظوا على صوت البنادق . ولم يكد يضربون نفير الحذر حتى أمر الجنرال ولسلى جنوده بالهجوم .. فابتدأ فى الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحا ، وكان على شكل نصف دائرة احاطت بمعسكر العرابيين ، فاقتحمت الجنود الانجليزية الاستحكامات الأمامية ، واطلق رماتها القنابل والبنادق عليهم ، وقتل منهم فى هذه الهجمة نحو مائتين قبل أن يصلوا الى الخنادق .

ولكن الهجوم كان فجائيا شديدا ، فاستولى الانجليز على الاستحكامات الأمامية .. وبعد هنيهة هجموا على خط الاستحكامات الثانى ، واتجهت فرقة منهم تجوس خلال الاستحكامات ففتكت بنادقهم بالمصريين فتكا ذريعا ، وهجم فرسان الجيش البريطانى بقيادة الجنرال درورى لو على ميسرة العرابيين متجهين صوب محطة التل الكبير ، فأحدقوا بها . واخذ المصريون على غرة فى الميمنة والميسرة ، وصمد للدفاع الآيان من السودانيين

بقيادة الأميرالاى محمد عبيد وظلوا يدافعون الانجليز حتى استشهد معظمهم وقتل قائدهم البطل محمد عبيد . واستبسل أيضا فى القتال آلاى من البيادة بقيادة أحمد بك فرج والاى عبد القادر عبد الصمد ، وكذلك أبلى اليوزباشى حسن افندى رضوان (الفريق حسن باشا رضوان فيما بعد) بلاء حسنافى الوقعة اذ كان قومندانا للطوبجية . فلما فوجىء المصريون بهجوم الجيش الانجليزى اختل نظامهم .. لكن اليوزباشى حسن رضوان صمد للمهاجمين واخذت مدافعه تصلى الانجليز نارا حامية وكبدتهم خسائر جسيمة ، وجرح هو فى تلك الوقعة . وقد اعجب الجنرال ولسلى ببسالته وترك سيفه احتراما له ، ولم يزد عدد الجنود الذين اشتركوا فى المعركة على ثلاثة آلاف ، أما الباقون فقد تولاهم الذعر فالقوا أسلحتهم ولاذوا بالفرار . ولم تدم المعركة أكثر من عشرين دقيقة لم تزد خسائر الانجليز فيها على ٥٧ قتيلا منهم ٩ ضباط و ٤٨ صف ضابط وجنديا و ٤٠٢ جرحى منهم ٢٧ من الضباط ، أما خسائر المصريين فقد تراوحت بين ١٥٠٠ قتيل أو ٢٠٠٠ ، وغنم الانجليز مدافع المصريين واستولوا على جميع مهمات الجيش وذخائره ومؤونته ..

وكانت معركة التل الكبير سلسلة فضائح انتهت بهزيمة الجيش المصرى ، لم يحصل فيها قتال بالمعنى الصحيح الا من ثلاثة آلاف من الجند . وكانت فيما عدا ذلك أشبه بمهزلة أو مأساة ، فهى صفحة محزنة من تاريخ مصر الحربى والقومى ، وقد خلت من البطولة التى كان يمكن أن تغير من مصير المعركة أو تخفف من فضاضة الهزيمة وتقوى روح المقاومة فى البلاد .

كارثة الاحتلال

الهـزيمـة

بلغ عرابى العاصمة ظهر يوم الهزيمة ـ الأربعاء ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ـ وكان اعضاء المجلس العرفى مجتمعين منذ ساعات طويلة فى « قصر النيل » ينتظرون أنباء المعركة ، وبقى يعقوب باشا سامى ملازما مكتب التلغراف دون أن يكاشف احدا بما يتلقاه من الاخبار ، الى ان انبأ الحاضرين أن ناظر الجهادية « عرابى » قادم على عجل الى العاصمة ، فايقنوا انها الهزيمة لا محالة .

وبعد قليل جاء عرابى يصحبه على الروبى ، وكان وجهه مكفهرا وعلائم الاضطراب بادية عليه .. فجلس على مقعده وظل صامتا لا يتكلم مدة عشرين دقيقة ، ثم عقد مجلس حافل فى قصر النيل من اعضـــاء المجلس العرفى وبعض الأمراء والكبراء ، واخذ عرابى يشرح لهم أسباب الهزيمة وكيف فوجىء بهجوم الانجليز ونسب الى الجند عدم اطاعة أوامره فى القتال . ثم استشار الحاضرين فيما يجب عمله ، وهل يجب الاستمرار فى المقاومة أم ان الصواب فى التسليم .. فاختلفت الآراء ، وكثر اللغط ، وتشعبت افكار القوم ، ثم قام الأمير ابراهيم أحمد ابن عم الخديو وحث على الاستمرار فى المقاومة قائلا : « القاهرة غاصة بالجند ومخازن الحربية ملأى بالسلاح والذخيرة والميرة ، ووسائل الدفاع متوافرة، والواجب هو الدفاع ما دام فينا بقية » . فاستحسن الحاضرون قوله ظاهرا ، ولكن نفوسهم كانت قد دب اليها اليأس وجنحت الى التسليم ، واستقر الرأى فى هذا الاجتماع على انشاء خط دفاعى فى ضواحى العاصمة .

وانفاذا لهذا الرأى ذهب عرابى الى العباسية يصحبه محمد مرعشلى باشا باشمهندس الاستحكامات ومحمد رضا باشا قائد لواء الفرسان واللواء حسن باشا مظهر لاختيار الموقع الملائم لخط الدفاع . وطلب من محمد مرعشلى باشا وضع تصميم لانشاء خط

دفاعى امام المطرية شرقى عين شمس ليمتد يمينا الى الجبل ويمتد شمالا الى ترعة الاسماعيلية ثم ينعطف الى النيل عند فم رياح ترعة الاسماعيلية بالقرب من شبرا ، ثم ذهبوا الى مركز الطوبجية .

قال عرابى فى هذا الصدد « واردنا استعراض العساكر الموجودة هناك فلم نجد الا الف رجل من خفراء البلاد بغير ضباط، ونحو اربعين نفر سوارى فى مركز عساكر الخيالة مع احمد بك نير ، فقال الأميرالاى المذكور انه يقف فى وجه العدو ويقاتله برجاله الاربعين حتى يموت معهم ولكن ما الفائدة وليس لدينا جيش يقوى على الدفاع ، فلما شاهدنا ذلك علمنا أن الأولى حقن الدماء وحفظ القاهرة من غوائل الحرب والدمار » .

ثم رجع عرابى ومن معه الى المجلس العرفى بقصر النيل وأخبر الحاضرين بما شاهده .. فاستقر رأى الحاضرين على التسليم وكتابة عريضة الى الخديو يلتمسون فيها العفو عنهم ويقدمون له الخضوع ويعتذرون عن افعالهم الماضية . فحرروا العريضة وأمضاها عرابى ومن معه ، وأرسلوها مع وفد مؤلف من محمد رؤوف باشا حكمدار السودان السابق ، وبطرس غالى باشا وكيل الحقانية ، وعلى باشا الروبى ، ويعقوب سامى باشا .. ورؤوف باشا هو الذى تولى فيما بعد رياسة المحكمة العسكرية التى حكمت على عرابى وصحبه بالاعدام .

احتلال العاصمة

لم تكد تنتهى معركة التل الكبير بما انتهت اليه حتى أمر الجنرال ولسلى فرقة الفرسان بقيادة الجنرال « درورى لو » أن تبادر بالزحف على القاهرة لاحتلالها . وأمر الجيش الهندى بقيادة الجنرال مكفرسن باحتلال الزقازيق لمنع الجيش المصرى من استخدامها قاعدة لمواصلات السكك الحديدية فسار

الفرسان نحو مدينة بلبيس واحتلوها ظهر يوم ١٣ سبمتبر ، وحجز بها الجنرال درورى لو التلغرافات التى اعدها عرابى الى مديريات الوجه البحرى بحشد الجنود لمقاومة زحف الجيش البريطانى ، واحتل الجنرال مكفرسن الزقازيق فى ذلك اليوم دون مقاومة واستولى فيها على خمسة قاطرات مشحونة بالذخيرة والمؤن .

واستأنف الجنرال درورى لو الزحف قاصدا العاصمة يوم الخميس ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، فتحرك من بلبيس فى منتصف الساعة الخامسة صباحا فى قوة لا يمكن أن تكفى فى الأوقات العادية لاحتلال العاصمة ، ولكن هزيمة التل الكبير قد قضت على روح المقاومة .

بلغ الجنود الانجليز العباسية فى نحو الساعة الرابعة مساء وعسكروا فى ثكنات الفرسان بها .. وأرسل الجنرال درورى لو الى محمد رضا باشا قائد الجند بالعباسية يطلب اليه تجريد الجنود من اسلحتهم . وكان عرابى وصحبه مجتمعين فى دار على فهمى باشا الذى لم يزل جريحا ملازما بيته بعد اصابته فى معركة القصاصين ، فتلقى فى نحو الساعة السادسة مساء تلغرافا من قائد العباسية بوصول طلائع الانجليز ، فأرسل عرابى يامره بالتسليم للقائد البريطانى .

ولما انفض الاجتماع خرج عرابى يصحبه طلبة باشا عصمت ومحمود سامى باشا البارودى والمسيو جون نينيه .. فأشار عليهم المسيو نينيه بأن يسلموا أنفسهم كأسرى حرب للقائد البريطانى ، فعمل عرابى وطلبة بنصيحته ، وتهيأ الاثنان للذهاب الى العباسية لكى يسلما نفسيهما للجنرال درورى لو . اما محمود سامى البارودى فلم يقبل هذه النصيحة وقال « انى ذاهب الى منزلى فاذا ارادونى فانهم يعرفون أين يجدوننى » ، وذهب عرابى الى منزله يصحبه طلبة باشا والمسيو نينيه ، واخذ يتأهب لتسليم نفسه ، فلبس رداءه العسكرى واخذ سيفه . وفى نحو

الساعة التاسعة مساء ركب عربة يصحبه طلبة باشا ، وأمر سائقها بالتوجه الى ثكنات الجيش بالعباسية ، فلما بلغاها جيء بهما الى الجنرال درورى لو ، فسلما سيفهما اليه ، فامر باعتقالهما فى غرفة من غرف الثكنة . وسارت كتيبة من الفرسان البريطانيين ليلا الى القلعـــة من طريق الجبل واحتلتها وسلمت الحاميـــة المصرية .

وتولى تسليم القلعة الاميرالاى على يوسف خنفس ذلك الخائن الذى فتح لهم الطريق فى وقعة التل الكبير .

واحتل الانجليز ايضا قصر النيل وقشلاق عابدين ، وسلم الجنود الذين كانوا بهما أسلحتهم .. فكان ذلك ايذانا باحتلال العاصمة .

وقد خرج بعض الأهلين من سكان باب الشعرية والحسينية يحملون الهراوات بقصد محاربة الانجليز . ولكن محافظ العاصمة ابراهيم بك فوزى رأى فى هذه الحركة عملا لا يجدى ولا يؤدى الا الى سفك الدماء ، فردهم وأخذ يرقب حركاتهم منعا لوقوع الاحتكاك بين الانجليز والأهلين .

واحتل الانجليز بعد ذلك مواقع الدفاع الأخرى دون مقاومة ، ففى كفر الدوار حين علم ضباط الجيش فى مواقع الدفاع الأخرى بسقوط التل الكبير واستسلام عرابى استسلموا مثله . وقد علم طلبة باشا عصمت فى كفر الدوار بالهزيمة يوم وقوعها ، فسافر على عجل الى العاصمة فبلغها مساء ١٣ سبتمبر ، والتقى بعرابى وسلم نفسه معه الى القائد درورى لو .

ولما علم الجند بسفره تركوا أسلحتهم لضـــباطهم وتشتتوا ذاهبين الى بلادهم ، وكذلك فعل العربان ، وحضر السير ايفلن وود أحد قواد الجيش البريطانى ــ الذى عين فيما بعد سردارا للجيش المصرى ــ فى ١٦ سبتمبر على رأس كتيبة من الجند موقع

الحصن المنيع الذى انشاه عرابى وكان اول خطـوط الدفاع ، ويعرف بعزبة « أصلان » فاحتله .. وكان يصحبه الى ذلك المكان ضباط من اركان حربه وآخرون من قبل الخديو ، وامر بنسف الحصن .. فنسف وسلم الضباط المصريون اسلحتهم ، وأعلنوا طاعتهم للخديو ، واستولى الانجليز فى كفر الدوار على ما بها من المدافع والبنادق والذخائر .

وحين علم محمود سامى البارودى قائد موقع الصـــالحية بالهزيمة ، تركها ومن معه من الضـباط وركبوا قطرات السـكة الحديدية الى المنصورة ومنها الى طنطا ثم الى ايتاى البارود فكوم حمادة فبولاق الدكرور ، وانحل نظام الجند ، وتوجه كل منهم الى بلده . وارتأى البارودى وجوب استمرار الدفاع مع اخلاء القاهرة والانسحاب بالجيش الى الصعيد ثم الى السودان اذا اعجزهم الدفاع . وارسل الى عرابى تلغرافا من المنصورة يطلب منه اغراق مديريتى القليوبية والشرقية لتعطيل زحف الجيش الانجليزى ثم الاستيلاء على جميع المراكب فى النيل وشحنها بالذخيرة وتوجيهها الى الصعيد مع الجيش . ولكن عرابى رفض العمل بهـذا الرأى واصر على التسليم ، وسجن البارودى بالقاهرة ضمن من سجن من العرابيين .

وتسلم الانجليز حصون رشيد ، وتوقفت حامية أبو قير عن التسليم فارسل اليها الخديو يوسف شهدى باشـا فسلمت ، وسلمت كذلك حامية مريوط ، ثم حامية دمياط .

تاليف وزارة شريف باشا (الرابعة)

تبين فى غضون الحوادث السابقة أن وزارة اسماعيل راغب لا قبل لها بمواجهة المشاكل التى استهدفت لها البلاد وانها أضعف من أن تقوم باعباء الحكم وسط هذه العواصف المختلفة ، فاستقالت لذلك ، واستدعى الخديو رياض باشا من أوربا فقـدم اليها فى

اواسط شهر أغسطس سنة ١٨٨٢ ، وبعد قدومه عهد الى شريف باشا تأليف الوزارة ، فلبى دعوته وألف الوزارة على النحو الآتى :

شريف باشا للرياسة والخارجية . رياض باشا للداخلية . عمر باشا لطفى للحربية والبحرية . على حيدر باشا للمالية . على باشا مبارك للأشغال . أحمد خيرى باشا للمعارف . حسين فخرى باشا للحقانية ــ محمد زكى باشا للاوقاف .

والوزارة كما ترى مؤلفة من أعضاء تجمعهم فكرة تأييد سلطة الخديو ومخالفة العرابيين ، فشريف باشا قد انفصل عنهم من عهد استقالته من الرياسة فى فبراير سنة ١٨٨٢ ، ورياض باشا معروف بكراهيته لهم ، وكذلك عمر باشا لطفى ، وعلى باشا مبارك كان وزيرا فى وزارة رياض باشا الأولى التى أسقطتها الثورة فى سبتمبر سنة ١٨٨١ وبقية الوزراء من الموالين للخديو .

* * *

محاكمة العرابيين

المحاكمة

اعتقل زعماء الثورة العرابية ، واعتقل أيضـــا كثيرون من الضباط ، والقوا فى السجون رهن التحقيق والمحاكمة ، وكثرت السعايات والوشايات ، فأخذ المغرضون يشون بخصومهم بتهمة انهـم كانوا من الخارجين على الخديو ، حتى امتلأت السـجون بالمتهمين ، وبلغ عدد المقبوض عليهم اكثر من ٢٩٫٠٠٠ نفس .

ووضعت الحكومة يدها على جميع زعماء الثورة ، ما عدا السيد عبد الله نديم ، فانه اختفى عن الأنظار ولم تستطيع عيون الحكومة ان تعرف مقره ، وقبض على كبار الضباط المعروف عنهم التشيع لعرابى او الذين اشتركوا فى حوادث الثورة ، وغصت السجون بكبار المعتقلين .. نذكر منهم : عرابى باشا ومحمود باشا سامى البارودى ومحمود فهمى باشا ويعقوب سامى باشـا وعبد العال حلمى باشـا وعلى فهمى باشـا وطلبة باشا عصمت (السبعة الزعماء) وحسن باشا الشريعى وزير الأوقاف فى وزارتى راغب والبــارودى وعبـد الله باشـا فكرى وزير المعارف فى وزارة البارودى الخ ..

وقد حوكم عرابى وصحبه امام محكمة عسكرية مصرية بتهمة عصيان الخديو ، واهتم بأمره منذ القبض عليه المستر ولفرد بلنت المستشرق الانجليزى الذى ناصره منذ ابتداء الحركة والمشهور بمناصرته لمصر والمصريين ، وسعى جهده فى انقاذ عرابى من الاعدام ولم يكن هذا السعى من صالح عرابى فى شىء ، لأن حياته فى الواقع لم تكن لها قيمة بعد الهزيمة ، وقد اختار له المستر بلنت بالاتفاق مع السلطات الانجليزية اثنين من المحامين الانجليز وهما المستر برودلى والمستر نابيه للدفاع عنه امام المحكمة العسكرية .

واستقر راى الانجليز على ان يقدم عرابى وصحبه امام المحكمة العسكرية بتهمة عصيان الخديو ، واستبعاد تهمة مذبحة الاسكندرية وتهمة احراقها ، وان يعترفوا بجرمهم ، وان يستبدل الخديو بحكم الاعدام النفى المؤبد ، وان يصدر بعد ذلك مرسوم بمصادرة املاكهم مع عدم المساس بأملاك زوجاتهم وان تقرر الحكومة لكل منهم معاشا يفى بحاجتهم مع حرمانهم رتبهم والقابهم، فارتضى العرابيون هذا المصير . وعلى ذلك جرت المحاكمة ، وكانت بعد الاتفاق المتقدم ذكره محاكمة صورية عرفت نتائجها قبل انعقاد المحكمة . ولم تدم سوى يوم واحد .. اذ انعقدت المحكمة العسكرية برياسة محمد رؤوف باشا يوم ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ بوزارة الاشغال بقاعة مجلس الشيوخ السابق ، الساعة التاسعة ونصف صباحا لمحاكمة عرابى أولا . ولم يكن الجمهور يعلم بالموعد المحدد لانعقادها، فلم يحضر الجلسة سوى نحو اربعين من النظارة، منهم عشرون من مراسلى الصحف ، وكان مقررا ان يتولى الاتهام امام المحكمة العسكرية المسيو بوريللى رئيس قلم قضايا الحكومة . ولكنه تنحى من الجلوس فى مركز المدعى العمومى ، اذ رأى أن المحاكمة مهزلة متفق عليها من قبل ، فجلس بدله قومندان الحامية الانجليزية فى التحقيق ، واخذ مجلسه قريبا من المكان الذى اعد لعرابى ، وبعد ان اخذ اعضاء المحكمة مجالسهم مرتدين ملابسهم الرسمية جيء بعرابى من السجن .

وكان قبل مجيئه قد وقع على وثيقتين ... الاولى يعترف فيها بارتكابه جريمة العصيان ، ويتعهد فى الثانية بأن لا يبرح الجهة التى تعينها الحكومة الانجليزية لمنفاه .

دخل عرابى قاعة الجلسة مرتديا بدلة عادية ، وجلس فى المقعد الذى خصص له ، وجلس محامياه الى جواره ... فتلا عليه رؤوف باشا رئيس المحكمة ورقة الاتهام مخاطبا اياه بما يأتى :

أحمد عرابى باشا .. انت متهم امام هذه المحكمة بناء على طلب لجنة التحقيق بجريمة العصيان ضد الجناب الخديوى مخالفا المادتين ٩٦ من القانون العسكرى العثمانى و ٥٩ من قانون الجنايات العثمانى فهل تقر بالتهمة ام لا ؟

فاجاب عرابى « ان محاميى سيجيبان بالنيابة عنى » .

فتلا المستر برودلى بالفرنسية ورقة امضاها عرابى وفيها يعترف بجريمة العصيان ، وتلا كاتب الجلسة صيغتها العربية .

وعندئذ قرر رؤوف باشا بان المحكمة ستختلى للمداولة وان الجلسة أوقفت على أن تنعقد فى الساعة الثالثة بعد الظهر .

وانعقدت المحكمة فى الموعد المذكور ، وكان عدد الحاضرين فى هذه المرة كبيرا .. فلما فتحت الجلسة أمر رؤوف باشا كاتب الجلسة بتلاوة الحكم ، فتلاه .. وهو يقضى على عرابى بالاعدام ، وتلا ، عقب صدور الحكم ، الأمر الخديوى بابدال الاعدام بالنفى المؤبد . واستغرقت تلاوة الحكم وأمر الخديو بتعديله عشر دقائق ثم انفضت الجلسة .

وحوكم زملاء عرابى الستة وهم : محمود باشا سامى البارودى ومحمود باشا فهمى ويعقوب سامى باشا وعبد العال حلمى باشا وعلى باشا فهمى الديب وطلبه باشا عصمت بالطريقة التى حوكم هو بها ، أى أنهم اعترفوا بجريمة العصيان . وقد رفض على باشا الروبى أن يدافع عن نفسه بواسطة المستر برودلى ، ورفض الاقرار الذى كتبه عرابى فلم يحاكم معهم .. وصدر الأمر بنفيه عشرين سنة فى مصوع .

وفى ٧ ديسمبر اجتمعت المحكمة لمحاكمة كل من : طلبه باشا عصمت ، وعبد العال باشا حلمى ، ومحمود سامى باشا البارودى وعلى فهمى باشا الديب فحكمت عليهم بالاعدام ، وتلا رئيس المحكمة امر الخديو بتعديله الى النفى المؤبد ايضا .

وفى يوم ١٠ ديسمبر حوكم محمود باشا فهمى ويعقوب سامى باشا فحكم عليهما ايضا بالاعدام ، مع تعديل الحكم الى النفى المؤبد ».

واصدر الخديو امرا فى ١٤ ديسمبر بمصادرة املاك الزعماء السبعة المحكوم عليهم واموالهم ، وحرمانهم حق امتلاك اى ملك فى الديار المصرية بطريق الارث او الهبة او البيع او باى طريقة ما مع ترتيب معاش سنوى لهم بالقدر الضرورى لمعيشتهم . وقضى هذا المرسوم ببيع أملاكهم ، وما ينتج من هذا البيع من صافى الثمن يخصص لسداد التعويضات التى ستعطى لمن أصيبوا فى حوادث الثورة ».

وفى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٢ صدر أمر خديوى آخر بتجريد السبعة الزعماء من جميع الرتب والالقاب وعلامات الشرف التى كانوا حائزين لها .

تنفيذ الحكم فى عرابى وزملائه

اختارت الحكومة الانجليزية جزيرة « سيلان » بالهند منفى للزعماء السبعة .. فاجتمعوا فى سجن الدائرة السنية يوم ١٣ ديسمبر ليتداولوا فى تجهيز معدات الرحيل ، و ٢٥ ديسمبر نفذ فى الزعماء حكم التجريد من رتبهم والقابهم ، بأن جمعوا فى الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم فى ساحة « قصر النيل » وتلا عليهم على غالب باشا وكيل وزارة الحربية أوامر التجريد ، واعدت الحكومة لرحيل الزعماء الباخرة مريوتس « مريوط » وهى باخرة انجليزية حمولتها ١٤٠٠ طن استأجرتها خصيصا لنقل الزعماء وذويهم وحاشيتهم الى جزيرة سيلان ، وانزلتهم فيها بالدرجة الاولى ». وعهدت الى الكولونل موريس بك وهو ضابط انجليزى كان فى خدمة الحكومة أن يرافقهم حتى يصلوا الى منفاهم ».

ففى مساء ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٨٢ أعدت لهم قطارا خاصا فى لكنة قصر النيل لنقلهم الى السويس ، فركبوه هم ومن اختاروهم من الأهل والخدم ، وودعهم المستر برودلى محاميهم على رصيف القطار ، وحضر سفرهم السير شارلس ويلسن مندوب السلطة الانجليزية ، وتحرك بهم القطار فى الساعة العاشرة مساء ورافقهم الى السويس المستر نابييه ، وكان يحرسهم رهط من الجنــود المصريين وآخرون من الجنود الانجليز ، فبلغوا ميناء السويس الساعة الثامنة من صبيحة يوم ٢٨ ديسمبر ، وهناك ركبوا الباخرة « مريوتس » واقلعت بهم فى الساعة الواحدة بعد الظهر الى ثغر كولومبو ميناء سيلان فوصلوا اليه مساء ٩ يناير سنة ١٨٨٣ ، ونزلوا الى البر فى صبيحة اليوم التالى .

* * *

الزعيم في المنفى

في جزيرة سيلان

اقام عرابي وزملاؤه الستة في جزيرة « سيلان » ، وكانت حياتهم في المنفى حياة الم وحزن ، وبؤس وشقاء .. اذ انقطعت صلتهم بالناس ، وطال اغترابهم عن الوطن ، وبعدت الشقة بينهم وبين اهلهم وذويهم ، ولم يكترث لهم أحد ، ولم يعطف عليهم أحد ، والناس مع الغالب .

وجادت قريحة البارودي بشعر مؤثر في الحنين الى الوطن والحزن لفراقه ، مما يعد آية في البلاغة ، ويدلنا على مبلغ ما عاناه المنفيون من الآلام ، وهو وان كان يصور آلام نفسه وما يجيش به صدره ، لكنه في شعره يصور لنا حالة الزعمـــاء المنفيين من العرابيين عامة .

قال يصف الرحيل من ارض الوطن :

محا البين ما ابقت عيون المها مني ... فشبت ولم أقض اللبانة من سني
عناء ويأس واشـتياق وغربة ... الا شد ما القاه في الدهر من غبن
فان اك فارقت الديار فلي بها ... فؤاد اضلته عيون المهـا عني
بعثت به يوم النوى اثر لحظة ... فأوقعه المقدور في شرك الحسن

الى ان قال :

ولما وقفنـا للوداع وأسلبت ... مدامعنـا فوق الترائب كالمزن
اهبت بصبري ان يعود فبزني ... وناديت حلمي أن يثوب فلم يغن
وما هي الا خطـرة ثم اقلعت ... بنا عن شطوط الحي اجنحة السفن
فكم مهجة من زفرة الشوق في لظى ... وكم مقلة من غزرة الدمع في دجن
وما كنت جربت النوى قبل هذه ... فلما دهتني كدت أقضي من الحزن
ولكنني راجعت حلمي وردني ... الى الحزم رأي لا يحوم على افن
ولولا بنيـات وشـيب عواطل ... لما قرعت نفسي على فائت سني

وتعاقبت السنون على عرابى وزملائه فى منفاهم بتلك الجزيرة النائية .. فضاقت صدورهم لطول الغربة ، وعدم العمل اطلاقا ، ورداءة المناخ ، وافتقارهم لمن يعطف عليهم أو يسال عنهم ، فساءت لذلك حالتهم المعنوية ، ووقع الخصام بينهم .. واقبل بعضهم على بعض يتلاومون .. وبدا الخصام اول ما وقع بين عرابى وطلبة وعبد العال .

وفى سنة ١٨٩٠ انتقل محمود باشا سامى البارودى بعائلته بعد ان تزوج من كريمة يعقوب سامى باشا الى مدينة « كندى » التى تبعد ٧٤ ميلا عن كولومبو . وترك عرابى وبقية زملائه بكولومبو متنافرين متخاصمين ، وتبعه يعقوب سامى باشا وقطن كندى .. وكذلك فعل طلبة باشا عصمت ، وفى سنة ١٨٩٢ انتقل اليها عرابى ثم على باشا فهمى .

مصير عرابى وزملائه

توفى عبد العال باشا حلمى يوم ١٩ مارس سنة ١٨٩١ بكولومبو ودفن بها . وذهب محمود باشا فهمى الى كندى ــ عاصمة الجزيرة ــ لتبديل الهواء .. وهناك ادركته الوفاة ليلة ١٧ يولية سنة ١٨٩٤ ودفن بها .

وفى فبراير سنة ١٩٠٠ رخصت الحكومة المصرية لطلبة باشا عصمت بالعودة الى مصر اذ ساءت صحته . وقررت جمعية من الاطباء انه اذا لم يعد الى بلاده فانه لا يعيش أكثر من خمسة أشهر، وصادق على هذا القرار حاكم الجزيرة .. فعاد الى مصر ، ولكنه لم يعش اكثر من المدة التى توقعها الأطباء ، وتوفى فى ذلك العام ودفن فى قرافة الامام الشافعى .

وفى شهر اكتوبر سنة ١٩٠٠ توفى يعقوب باشا سامى ودفن بجوار قبر محمود باشا فهمى بكندى ، وكان قد صدر العفو عنه

ورخص له بالعودة الى مصر ، ولكن وافاه القدر قبل أن يبلغه الحاكم امر العودة .

واصيب محمود باشا سامى البارودى بارتشاح فى القرنيتين افقده نور عينيه . وقررت جمعية الأطباء لزوم عودته الى مصر لمعالجته فى المناخ الذى ولد فيه والفه . وصادق على ذلك حاكم الجزيرة ، فأصدر الخديو عباس حلمى الثانى امرا بعودته الى مصر . فرجع فى شهر سبتمبر سنة ١٩٠٠ ، وعفا عنه الخديو ومنحه حقوقه المدنية ورد اليه أملاكه الموقوفة وحصل على متجمد ريعها من ديوان الأوقاف ، ولكن لم يعد اليه بصره ، وتوفى فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٠٤ .

وفى ١١ يونيه سنة ١٩٠١ صدر عفو الخديو عباس ايضا عن عرابى وعلى فهمى .. فبارح على باشا فهمى الجزيرة فى شهر اغسطس سنة ١٩٠١ وجاء القاهرة فى اول سبتمبر . وجاءها عرابى فى اول اكتوبر سنة ١٩٠١ ، وكانت البلاد تغلى سخطا على الاحتلال وسياسته لما بدا من الحكومة البريطانية من نقض عهودها فى الجلاء ووضع يدها على حكومة البلاد ومرافقها .

وكانت عودة عرابى بوساطة الانجليز ، وادلاؤه بعد رجوعه بتصريحات فيها تأييد للاحتلال وسياسته ، سببا فى استقبال الأمة له بالفتور والسخط . وبدا الفرق بينه وبين البارودى من هذه الناحية .. فقد لزم البارودي العزلة بعد عودته وامتنع عن الخوض فى الاحاديث السياسية . وكان ذلك منه عين الحكمة والصواب ، اما عرابى فقد جلب على نفسه بأحاديثه سخط الصحافة والرأى العام ، وكانت وفاته رحمه الله يوم ٢١ سبتمبر سنة ١٩١١ .

شخصية عرابى

فى شخصية عرابى تجتمع المحاسن والاضداد .. ولقد كان لكل منهما اثره فى الدور الذى قام به فى تاريخ مصر السياسى . ولا بد لكى تكون لدينا صورة صحيحة لهذه الشخصية الكبيرة ان نعرف مزاياها ونقائصها ، او ما لها وما عليها ..

اذا حللنا شخصية عرابى نجد انه كان بلا نزاع ذا شخصية قوية جذابة تؤثر فى الافراد والجماعات .. فله من هذه الناحية اخص صفات الزعماء . ولولا هذه الموهبة لما استطاع ان يجتذب اليه محبة ضباط الجيش وجمهرة الامة ، وينال ثقتهم ويملى ارادته عليهم ، وكانت له ايضا موهبة الكلام والخطابة والصوت الجهورى . وهذه ايضا من مزايا الزعماء التى تحببهم الى نفوس الجماهير .. وقد كان لخطبه تأثير السحر فى نفوس سامعيه .. وكان بلا مراء يريد الخير لبلاده ، ويريد لها الحرية والاستقلال وعلى هذا الاساس قامت دعوته .

على انه الى جانب ذلك لم يكن على حظ كبير من الكفاية السياسية وبعد النظر .. ومن هنا جاء شططه فى كثير من المواطن ، وعدم تقديره للامور وملابساتها .. وعرابى معذور فى ذلك لانه لم ينل حظا كبيرا من الثقافة والالمام بشؤون السياسة وأطوارها .. فهو لا يعدو ان يكون ضابطا من تحت السلاح ، لم يتخرج فى المدارس الحربية ولا المدنية .. ولم يعلم نفسه بنفسه تعليما ناضجا ، ولم يكن له من العبقرية ما يغنيه عن الدرس والاطلاع والتحصيل ..

وكان علمه محدودا .. فقد تلقى فى الأزهر بعض قشور من العلوم الفقهية واللغوية ، ولم يطل مكثه به اكثر من اربع سنوات .. ولم يزد محصوله العلمى عن بعض الآيات الشريفة والاحاديث النبوية ، استظهرها وتفهم معناها . وبعض المطالعات الادبية من آثار السلف الصالح ، وكتابات الصحف الوطنية فى ذلك الحين ..

وهذا المحصول لا يكفى لتكوين الراس المدبر للثورات ، القدير على تذليل المعضلات وحسن التصرف فيما يعرض على البلاد من أحداث وازمات .

حقا ان كثيرا من الزعماء لم يكونوا فى محصولهم العلمى يزيدون على عرابى ومع ذلك نجحوا فى زعامتهم ودعوتهم .. فالظروف السياسية لها دخل كبير فى نجاح الزعيم او اخفاقه .. وسنعرض فيما يلى الأسباب لاخفاق عرابى والثورة العرابية ..

ان الفرق كبير بين عرابى وبين كافور مثلا فى ايطاليا ، أو وشنطون فى أمريكا ، أو كوشيسكو فى بولونيا ، أو كوشوت فى المجر .. ولو وفقت الثورة العرابية الى زعيم مثل كافور لسارت فى سبيل الفوز ، ولعرف كيف يدير دفة السفينة بمهارة وكفاية ..

قد يكون لعرابى بعض الشبه بغاريبلدى فى قلة المحصول العلمى والسياسى .. ولكن غاريبلدى كان يترك لرجال السياسة تصريف المعضلات السياسية . أما عرابى فكان على جانب كبير من الاعتداد بالنفس ، اذ كان يعتقد فى نفسه القدرة على تصريف الشئون السياسية كافة .. ولو انه استعان برجل من معاصريه قدير فى شؤون السياسة ، كشريف ، لكان ممكنا أن تسير الثورة فى سبيل النجاح الى النهاية . ولكنه على العكس قد عمل على التخلص منه حتى أقصاه عن الوزارة كما بينا فى موضعه .

* * *

ومما يؤسف له ان عرابى كان على جانب كبير من الغرور .. وقد كان ذلك من العوامل الفعالة فى اتجاهه السياسى ، فمن ذلك انه حين تحفزت انجلترا لضرب الاسكندرية ابان له بعض مواطنيه ضرر الحرب وسوء مستقبلها ، فكان يقول : « أنا أقوى من دولة الانجليز ودولة فرنسا » ، وقال : « ان الطوابى والعساكر المصرية لا تقاوم الانجليز فقط ، بل جميع الدول مدة ثلاث سنين .. بحيث لا يمكن لأحد الدخول الى مصر » .

وكان ظنه أن الانجليز لاطاقة لهم على قتال البر ، وأن قوتهم محصورة فى البحر ، وفى ذلك كان يردد هو وانصاره كلمتهم المأثورة : « الانجليز كالسمك .. اذا خرج من البحر هلك » وهذا من الغرور الناشىء عن الجهل لا محالة .

وكان يصرح بأنه لن يخضع لأوربا أو لتركيا ، ويقول فى هذا الصدد : « فليرسلوا لنا جيوشا أوربية او هندية او تركية .. فانى ما دمت وبى رمق فانى سادافع عن بلادى ، وعندما نموت جميعا يمكنهم ان يمتلكوا البلاد وهى خراب » .

ولم يكن هذا من الواقع فى شىء ..

ثم انه لم يكن أيضا على حظ كبير من الكفاية الحربية ، لانه لم يتلق تعليما عسكريا نظاميا ، ولم يتمرن على ضروب القتال ، ولا خاض غمار الحروب فى ماضيه قبل الثورة ، ولا فى حروب الثورة نفسها ، فانه لم يتولى خلالها اية قيادة فعلية .. بل كان يندب غيره من القواد ليحمل عبئها فى ميادين القتال ..

ففى ضرب الاسكندرية لم يباشر الدفاع عن الحصون كما رايت مما أوضحنا ، ولما انسحب الى كفر الدوار عهد بقيادة الجيش المرابط بها الى طلبة باشا عصمت . ولما تحرجت الحال فى الشرق وانتقل الى رأس الوادى لم يتسلم زمام القيادة فى معركة القصاصين التى كانت اشد معركة نشبت بين المصريين والانجليز ، بل عهد بها الى الفريق راشد باشا حسنى والأميرالاى على باشا فهمى ، وترك القيادة فى معركة التل الكبير الى على باشا الروبى .

ومع انه كان مثال الشجاعة والجراة فى الدور الاول من الثورة ، فان هذه الشجاعة لم تلازمه مع الاسف فى واقعة التل الكبير ، ولا فى التسليم والمحاكمة .



عرابي باشا بعد عودته من المنفى

فشخصية عرابى كانت تجمع بين المحاسن والأضداد ، حقا ان الرأى فى شخصيته قد تغير لو كتب له الفوز والنجاح .. فلو أن الثورة قد انتصرت لتضاءلت عيوبه الى جانب مزاياه ومحاسنه ، وهكذا شأن الحوادث والأحداث لها دخل كبير فى تقدير الرجال والأشخاص .

والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهى ، ولام المخطىء الهبل(١)

اسباب اخفاق الثورة

فلنتكلم الآن عن أسباب اخفاق الثورة العرابية ، فلعلها تلقى بعض الضوء على شخصية عرابى والظروف التى اكتنفت الثورة والأسباب التى أدت الى اخفاقها ، ولعل هذه الأسباب تخليه من مسئولية هذا الاخفاق .

ان لاخفاق الثورة العرابية عوامل عدة ، بعضها داخلى وبعضها خارجى .. وأول العوامل الداخلية هو الانقسام الذى وقع فى الصفوف بين العرابيين والخديو توفيق . فان هذا الانقسام جعل من البلد معسكرين متحاربين ، معسكر الثورة ومعسكر الخديو ، فوقع الاصطدام بينهما ، وتفاقم أمره . وانتهز الانجليز فرصة وجوده ، وما أدى اليه من ضعف وتخاذل ، فحققوا أغراضهم الاستعمارية بالتدخل فى شئون البلاد ثم احتلالها ، ولو عولجت أسباب الفرقة والانقسام بالحكمة وحسن السياسة لسارت الثورة على صراطها المستقيم ونجت البلاد من الاحتلال .

صحيح ان الثورة فى ذاتها بدأت بالتصادم مع الخديو ، فما واقعة قصر النيل ثم واقعة عابدين ، الا مظاهر لهذا التصادم وذلك الانقسام .. فكيف يمكن اذن تعليل اخفاق الثورة بالانقسام وهو هو منشأ الثورة ؟

(١) المراد بالمخطىء هنا من اخطأه الحظ والهبل هو الثكل .

نقول نعم .. ان الثورة ظهرت اول ما ظهرت بالتصادم مع الخديو . وهى وليدة هذا التصادم أو هذا الانقسام ، ولكن الحكمة كانت تقتضى بعد اجابة مطالب عرابى وصحبه فى وقعة عابدين ونزول الخديو على ارادتهم أن يعالجوا الشئون العامة بالأناة والتريث ، ويعملوا على رأب الصدع وتوحيد الكلمة وازالة الفرقة والخلاف بينهم وبين الخديو ، ولكنهم على العكس لم يأبهوا لهذه الناحية .. وداخلهم الشيء الكثير من الغرور ، وعدم النظر فى العواقب ، فاخذ الخلاف يتسع ويتفاقم ، حتى كان من أمره أن اعتزم العرابيون خلع الخديو ، وتحدثوا فى ذلك علنا ، وهذا أقصى مظاهر التنازع والشقاق بين أبناء البلد الواحد .

* * *

كان لهذا الانقسام من العواقب الوخيمة ما لا يغيب عن البال ، فقد ادى الى التخاذل فى ساعة الخطر ، وتضعضع قوة المقاومة .. بل هو السبب المباشر للاحتلال البريطانى ، اذ أن الانجليز تذرعوا الى هذا الاحتلال بدعوى تأييد سلطة الخديو وحماية العرش ، فجاسوا خلال الديار وحاربوا العرابيين ، وكان فى وصف الانجليز معسكر الخديو والحكومة . وكان يجدر بعرابى وزملائه زعماء الثورة أن يتداركوا هذه الحالة ، ويتلافوا أسباب الانقسام تفاديا من التدخل الأجنبى . ولم يكن لهم عذر فى أن يجهلوا المطامع الاستعمارية التى تكتنف مصر .. فان حوادث ذلك العصر والعصر الذى سبقه كانت تكشف عن نيات انجلترا فى تطلعها الى احتلال وادى النيل . ولقد تجلت هذه النيات منذ حاربت نابليون فى مصر سنة ١٧٩٨ ، وحين أسس محمد على الدولة المصرية الحديثة انجردت سنة ١٨٠٧ تلك الحملة التى باءت بالخيبة والخذلان . وما فتئت تعمل على تحقيق أغراضها الاستعمارية فى عهد محمد على وخلفائه . وكان شراؤها أسهم مصر فى قناة السويس سنة

١٨٧٥ الخطوة الأولى نحو الاحتلال .. فهذه الحوادث وغيرها كان من شأنها أن تبصر العرابيين بالخطر الذى يتهدد البلاد ، وتدعوهم الى تلافى أسباب الانقسام الذى لا شك فى انه يوهن قواها فى ساعة الخطر . وكان لهم من احتلال فرنسا لتونس سنة ١٨٨١ نذير بما تستهدف له مصر من مطامع الاستعمار الأوربى عامة .. ولكنهم لم يتبصروا فى العواقب ، فمهدوا السبيل الى اخفاق الثورة ووقوع الاحتلال .

* * *

فالانقسام هو اول العوامل فى اخفاق الثورة ..

يليه تأثير الزعماء فى تطور الحوادث .. فلقد كانت تنقصهم الخبرة السياسية ، وهذا النقص وحده يكفى لاخفاق أية ثورة فى مختلف البلدان .

وقد حرمت الثورة أيضا الكفاية الحربية ، مما بدا اثره فى المعارك التى نشبت بين الانجليز والمصريين ، ولو كان على راس الثورة قائد كفء لتغير مصير الوقائع الحربية فيها . ولكنها مع الأسف لم توفق الى قواد أكفاء ، وقد تجلى عدم الكفاية الحربية فى احجام عرابى وصحبه عن سد قناة السويس عند ابتداء القتال ، وهذا المثل وحده يدلك على جهل تام بفنون الحرب ، لأن سد القناة كان أول ما يجب عمله بلا تردد لكى يضمن الدفاع عن مصر كما تقدم بيانه . ولو سدت القناة فى الوقت المناسب لطال أجل الحرب ووجدت مصر الوقت الكافى لتنظيم وسائل الدفاع ، لأن الأمة كانت مستعدة لبذل كل تضحية للدفاع عن كيانها .. ولكن الخطأ يرجع الى زعمائها السياسيين والحربيين .

وثمة عامل آخر له أثره الكبير فى اخفاق الثورة ، وهو قلة البطولة والتضحية .. فقد رأيت كيف كان موقف عرابى فى واقعة التل الكبير ، وكيف ترك الميدان دون جهاد أو نضال ، وكيف سلم نفسه للانجليز وكيف كان موقفه اثناء المحاكمة وبعدها .

كان هذا التسليم والخضوع من أكبر العوامل في اخفاق الثورة، وانحلالها ، لان الأمم تتأثر حتما بنفسية زعمائها ومواقفهم .. فمواقف التضحية والبطولة تبعث في الأمة روح التضحية والبطولة ، ومواقف التسليم والخضوع تقضي على هذه الروح حتى في النفوس التي كانت مشربة بها ، أو مستعدة لها .

* * *

فالزعامة تطبع الأمة بطابعها ، ان خيرا فخير وان شرا فشر .. ولذلك لا تعجب من ضعف المقاومة التي لقيها الانجليز حين احتلالهم مصر ، فان زعماء الثورة كانوا أول من استسلم في ساعة الخطر . وقد ظهر ضعفهم النفسي في المحاكمة ، اذ اخذ كل منهم يتنصل من تبعة الثورة ، وتبين من موقفهم أنه كان ينقصهم الايمان والعقيدة .. وهما اساس النجاح لكل دعوة وكل عمل . ولو أنهم ضربوا للأمة المثل العليا في التضحية والشجاعة والاقدام لكانت الثورة العرابية في دورها الثاني صفحة مشرفة من تاريخ مصر القومي . كما كانت في دورها الأول . ولكن أية مقاومة تنتظر بعد أن ترى الأمة زعماءها يتركون ميدان القتال ويلقون أسلحتهم خاضعين مستسلمين ؟ !

لا شك أن هذا الموقف وحده من أهم الأسباب في اخفاق الثورة العرابية .. ولو أن عرابي وصحبه قاوموا وقاتلوا في التل الكبير لكان لهذه الوقعة ولو انتهت بالهزيمة صبغة أخرى غير الصبغة التي طبعت بها . ولو أنهم أدوا واجبهم لاستمرت المقاومة عهدا طويلا ، ولبعثوا في البلاد من اقصاها الى أقصاها روح البذل والتضحية .

قد تقوم في بعض البلاد ثورات تنتهي بالهزيمة .. برغم مايبذل فيها من جهود وتضحيات . ذلك حين تتغلب عليها القوة وتقمعها، فامثال هذه الهزيمة لا تعد اخفاقا ، بل هي صفحة مشرفة من كفاح

الأمة فى سبيل حريتها واستقلالها ، وهى بما يتخللها ويزينها من البطولة والشجاعة والتضحية ، تبعث فى الأمة دما جديدا ، يجدد من حيويتها ، ويزيدها قوة ومرانا على الكفاح والمقاومة . وتظل صفحة جهادها مثلا عاليا تحتذيه الأجيال المتعاقبة فى افتداء الوطن بالنفس والمال ..

ومن العوامل الداخلية فى اخفاق الثورة سياسة الخديو توفيق فهو لم يكن مؤمنا بالشورى ولا موقنا بحق الأمة فى الدستور . وعلى ما كان عليه من الضعف والتردد ، فانه كان يميل الى الحكومة المطلقة يستأثر فيها بالسلطة هو وحاشيته والمقربون اليه . ولم يكن يعترف لغير هؤلاء بالنفوذ والسلطان ، اللهم الا لممثلى الدول الأجنبية ، فانه كان يحرص على كسب ودهم وثقتهم ..

ومن هنا جاء خضوعه لرغبات معتمدى انجلترا وفرنسا ، ولو كان صادق الرغبة فى احترام حقوق الأمة لما اتخذت منه الدولتان تكأة لمحاربة الثورة . فقد استغلتا ميوله الخاصة وكراهيته للثورة ففاجأتا البلاد بمذكرة ٧ يناير سنة ١٨٨٢ التى تقدم الكلام عنها . ولما اشتد الخلاف بينه وبين وزارة البارودى فى حادثة مؤامرة الضباط الشراكسة بدأ انحيازه الى التدخل الانجليزى الفرنسى بشكل واضح . ولما انسحبت فرنسا من الميدان استمر انحيازه الى جانب التدخل الانجليزى .

***

وكان للعوامل الخارجية أثر كبير فى اخفاق الثورة العرابية . وأهمها المطامع الاستعمارية الأوربية ، وبخاصة الانجليزية ، ففرنسا وانجلترا كانتا تطمعان فى توسيع نفوذهما فى مصر . ومن هنا جاء سخطهما على الثورة وكراهيتهما قيام حكومة دستورية فى البلاد . ولقد رأيت كيف ائتمرتا بالحركة الوطنية ، ووضعتا العقبات والعراقيل فى سبيلها ، وكيف بدأت نياتهما السيئة نحوها بمذكرة ٧ يناير سنة ١٨٨٢ ، تلك المذكرة التى تنطوى على النية العدائية

والبغضاء بين الخديو والأمة ، وكيف اعقبتا تقديمها بالمعارضة فى تخويل مجلس النواب حق تقرير الميزانية ، مما ادى الى سقوط وزارة شريف باشا .. ثم انتهازهما فرصة الانقسام الذى وقع بين الخديو والعرابيين وارسالهما أساطيلهما الى مياه الاسكندرية ثم تدخلهما بالفعل وتقديمهما بلاغهما النهائى باقالة وزارة البارودى وابعاد زعماء الثورة ، ورفض العرابيين هذه المطالب ، وقبول الخديو اياها .. مما ادى الى استقالة وزارة البارودى وانفجار بركان السخط على الخديو .

فالسياسة الاستعمارية الانجليزية والفرنسية كانت من اكبر العوامل فى اثارة الانقسام بين الأمة والخديو .. واعقب هذا الانقسام انسحاب فرنسا من الميدان وانفراد انجلترا بالتدخل لتحقيق مطامعها الاستعمارية فى مصر ، وقد رأيت كيف نفذت برنامجها الاستعمارى بضرب الاسكندرية وانزال جنودها الى البر .. فكان ذلك بدء الحملة التى قضت على الثورة وعلى الاستقلال .

اضف الى ذلك جمود اوربا حيال الاعتداء البريطانى ، وسوء نية تركيا نحو مصر منذ قيام الثورة ، وسعيها الأخرق فى استرداد الاستقلال الذى نالته مصر . وما ظهر منها من التذبذب والنفاق ، والتظاهر تارة بمناصرة العرابيين ، وطورا بتاييد الخديو ، وانضمامها أخيرا الى جانب الانجليز باعلانها عصيان عرابى والحرب قائمة .. فكان هذا الاعلان ضربة شديدة للثورة ، وعضدا كبيرا للحملة البريطانية .

* * *

كل هذه العوامل التى اجتمعت على مصر كان لها الأثر البالغ فى اخفاق الثورة .. وكان لضعف السياسة الفرنسية وترددها حيال المسألة المصرية وترك الانجليز يتدخلون وحدهم فى شئون

البلاد اثر كبير فى تطور الحوادث ، اذ انتهزت انجلترا هذه الفرصة وانفردت باحتلال مصر واخماد الثورة وتثبيت قدمها فى البلاد .

وليس من السهل على أمة تثور للحرية أن تتغلب على كل هذه العوامل مجتمعة ، ما لم تؤت قوة الجبابرة ، او عقول العباقرة .. وانك لترى ان اكثر الأمم التى ثارت من اجل حريتها واستقلالها كان لها ، على العكس ، من العوامل الخارجية ما ساعدها على تحقيق آمالها . فالثورة الأمريكية لم تدرك ما نالته من النجاح ولم تحقق استقلال الولايات المتحدة الا بعد أن عاونتها فرنسا بجيشها وأسطولها . وايطاليا لم تحقق وحدتها وتتحرر من النير النمسوى الا بمعاونة فرنسا العسكرية . واليونان لم تتحرر من النير التركى الا بمعاونة روسيا وفرنسا وانجلترا . وكذلك الأمم البلقانية عامة لم تنفصل عن تركيا وتحقق استقلالها الا بمساعدة أوربا .

أما مصر فانها لم تحرم المعاونة من الخارج فحسب .. بل تألبت عليها العوامل الخارجية وعاونت انجلترا على تحقيق أطماعها الاستعمارية .

ويقيننا ان العوامل الخارجية كانت أقوى من العوامل الداخلية فى اخفاق الثورة العرابية .

* * *

راجع هذا الكتاب

المستشار حلمى السباعى شاهين

فهرس